الإغراب في شعر المتنبي

الدكتور
طلعت صبح السيد

الطبعة الأولى
١٤١١ هـ - ١٩٩٠ م

مطبعة النهضة - شارع الثورة بالمنصورة
ت ٣٤١٨٢١

بسم الله الرحمن الرحيم

مبـــالغــة واعــتزاز

أنا الـذى نظر الأعمـى إلى أدبى . · . وأسمعت كلمـاتى مـن بــه صمم

أنام مـلء جفونى عـن شواردهـا · · . ويسهـر الخلق جـراهـا ويختصـم

أبو الطيب المتنبى

المقدمة

المقدمــــة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا محمد رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه وبعد :

فهذا بحث بعنوان "الإغراب فى شعر المتنبى" وهو موضوع يتناول ظاهرة الإغراب كظاهرة فنية وصنعة شعرية عند شاعر العربية أبى الطيب المتنبى .

والمتنبى شاعر من فحول شعراء العربية ، وقد بلغ فى عالم الشعر درجة قلما توجد لأحد من الشعراء قبله ، وكان على رأس الشعراء الذين يقدرون أدبهم ، ويدركون قيمة فنهم وماله من أثر فى تخليد الذكر ونشر المآثر وبعد الصيت .

وقد أثار فى حياته وبعد مماته حركة واسعة من الدراسات النقدية ، وانتشر بذلك أدبه انتشارا واسع المدى ، وطوف شرقا وغربا ، وملأ مسامع الزمن تغنيا بمحامده وتفاخرا بمآثره ، وشهد له أرباب الفصاحة بالطلاقة والنبوغ ، حتى إن خصومه لم ينكروا فضله وعبقريته ، وشغل الناس بفنه فى كثير من الأمصار والبلدان ، وسيظل المتنبى محورا لدراسات مختلفة الاتجاهات مختلفة النتائج ؛ ففى أسلوبه مظاهر مختلفة لأنماط وفيرة من الأساليب ، فعنده الأسلوب المعقد المضطرب ، وعنده الأسلوب الغامض المجسم للصنعة المتكلفة ، وعنده الأسلوب الصوفى المشتمل على كثير من دواعى اللبس والغموض ، وعنده ـ وفى أغلب ما أنتج من قصيد ـ الأسلوب الرصين والتركيب الجزل .

وقد قام الأدباء والنقاد بدراسات تناولت فن المتنبى ، فدرست محاسنه ومساوئه، وأفصحت عن بعض خصائصه ، وكشفت عن الجديد لديه ، وقد انتهى النقاد ـ على

اختلاف مناحيهم فى البحث ـ فى ألفاظه وتراكيبه ومعانيه إلى نتائج قد نسلم لهم فى بعضها ، ونخالفهم فى بعضها الآخر .. على الرغم من أنهم يكادون يتفقون على كثير من الحقائق التى قرروها ومنها أن المتنبى قد أغرب فى بعض أشعاره ، وقد جاء ذلك فى اللفظ كما جاء فى التعبير والمعنى ، أو فى الصورة أو فى الموسيقى وغير ذلك .

ولعل هذه الكثرة الكثيرة من الدراسات التى دارت حول شاعر العربية المتنبى ، كانت السبب المباشر فى اختيارنا لشعره موضوعا لهذه الدراسة ؛ لأن أمثال هذه الدراسات الوفيرة لشاعر العربية تدفع بالسير وراء هذا الشاعر ، وتغوى بالبحث والدراسة فى أدبه ، ثم إن المتنبى والذى هو من أقوى شعراء العربية ، وأبعدهم شهرة، وأخلدهم أثرا ، وأعمقهم حكمة ، وأصدقهم إفصاحا عن خفايا النفس ، هو المتنبى المغرم أيما إغرام بالإغراب ، وبغموض الأسلوب بل إن شئت فقل إنه من أكثر شعراء العربية وقوعا فى العيوب اللفظية التى تفسد جمال الأسلوب .

والحق أننا وجدنا كثيرا من النقاد القدامى والمحدثين يتناولون الشاعر بالدراسة والنقد ، وقد اختلفوا فى أدبه اختلافا واسع المدى . وكان لكل منهم زاويته الخاصة التى ينظر إليها فى أدب المتنبى ، فمنهم من تتبع الناحية اللغوية ، ومنهم من تتبع الناحية الأسلوبية ، أو ناحية المعانى والأفكار ، أو منهجه فى بناء القصيدة ، أو أوزانه وقوافيه ، أو مدى تأثره بالشعراء أو تأثيره فيهم .. وكثير من هؤلاء النقاد قد حاولوا النيل من المتنبى بسبب من هذه المآخذ ، بل إن بعضهم قد أنكر كل ما للشاعر من ميزة وفضل ، ورأوا أن إنتاجه الضخم إن هو إلا هراء لا علاقة له بالشعر ولا بالفن ؛ لأنهم يرون أن الشاعر قد خرج عن مألوف قواعدهم ومألوف مقاييسهم ، ونحن نرى أن فى مآخذ هؤلاء تعسفا مبعثه إهمالهم للحياة التى عاشها المتنبى وللمذاهب التى لقنها وعاش فى ظلالها وهو صغير .

غير أن الذى يعنينا من جوانب فنية المتنبى إنما هو " الإغراب " فهو مادة صالحة للاجتهاد والاختلاف والخصومة بين الأدباء والنقاد كما كان حال شعره بين المفسرين والشراح . وقد تعقب النقاد المتنبى فى هذا المجال ، وأحصوا له شواهد أغرب فيها

حتى وصل إلى الحد المعيب ، كأن يجنح عن القصد فى بعض ألفاظه وتراكيبه ، أو أن يستعمل الكلمات غير الشعرية ومالا تقره اللغة فى أفصح استعمالاتها .

واعترفوا كذلك بأن طبيعة الجو الذى عاش فيه المتنبى كانت تسمح له بإعمال العقل وشغل التفكير ، ومعنى ذلك أنه يزيل المعالم الفاصلة بين الشعر والفلسفة ، فيخرج عن رسم الشعر إلى طريق الفلسفة ، ويأتى فى شعره بحقائق فلسفية ، ويستعمل كلمات المتصوفة المعقدة ومعانيهم المغلقة ، حتى صار أولى من غيره من شعرائنا بالنصيب الأوفى فى عالم المذاهب والآراء ، يضاف إلى ذلك أنه حين عدل شعره إلى العبارات الصوفية كان قد أسلم هذا الشعر إلى صعوبات فى التركيب .. وكل هذا ينتهى بنا إلى نتيجة هى أن هذه القضية هى من أسباب كثرة ما أثير حول الشاعر من دراسات فى القديم وفى الحديث .

وأيا ماكان الأمر فإن المتنبى كان يتعسف أحيانا فى شعره ، فيأتى باللفظ المعقد ، والترتيب المتعسف ، وبالبيت الذى اختل نظمه وفسدَ ترتيبه ، بحيث يصعب على القارئ الوصول إلى المعنى المقصود . والحق أن بعض هذه العيوب قد لا تحتمل ، ولا يصح التسامح فيها ؛ لأنها تحط من قيمة الشعر ، وتقعد به عن الإثارة والتأثير اللذين هما من نتائج الفهم والإدراك ، والواقع أن الشعر إذا فقد هذه الغاية ضاع كل ماله من قيمة ومنزلة ، وهبط مستواه إلى درجة تستنفد من القراء كثيرا من الجهد والفكر حين يريدون الاهتداء إلى المعنى المراد .

ونحن نحاول أن نستعرض بالدراسة ظاهرة " **الإغراب فى شعر المتنبى** " وأن ندرس هذه الظاهرة الفنية دراسة منظمة تختلف كلية فى منهجها عن الدراسات السابقة ، من حيث أن هذه الدراسة لا تعنى بالإحصاء ولا تعتمده أساسا لها ، ولكنها تعتمد على النص الأدبى للشاعر ، وتحاول أن تربط ذلك كله بأساليبنا الفنية الموروثة وبوسائل التصنيع القديمة ، كما تربطه بثقافة عصره ، وتكشف مدى تأثره بهذه الثقافة الواسعة التى امتزج فيها التصوف والفلسفة واللغة والتشيع ، ليستطيع القارئ أن يحكم بنفسه حكما لازيف فيه على شعر المتنبى وما يكتنفه من غرابة فى طرف وضروب جمال وحيوية فى طرف آخر .

هذا وقد قدمت الكتاب بفصل تمهيدى مناسب هو الفصل الأول ، وجعلته مرآة تعكس صورة عن حياة المتنبى وشخصيته ، كما وضحنا الإطار العام للعصر الذى عاش فيه المتنبى ، وغير ذلك مما له أثر فى شاعريته وذوقه الفنى ، وألقينا الضوء على المؤثرات السياسية والثقافية فى الآونة التى نشأ فيها المتنبى ، والتى لا يمكن لأي باحث فى أدب المتنبى أن يتجاهلها ، وبينا أن هذه الحياة المليئة بالفتن الدينية والمذهبية ، وتنازع الحكام ، وثورات المحكومين ، وتنافس الدول الناشئة واضطرابها - فرضت على المتنبى أن يخوض فى مواقف صعبة ، وأن يسلك طرقا غير مألوفة ، وأن يندفع بكل جوارحه إلى موضوعه حتى تلتهب نفسه بلهيب الانفعال ، ومن ثم نجده يطغى على الأسلوب ، ويأتى فى كلامه بغموض والتواء ، ويتكلف فيه المركب الصعب .

ثم حاولت فى الفصل الثانى أن أعرف بالإغراب وبأسبابه ، وحاولت أن أدرس مصطلح الإغراب فى الشعر العربى بصفة عامة وفى شعر المتنبى بصفة خاصة ، وذكرت الأسباب التى تجعل من الصعوبة وضع تعريف محدد للإغراب ، ثم درست هذا المصطلح عند كل من اللغويين والبلاغيين والنقاد ، وأشرت إلى أن مدلول الإغراب قد تؤديه أو تؤدى بعضه ألفاظ أخرى ذكرتها وحددت ما بين هذه الألفاظ من اشتراك فى المدلول اللغوى أو العرفى .

وبعد ذلك تحدثت عن المؤثرات التى تأثر بها شاعر العربية المتنبى والتى جعلت شعره يكون بتلك الصورة ، وأوضحت أن هذه المؤثرات منها ما يتصل بطبيعة الشاعر وحياته وعصره وبيئته ، ومنها ما يتصل بالظروف والأحوال التى أوجدت النص الشعرى .

والإغراب قد يكون فى اللفظ ، وقد يكون فى التعبير ، وقد يكون فى المعنى أو فى الصورة بتراكيبها ، وتداخلها ، وتناقضها فى البيت ، وقد يكون فى الموسيقى كذلك إلى آخره .

وقد تحدثت فى الفصل الثالث عن الإغراب فى اللفظ ، وأشرت إلى أن المآخذ

التي يمكن أن توجه إلي المتنبى من حيث اللفظة تكاد تنحصر فى الأمور الآتية :

١- استعمال الغريب الوحشى من الألفاظ .

٢- المآخذ النحوية .

٣- استخدام الألفاظ استخداما عاما لا يعين على فهم المقصود على وجه التحديد .

٤- استخدام الألفاظ استخداما غير دقيق .

٥- إتيانه بألفاظ ليست جميلة الجرس على الآذان .

٦- تكرار الألفاظ لغير علة جمالية .

٧- عدم طرافة الألفاظ .

٨- استعماله لكلمات لا أصل لها فى اللغة .

٩- تلوين الألفاظ بألوان مختلفة من التفلسف أو التصوف .

١٠- عدم اعتدال اللفظ فى عدد حروفه .

١١- استخدامه لألفاظ ينتمى معظمها إلى البيئة البدوية (١) .

وذكرت فى الفصل الرابع الإغراب فى التعبير ، وأشرت إلى أن المتنبى كان يبحث عن صيغ جديدة للتعبير ، وقد عمَّم هذا فى شعره ولم يقف به عند حد موضوع معين ، فهو كما أكثر من الألفاظ الغريبة نجده يكثر من الأساليب العويصة، ثم عللنا لالتجاء المتنبى إلى الإغراب بأمور منها :

١- أنه تثقف ثقافة عقلية واسعة ، ووقف على كل ما عرف لعصره من معارف وآراء ، وامتزج فى ثقافته اللغة والتشيع ، والتصوف والفلسفة .

٢- أنه حاول أكثر من غيره أن يجارى العصر وبيئاته فى الأساليب كما هو الحال فى الأفكار .

٣- أنه كان مثقفا ثقافة نحوية واسعة ، وهو كعالم نحوى كان يغرم إغراما بالتراكيب الغريبة .

٤- أنه كان ينشد الفلسفة ، وكان يتصنعها ، وكم كان يتمنى أن يستخدمها استخداما خاصا كما كان الحال عند الشاعر أبى تمام .

---

(١) وهذا المأخذ يظهر غالبا فى شعره فى الطبيعة .

٥- أنه حاول أن يعتمد على أساليب الشيعة والمتصوفة كما اعتمد على ألفاظهم وأفكارهم .

٦- لقد عمم المبالغة فى شعره ، وأخذ يفرط فيها حتى تسربت إلى جميع موضوعاته .

٧- وكان يهتم كثيرا فى شعره بتكرار الألفاظ وبتتابع الإضافات لغير علة جمالية ، وهذا التكرار من شأنه أن يسئ إلى جمال النظم ، وكثيرا ما كان يضطرب أسلوب الشاعر بسبب من تحريه لهذا التكرار .

٨- أنه أغرم بالبديع ليظهر براعته اللفظية ومهارته فى النظم ، وقد جعلته هذه الطريقة يجمع بين البديع النادر و الضعيف الساقط .

وجعلت الفصل الخامس للحديث عن الإغراب فى المعنى ، وأكدت على أن المتنبى قد أجاد فى المعانى ، ورصد من محاسنها ما يريده الأدباء والنقاد ، وقد أتى بمعان جديدة مبتكرة لا إلف للشعر العربى بها من قبل ، بل إنه لتكاد تتفق كلمة كثير من النقاد على أن المتنبى من أبرع الشعراء فى الاهتداء إلى الحكم وفى ضرب المثل ، وهذا إن دل على شئ فإنما يدل على عبقرية المتنبى وعلى قدرته الفذة على جمع أطراف التجارب الإنسانية العامة .

وذكرت أن المتنبى مع ما سبق ذكره قد خفى شعره حتى على رواته من الأدباء والعلماء ، وأن الدعامة الكبرى فى المعانى وهى الوضوح تكاد تكون مفقودة فى كثير من شعره وعللت لذلك بما يأتى :

١- إغرامه بالغلو والمبالغة حتى ولو جعله ذلك يتجاوز حد الاعتدال .

٢- أنه يستعمل كلماته استعمالا غير فنى لا يعين على فهم المقصود ، ومعنى ذلك أنه يصوغ من المعانى ويأتى من الصفات مالايحقق الغرض الشعرى تحققا قويا ، ويأتى فى تصويره للشئ لا على ما هو جوهرى من صفاته ولكن على ماهو عرضى من تلك الصفات .

٣- أنه يأتى بالمعنى لا يناسب الغرض ، فيحله محلا لم يخصص له .

٤- لقد اعتمد فى كثير من معانيه على أحداث وإشارات تاريخية قد تخفى على غيره ولا ينكشف المعنى إلا بكشفها .

٥- إلحاحه - من غير تصرف أو ابتكار - على المعانى التى تناولها الشعراء فى عصره وقبل عصره .
٦- أنه - لغلوه ومبالغته - ينتفع بأفكار الفلاسفة والمتصوفة .

وتحدثت فى الفصل السادس عن الإغراب فى التصوير والموسيقى ، وبينت أن المتنبى يعمد فى كثير من الأحيان إلى الإتيان بصور تتسم بالغموض ، وأنه كان فى تصويره يقصد الإغراب قصدا، وكثيرا ما كان يعتمد فيه على التناقض والتضاد كوسيلة لإثارة الانتباه ولفت النظر ، بل إننا لنراه يبتدع ما يسمى بعكس الكلام حين يريد المبالغة فى التصوير ، وقد يصور الشئ بشئ آخر لم يقع له على شبه لا قريب ولا بعيد ، كما بينت ما جاء به من صور تفتقد الإتقان والطرافة .

وبينت كذلك أن إغراب المتنبى وتصنعه فى الشعر قد تناول توقيعاته كما تناول ألفاظه وتراكيبه ، وذكرت أن اعتماده على ثقافته النحوية ولجوءه إلى كثير من التراكيب الشاذة فى صنع قصائده ، وإلحاحه على كل غريب أو شاذ فى التعبير - قد أحدث خللا فى موسيقى شعره وإيقاعاته ، وجعله يأتى لقوافيه بحروف لا تتلاءم وموضوع القصيدة .

وأشرت فى الفصل السابع إلى أهم الأغراض الشعرية عنده والتى يمكن أن نلمس فيها ظاهرة الإغراب ، وبينت أن عنوان هذا الفصل لا يعنى أن الإغراب عند الشاعر يقتصر على غرض شعرى دون سواه ، ولكنه يظهر ويشيع فى كل الأغراض الشعرية وكل ما فى الأمر أنه يختلف فى درجته من غرض لآخر .

ثم بينت كيف كان المدح من أكثر الأغراض الشعرية وأشهرها إغرابا ومبالغة فى شعر شاعرنا ، وأن له كذلك إغرابا فى الفخر والوصف لا يقل درجة عنه فى الأغراض الشعرية الأخرى ، ثم وضحت أن إغرابه فى شعر الهجاء كان السبب الأول فى خروج هذا الشعر شديد الوقع فى النفس قوى التأثير فى المهجو .

وذكرت كذلك أن المتنبى قد وفق للإجادة فى مواطن الهجاء أكثر مما وفق فى

مواطن المدح ، فالمتنبى حين يهجو كان يتقن الإساءة إلى من يهجو ، ويبرع فى التشهير به والتشنيع عليه ، وليس من المشروط عليه أن يقول حقا حين يهجو ، لأن هذا لا يعنى الفن بحال من الأحوال ، وقد روى التاريخ الأدبى أن شعراء كذبوا فى الهجاء وقضى لهم بالبراعة والجودة .

وفى الفصل الثامن أفردنا حديثا للحكم على إغراب المتنبى ، وذكرنا أننا لا نتوقع مطلقا من المتنبى مهما كانت شاعريته ومهما كانت طاقته الفنية أن يسلم كل إنتاجه من النقد وينجو من المآخذ ؛ لأن المتنبى فى ذلك شأنه شأن جميع الشعراء المكثرين ، ثم ذكرنا أن عيوب الشاعر تتضاءل أمام محاسنه ، الأمر الذى جعل النقاد ينصرفون عن كل تلك التعقيدات التى جاء بها المتنبى ، وعللنا ذلك بأمور كثيرة منها :

١- نشأة المتنبى العربية الأعرابية .
٢- ذكاؤه المفرط .
٣- أن شعره كان منبعا من منابع حكمته .
٤- أنه كان شديد الصلة بسيف الدولة الحمدانى ، وقد بلغ إبان ملازمته له قمة عطائه الشعرى وإبداعه الفنى .
٥- وضوح شخصية المتنبى فى شعره .

وهكذا يمكننا القول بأن هذه المآخذ لا تضعف من شاعرية المتنبى ، ولا توهن من فنيته ، فهى لا تعد طبعا فيه لا يمكن أن يحيد عنه ، ولكنها بمثابة أمر عارض لأسباب كثيرة منها ما يتعلق بطبيعته ومنها ما يتعلق بالموضوع الذى ينظم فيه ، ولذلك فإن الكثرة الغالبة من شعره بريئة من كل تلك الهنات ، ومن ثم يمكننا القول إن لكل واحد من الأدباء والنقاد الحق فى أن يقول عن أسلوب المتنبى ما يشاء ولكنه لا يستطيع أن ينكر أننا لا نستطيع مهما كان الأمر أن نتفلت من تأثيره ومن روعة شعره .

ثم ختمت فصول الكتاب بالفصل التاسع ، وفيه ذكرت

" المتنبى بين شعراء الصنعة "

ووضحت أنه لا يجوز أن نساوى بين المتنبى وبين غيره من شعراء الصنعة وذلك لما له من موهبة شعرية فاقت غيره من الشعراء . وألقيت الضوء على شعر الصنعة فى العصر الجاهلى وفى العصر الإسلامى وفى العصر العباسى .

وقد دعانى ذلك كله إلى أن أفرد طرفا من الحديث بين شاعرى العربية " المتنبى وأبى تمام " ذلك لأن أبا تمام يعد صاحب صناعة شعرية لا حدود لها ، وليس من شك فى أنه كان للثقافات المختلفة أثر بعيد فى شعره ، بما فتحت أمامه من أبواب الفكر الفلسفى ، وما بعثت فيه من محاولات جادة لاستكشاف دفائن المعانى واستخراج دقائقها . ولذلك نراه يشيع الغموض فى كثير من أبياته الشعرية .

ووضحت أن درجة الإغراب فى شعر المتنبى تختلف - إن قليلا أو كثيرا - عنها عند شاعر العربية أبى تمام ، وذلك تبعا لما يكتنف حياة كل منهما من ظروف وتطورات ، وذكرت أن الشاعر أبا تمام كان يضيف إلى ثقافته الواسعة ثقافة فنية أخرى لا تقل عنها شأنا ، ولذلك انتهى عنده مذهب التصنيع إلى غايته .

وبعد فهذه هى مقدمة الدراسة التى قمت بها ، وقد ذكرتها موجزة التزاما بطبيعة المقدمات العلمية ، وسوف يأتى تفصيلها فى ثنايا فصول الكتاب ؛ وإننى لأرجو أن أكون قد وفقت فى خدمة هذه الدراسة التى نصبت نفسى لها ، فإن كان كذلك فبعون الله وتوفيقه وتأييده ، وإلا فحسبى أننى حاولت أن أوفى الموضوع حقه من البحث ، وأرى ذلك بداية ستتبعها محاولات أخرى بإذن الله تعالى .

وإن واجب الوفاء والعرفان بالجميل يدفع بى إلى شكر قارئ صفحات هذا الكتاب ، كما أننى أحمد صنيع كل من تفضل بإسداء المساعدة فى هذا العمل بشكل أو بآخر ، وأشكر كذلك كل من أفسح لى مجال الدراسة والبحث ، وليس ذلك بغريب

على واحة العلم ، تلك التى تجذب إلى دوحتها رجال الفضل مختارين طائعين ، لا يبغون أجرا ولا ينتظرون شكورا .

وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه انيب

دكتور / طلعت صبح السيد

الطائف فى شوال ١٤١٠ هـ
مايو ١٩٩٠ م

الفصل الأول

صورة عامة عن حياة المتنبي وعصره

١- صورة عن حياة المتنبى وشخصيته

ولد شاعر العربية أبو الطيب المتنبى فى حى من أحياء الكوفة ، وكانت ولادته سنة ثلاثمائة وثلاثة من الهجرة [١] ، وقد اختلف إلى كتاب فى الكوفة وتعلم فيه القراءة والكتابة [٢] ، كما تعلم فيه الأدب واللغة . ولعلنا نعرف أن الكوفة آنذاك كانت مركزا لسلطان العلوية ، وكانت مهداً لكتاب المذهب العلوى وعلمائه الذين لا نستبعد أن يكون المتنبى قد أنس إليهم واستفاد من علمهم .

والحقيقة أن المتنبى لم يحفظ نسبه ، ولم يحفظه أيضا المؤرخون ، وهو فى ذلك أمره أمر الكثرة التى لا تحصى من القدماء والمحدثين الذين لم يحفظوا أنسابهم، ولكنه يختلف عنهم فى ذلك الاهتمام الذى حظى به مِنَ القدماء والمحدثين على السواء .

يقول الدكتور طه حسين وهو بصدد الحديث عن سبب دراسته للمتنبى :" وأكبر الظن أنى إنما فعلت ذلك لأن المتنبى كان ومازال حديث الناس المتصل منذ أكثر من عامين ، ولأنى حاولت ومازلت أحاول أن أستكشف السر فى حب المحدثين له وإقبالهم عليه ، وإسرافهم فى هذا الحب والإقبال ، كما أسرف القدماء فى العناية به حبا وبغضا، وإقبالا وإعراضا " [٣]

وديوان المتنبى لا يحدثنا عن نسبه من جهة أبيه أو من جهة أمه ، ولم يذكر من أمرهما شيئا ، ولعل المتنبى – نتيجة لمغالاته فى الغرور وإسرافه فى الكبرياء –

---

(١) انظر يتيمة الدهر (الجزء الأول) ، وانظر كذلك الإبانة عن سرقات المتنبى ، وانظر أيضا زيادات ديوان شعر المتنبى ، لعبد العزيز الميمنى ص ٨ . المطبعة السلفية ١٣٤٦ هـ .

(٢) خزانة الأدب للبغدادى ١٣٧/٢ .

(٣) مع المتنبى ص ٩ طبعة دار المعارف بمصر ، الطبعة الحادية عشرة ١٩٧٦ م .

كان يؤثر الانتساب إلى المروءة والنجدة ، والبأس والشدة ، وارتفاع الهمة وبعد الأمل، وكان قديرا على أن يعلن ذلك ويجهر به .

وفى رأيى أن الذين اهتموا بالحديث عن نسب المتنبى لأبيه أو لأمه ، أو بانتسابه إلى العرب ، أو بالحديث عن مهنة والده ، إنما لم يقصدوا من ذلك تسجيل تاريخ المتنبى من حيث هو تاريخ وإنما كان قصدهم من ذلك كله إما رفع شأنه أو الحط من قدره . (١)

ليكن المتنبى فارسيا ، أو ليكن عربيا من قحطان أو من عدنان ، فالأمر الذى لاشك فيه هو أن سرا من الأسرار كان يكتنف حياة المتنبى ويحيط بأسرته ، وقد أدرك المتنبى هذا السر وتأثر به فى سيرته كلها ، والنتيجة المنطقية لهذا كله هى أن شاعرنا لم يستطع أن يلائم بين نفسه المتعالية المغرورة وبين البيئة الكوفية تلك التى ولد فيها وعاش فى حى من أحيائها .

هذا وقد هاجر المتنبى إلى العلماء ، وعاصر كثيرا منهم ، ومن هؤلاء : الزجاج، والسراج ، والأخفش ، ونفطويه ، وابن درستويه ، وأبو على الفارسى ، وغيرهم . وكان الفارسى يتردد على المتنبى ويكتب عنه شعره ، ويستنزله إذ مرّ بداره ، ولعل هذا هو السبب فى صداقتهما وفى توطد الصحبة بينهما .

وقد منح المتنبى حافظة قوية وذكاء نادرا ، وأخذت موهبته الشعرية تتفتح وهو صبى . وليس ذلك بأمر عجيب ، فقد هاجر مع كثير من أهل الكوفة إلى البادية (٢) بعد أن قدر خطورة الدور الذى تؤديه الصحراء إلى العلماء والأدباء ، وأخذ يسمع عن علمائها وأدبائها ، وأفاد منهم أيما فائدة ، وأخذ ينتفع كذلك من مجاورة الأعراب فى بواديهم .

---

(١) انظر المصدر السابق ص ١٢ وما بعدها .
(٢) انظر الكامل لابن الأثير : ٨ / ٥٨ .

غادر المتنبى العراق وتوجه إلى الشام سنة عشرين وثلاثمائة من الهجرة ، واتصل بسيف الدولة الحمدانى أمير حلب سنة سبع وثلاثين وثلاثمائة من الهجرة ، وقد حسن موقع شاعرنا من نفس الأمير فقربه إليه ، وأجازه الجوائز .

وفى بلاط هذا الأمير العربى سيف الدولة الحمدانى ، الشاعر والناقد ، الفارس المغوار ، اجتمع لشاعرنا حظ وافر من الثقافة والمعرفة ، إذ التهبت عاطفته نحو سيف الدولة الحمدانى ، فقوى من ثم شعره ، وأخذ ينظم عيون القصائد وأفضل الأشعار .

ويمتاز شعر المتنبى فى سيف الدولة بخاصة بما لم يمتز به سائر شعره . يقول الدكتور طه حسين : " وليس من الإسراف فى شئ أن يقال إن للمتنبى فى سيف الدولة ديوانا خاصا يمكن أن يستقل بنفسه . وهو إن جمع فى سفر مستقل لم يكن من أجمل شعر المتنبى وأروعه وأحقه بالبقاء ، بل من أجمل الشعر العربى كله وأروعه وأحقه بالبقاء " . (١)

والحقيقة أن شعر المتنبى فى سيف الدولة يمتاز بأمرين قد لا يتوفران لأى شاعر من الشعراء الذين أوقفوا شعرهم على الخلفاء والأمراء والأشراف ، وهذان الأمران هما : الكثرة والتنوع . فالديوان يحفظ لنا من شعر المتنبى فى سيف الدولة عددا لابأس به من القصائد والمقطوعات ، وهذا يعنى أن المتنبى قد خص سيف الدولة بعدد من القصائد لم يجتمع لأحد غيره من ممدوحيه ، ولا أرانى مغاليا إذا قلت إن المتنبى قد وفق فى كل قصيدة قالها فى سيف الدولة ، ووصل فى كل مقطوعة وجهها إليه إلى درجة الإجادة والروعة .

وليس فى ذلك شئ من الغرابة ، فالتاريخ يحكى أن المتنبى قد أوقف نفسه على سيف الدولة مدة تسعة أعوام كاملة ، وفى هذه الفترة لم يمدح المتنبى أحدا سوى سيف الدولة ، ولم يقل أثناءها شعرا إلا وهو يتمثل بطولة وعبقرية وفروسية سيف الدولة ، وهذا فى الواقع من الأشياء النادرة .

---

(١) مع المتنبى ص ١٦٩ . دار المعارف بمصر ط ١١ .

وقد درس الدكتور طه حسين هذه الظاهرة وعلل لها فقال : " وتعليل هذا يسير فيما يظهر إذا لاحظنا تغير الحياة السياسية والاقتصادية ، وما نشأ عن هذا التغير من التنافس العنيف بين الأمراء والحكام فى القرن الرابع . فقد كان هذا التنافس يقوم على أن يؤثر كل أمير أو حاكم نفسه ودولته بالخير، وبكل مامن شأنه نشر الدعوة لهما والإشادة بذكرهما . فلم يكن من اليسير لشاعر من الشعراء أن يمدح أميرين أو حاكمين إلا أن يكون أحدهما ظلا للآخر ومتصلا به ، بحيث يكون مدحه وسيلة لا غاية وسببا لا غرضا " (١) .

وأحب أن أقول آخر الأمر إن الرواة قد تحدثوا بما كان من انقطاع الشعراء للحكام والأشراف بصفة عامة ، وبما كان من انقطاع المتنبى لسيف الدولة الحمدانى وإغراقه فى مدحه بصفة خاصة ، وذهبوا فى ذلك مذاهب شتى .

وقد رأى الدكتور طه حسين أن المتنبى قد انقطع لسيف الدولة حين اتصل به وأنه قد انشغل به عن غيره من الذين تناولهم بالمدح أو بالهجاء ، بل إنه قد انشغل به عن الشعر الخالص ، وهذا يدل على التناقض الغريب بين رأى المتنبى فى نفسه وسيرته بين الناس ، كما يدل على نزول المتنبى للأمير عن نفسه وشخصيته وحريته فى الفترة التى اتصل فيها به ، وعلى أنه كان متطلعا دوما إلى العطاء والطمع ، لا إلى الجمال والفن .

يقول :

فلنلاحظ هذه الظاهرة فى نفسها ، فقد ينتهى بنا دراتها واستقصاؤها إلى نتائج قيمة فى تحقيق التاريخ الأدبى لهذا العصر. ولنلاحظ هذه الظاهرة بالقياس إلى شخصية المتنبى ، فهى تقفنا على أخص ما يمتاز به هذا الرجل من التناقض الغريب بين رأيه فى نفسه وسيرته بين الناس . فهو قد كان فى شبابه لا يطمح إلا إلى الحرية ، ولا يطمع إلا فى الاستقلال وهو قد ألقى نفسه فى السجن ، وعرض نفسه للموت فى سبيل حريته واستقلاله ، ولكنه لم يكن يظفر برعاية أمير من الأمراء أو سيد من السادة إلا نزل عن نفسه ، وضحى فى سبيله بهذه الحرية وذلك الاستقلال .

(١) المصدر السابق ص ١٧٠ .

وأغرب من هذا أن سيف الدولة لم يشغل المتنبى عن غيره من الأمراء والملوك فحسب، وإنما شغله أيضا عن الشعر الخالص . فقد رأيت أن غير المتنبى من فحول الشعراء لم يكونوا يفنون أنفسهم وفنهم فى سادتهم وحماتهم . وقد كان رجل كأبى نواس يستطيع أن ينقطع للأمين ، ولكنه مع ذلك يقول فى الخمر أو فى الوصف أو فى الهجاء أو فى غيرذلك من فنون الشعر ، كانت له حياته يتصرف فيها كما يحب .

فأما المتنبى فإنه لا يعرض لفن من فنون الشعر ، ولا يلم بلون من ألوان الكلام، إلا إذا كان متصلا بسيف الدولة اتصالا قريبا . وهو قد فعل هذا نفسه حين اتصل ببدر بن عمار ، وكاد يفعل ذلك حين اتصل بالأمير الإخشيدى الشاب فى الرملة لولا أن ألح عليه الأمير نفسه فى مدح صديقه العلوى . ولما انقطع لكافور بعد انقطاعه لسيف الدولة وقف شعره عليه أثناء اتصاله به . ولم يمدح فاتكا إلا بعد مشقة وجهد واستئذان فيما يقال . ولو أنه رضى عن كافور رضاه عن سيف الدولة ، ولما فكر فى فاتك ، ولما فكر فى الشعر الخالص الذى لا يتصل بشخص كافور . فهذا كله يدلنا على أن المتنبى كان يتخذ الشعر وسيلة لا غاية ، وعلى أنه كان عبدا للطمع والمال لا للجمال والفن " . (١)

كما أن شعر المتنبى فى سيف الدولة يمتاز بالتنوع ، بمعنى أنه مختلف الألوان والفنون ، والواقع أن هذا التنوع إنما مرده إلى تنوع حياة الأمير نفسه ، فقد كان أميرا عربيا ، وكان يتسم بالبطولة والفروسية ، وكان المتنبى يراه رمزا لدولة العرب المفقودة ، وكان يقف درعا للأمة العربية يصد عنها أعداءها من الروم ، وفضلا عن ذلك كله كان أديبا ، وكان له ذوق خاص فى فهم الشعر .. كل هذه الأمور جعلت شعر المتنبى فى سيف الدولة يمتاز إلى جانب كثرته بالتنوع .

والواقع أن شعر المتنبى فى سيف الدولة كان له دائما أثر عظيم فيما يستقبل من الحياة ، ولعله ونتيجة لهذا كله شبت حول الشاعر نيران الحسد ، فكدرت عيشه ، واستطاعت بشكل أو بآخر أن تحول أوقاته كلها إلى عتب ولوم وقطيعة وهجر .

---

(١) المصدر السابق ص ١٧١ .

ولم لا وقد أنتجت قريحته شعرا رائع التصوير ، قوى الأسلوب ، وصار اسمه المشهور به " شاعر سيف الدولة " (١) والشعراء دون شك لم ترضهم هذه العلاقة الوطيدة ، فعملوا على إفسادها وعلى القضاء عليها مبكرة ، وحاولوا بكل ما أوتوا من قوة أن يوغروا قلب الأمير على المتنبى .

ومن يقرأ شعر المتنبى يرى أن الشاعر لم يأمن حسد الحساد فى أى فترة من فترات حياته عامة ، وأثناء اتصاله بسيف الدولة بصفة خاصة ، فاضطر إلى الدفاع عن نفسه تارة ، كما اضطر إلى الفرار والهرب تارة أخرى ، لكنه فى كل أحواله لم يثبت للدساسين والكائدين ، ولم يأخذهم بالقوة والحزم ، ولم يظهر عليهم إلا حين اتصل بسيف الدولة ، وهذا يفسر لنا ما قلناه عن شخصية المتنبى من أنه لم يلق بنفسه على سيف الدولة إلقاء ، وإنما أقدم إليه إقدام الحذر المعتز بنفسه ، الذى يهاجم الخصوم فى غير ريث ولا مهل .

ومن العجيب ، وقد عرفنا ما كان بين المتنبى وسيف الدولة من صلات أثناء تلك الأعوام الطوال التى اتصلا فيها ، أن تفسد حياة المتنبى عند الأمير من حين إلى حين ، وأن يتم للوشاة ما أرادوا فيتغير موقف سيف الدولة من المتنبى ، وأخذ يمعن فى الانصراف عنه ، فاضطر المتنبى إلى الخروج من حلب ، وفارق الأمير على كره منه بعد أن لازمه أكثر من تسع سنين (٢) ، وقصد دمشق ، ومنها وجه وجهه تجاه مصر .

وقد انتهى المتنبى إلى مصر فى جمادى الآخرة سنة ست وأربعين وثلاثمائة،(٣) ووقتذاك لم يكن من السهل أن تمحى صورة سيف الدولة من نفس المتنبى كما محيت منها صور الحكام والأمراء والأشراف والسادة الذين اتصل بهم قبله ، وذلك مرجعه فيما أرى إلى أن المتنبى قد لقى عند سيف الدولة خير ما لقى فى حياته كلها ، لا لأنه عاش فى ظل سيف الدولة حياة منعمة لينة ، بل لأنه كان يشارك الأمير حياته

(١)انظر أبحاث ومقالات ، لأحمد الشايب ص ٤٣ . الطبعة الرابعة .
(٢) انظر البرقوقى (الجزء الثالث) .
(٣) انظر الصبح المنبى .

البطولية ،تلك التى كانت الحرب تملؤها فى أكثر أوقاتها ،ويتحدث بها الناس فى جميع الأقطار الإسلامية ، وكان المتنبى نفسه يشارك الأمير فى هذه الحياة مشاركة فعلية ، فكان يغزو معه إذا غزا ، وكان يستمتع بالنصر إذا ظفر الأمير بالنصر ، ويشقى بالهزيمة إذا لحقته الهزيمة ، كما أنه كان يشارك الأمير فى جهاده الخارجين عليه من أهل البادية ، وكان بعد هذا كله يتغنى هذه الحروب ، ويشيد بالانتصارات ، ويأخذ يعلنها إلى المسلمين والبيزنطيين ، فكان من ثم اللسان الرسمى لهذا الجهاد العظيم ، وكان فى الوقت نفسه اللسان الصادق لما يثور فى قلبه هو من عاطفة أو شعور .

وفى مصر أكرم كافور الإخشيدى وفادة المتنبى ، وأخذ المتنبى من جهته حين اتصل به ينظم القصائد فى مدحه ، بل ويهيئ نفسه للإقامة فى بلاط الإخشيديين ، فرقى من ثم شعره وصار لا يقل عنه إبان وجود المتنبى فى بلاط سيف الدولة .

يقول الدكتور طه حسين:" ولست أغلو إن قلت:إن شعر المتنبى فى مصرأقل سقطا من شعره فى حلب، لأن المتنبى فيما يظهر كان يقدر العلماء المثقفين المصريين أكثر مما كان يقدر العلماء والمثقفين الذين كان يلقاهم فى قصر الحمدانيين " (١) .

ويقول : " ومهما يكن من شئ ، فشعر المتنبى الذى قاله فى مصر ، أو الذى ألهمته إياه مصر مختار كله ، برئ من السخف واللغو أوكاد " (٢) .

ويلاحظ أن الأيام قد جاءت بأسباب وعوامل متعددة جعلت المتنبى يترك مصر ويتوجه إلى الكوفة مدرج صباه ، وكان ذلك فى جمادى الآخرة سنة إحدى وخمسين وثلاثمائة .لكنه سرعان ما ضاق بالحياة فيها فاضطر إلى ترك العراق والهجرة إلى فارس فى صفر سنة أربع وخمسين وثلاثمائة ، ومن المعروف أنه قد استطاب الحياة بها، وأخذ يتصل بأعلام اللغة والأدب ، فاتصل بابن العميد ، وظل يتصدرمجالس النقد والأدب بها .

---

(١) مع المتنبى ص ٢٩٠ .
(٢) المصدر السابق ، الصفحة نفسها .

وظل المتنبى يعيش حياته بين الطمع والأمل ، واليأس والرجاء ، والحذر والترقب ، حتى لاقى منيته على يد فاتك بن أبى جهل الأسدى بعد أن انتشر أدبه فى حياته انتشارا واسع المدى ، وبعد أن أثار حركة واسعة من الدراسات حوله وبخاصة بعد وفاته .

* * * * *

وأكاد أعتقد أن حياة المتنبى إنما تمثل حياة شاعر زاد سخطه على النظام الاجتماعى ، وحنقه على توزيع الثروة بين الناس [١] . على أن هذه الحياة تدلنا على شئ آخر له قيمته من الناحية التاريخية ، فالشاعر معجب بنفسه من غير شك ، غرور بها ، يرى أنه قد يستطيع تغيير ظروف الحياة لمصلحة المظلومين والمستضعفين، وقد اندفع فى سبيل تحقيق ذلك ، وجهد فى أن يصل إليه مخاطرا ومتجاوزا الحدود مرة ، ومتحفظا مرة أخرى حتى أدركه الإخفاق وأصابه اليأس ، فلم يجد بداً من الأخذ بالتقية .

هنالك ظهر المتنبى على طبيعته ، فهو قوى الحس ، حاد المزاج ، عنيف النفس، مندفع فى الغالب الأعم إلى الغلو والإسراف ، فلما أدركه الإخفاق وألمت به الخيبة ظهر كما أراد الله له أن يكون شاعرا نابغة ، صاحب ذهن حاضر وذكاء حاد ، لا يستبقى من آماله الأولى إلا الحقد على الجماعة والازدراء لها ، وإيثارا للعافية كان المتنبى يضطر إلى أن يخفى آراءه إذا خاف أو شك ، وإلى أن يجهر أو يلمح بهذه الآراء إذا أمن واطمأن أو طمع ، وهو فى أثناء هذا كله لا يستطيع أن يمحو آراءه - التى هى قوام حياته و تفكيره ونشاطه الخفى - من آثاره الشعرية محوا ، ومن يقرأ شعر المتنبى فإنه لا محالة واجد فى هذا الشعر من السأم والملل شيئا كثيرا يلائم ما كان فى نفس الشاعر من السأم والملل .

ولسنا ندرى كم بلدا تنقل إليها المتنبى ،وأكبر الظن أنه تنقل إلى بلاد عديدة ،

---

(١) انظر مع المتنبى ، للدكتور طه حسين (الكتاب الثانى) .

فكم مرة فكر فى الذهاب إلى بلد ما ، وكم مرة فكر فى الإعراض عنها ، وهو فى أغلب الظن يفد إلى البلد من البلاد يطلب فيها ما يطلبه الرجل المثقف الأديب فى بلد ناهض يكثر فيه العلم والمجد والمال ، ثم نراه يفكر فى الإعراض عن هذا البلد إما لأنه قضى منها وطرا ، وإما لأن صروف الحياة لم تتح له البقاء فيها ، فآثر أن يعود إلى موطنه بغداد على أن يتغرب فى غير طائل ، وبغداد بعد مستقر الخلافة ، دار العلم والمجد والحكمة ، وملتقى العلماء والأدباء من جميع الأقطار، ففى العودة إليها نفع محقق.(١)

ومن هذه الحياة نلاحظ حب المتنبى للرحلات والأسفار فى كل الديار ، فقد انتقل من العراق للشام ثم إلى مصر ثم إلى بلاد فارس ، وماذلك إلا رغبة منه فى المغامرات وركوب المخاطر ، وطلبا للمجد والعز .

وله أبيات تفيد أنه كثيرا ما كان يتجشم أسفارا أبعد من آماله ، وما أروع ما قاله فى حق الاغتراب الذى به يطلب العز والمجد والكرامة ، يقول (٢) :

تغرَّب لا مستعظما غير نفسه .·. ولا قابلا إلا لخالقه حُكْما
ولاسالكا إلا فؤاد عجاجة .·. ولا واجدا إلا لمكرمة طعما
يقولون لى : ما أنت ؟ فى كل بلدة .·. وما تبتغى؟ ما أبتغى جلَّ أن يسمى

ويقول يذكر مسيره من مصر (٣) :

حتّام نحن نسارى النجم فى الظلم .·. وما سُراه على خف ولا قدم
ولا يحس بأجفان يحس بها .·. فقد الرقاد غريب بات لم ينم
تُسَوِّد الشمس منا بيض أوجهنا .·. ولا تسود بيض العذر واللمم

---

(١) انظر المصدر السابق ص ٣٥٠ وما بعدها ط ١١ .
(٢) الديوان : ١٠٧/٤ . دار المعرفة للطباعة والنشر بيروت ١٣٩٧ هـ ١٩٧٨ م .
(٣) الديوان : ٤ / ١٥٥ .

ويقول يشتكي حياته وغربته (١) :

أذاقني زمني بلوى شرقت بها .·. لو ذاقها لبكى ما عاش وانتحبا
وإن عَمِرْتُ جعلت الحرب والدة .·. والسمهري أخا والمشرفي أبا
....
فالموت أعذر لي والصبر أجمل بي .·. والبر أوسع والدنيا لمن غلبا

كما نلاحظ أنه شاعر اشتهر بالقوة ما في ذلك من شك ، وقد ظهرت القوة في أشعاره بصفة عامة ، فهي تبدو في أشعاره الحماسية والحربية ، كما تبدو في نظرته إلى الإنسان والكون والحياة ، وظهرت بشكل واضح حين يعبر عن نفسه ، أو حين يحمل على الناس وعلى الزمان ، وهو نتيجة لهذه القوة تراه يعشق الحرب ، ويفضل وسائلها على وسائل السلام .

ولنستمع إليه يقول (٢) :

إذا غامرت في شرف مروم .·. فلا تقنع بما دون النجوم
فطعم الموت في أمر صغير .·. كطعم الموت في أمر عظيم

وهو قوي في التعبير عن نفسه ، ودائما ما كان يطلب المزيد ولا يقنع بالواقع مهما كان ، يقول (٣) :

فلا مجد في الدنيا لمن قل ماله .·. ولا مال في الدنيا لمن قل مجده
وفي الناس من يرضى بميسور عيشه .·. ومركوبه رجلاه والثوب جلده
ولكن قلبا بين جنبي ماله .·. مدى ينتهي بي في مراد أحُدُّهُ

---

(١) الديوان : ١ / ١٢٠ ، ١٢١ .
(٢) الديوان : ٤ / ١١٩ .
(٣) الديوان : ٢ / ٢٣ .

ويدعو لاستعمال القوة فى تحقيق الأمجاد والمعالى فيقول (١) :

الـرأى قبـل شجاعــة الشجعــان ∴ هــو أول وهــى المحــل الثــانى
فـإذا هما اجتمعـا لنفـس مـرة ∴ بلغـت مـن العليـاء كـل مكـان
ولربمـا طعـن الفـتى أقرانـه ∴ بـالـرأى قبـل تطاعـن الأقـران
لـولا العقـول لكـان أدنى ضيغـم ∴ أدنـى إلى شـرف مـن الإنسـان

ويقول يحث على استخدام القوة فى كل أحوالها (٢) :

كـلُّ حـلم أتـى بغـير اقتـدار ∴ حجـةٌ لاجـئٌ إليـها اللئـامُ

ويقول يفضل وسائل الحرب كأثر من آثار عشقه للقوة (٣) :

حـتى رجعـت وأقـلامى قوائـل لى ∴ المجـد للسيـف ليـس المجد للقلم
اكتـب بنـا أبـدا بعد الكتـاب بـه ∴ فـإن غفلـتُ فـدائى قِـلةُ الفهـم
اسمعتـنى ودوائـى مـا أشرت بـه ∴ فـإنمـا نحـن للأسيـاف كالخـدم

وقد ولد عشقه للقوة فى نفسه ثورة لم تكن لتهدأ ، فكان يحيا حياة ملؤها الحماسة، والعنف ، والدماء ، ولم يكن المتنبى ليرضى وهو أبى النفس ، عالى الهمة ، أن يكون مهمل الشأن ، خامل الذكر ، ولاشك أن الظروف التى كانت تحيط بهذا الشاعر وهو صبى جعلته يتطلع إلى مطامح وأطماع ليس لها حد ، وجعلته هذه الأطماع يستهين بالموت ولا يبالى بالمنايا .

يقول (٤) :

سيصحبُ النَّصلُ منى مثل مضربـه ∴ وينجلى خبرى عـن صِمـةِ الصِـمم

---

(١) الديوان : ٤ / ١٧٤ .
(٢) الديوان : ٤ / ٩٣ .
(٣) الديوان : ٤ / ١٥٩ ، ١٦٠ .
(٤) الديوان : ٤ / ٤٠ ، ٤١ .

لقد تَصبَّرتُ حتى لاتَ مُصطبر .·. فالآن أقحمُ حتى لات مُقْتَحم
لأتركن وجوه الخيل ساهمة .·. والحرب أقوم من ساق على قدم
والطعنُ يحرقها ، والزجر يقلقها .·. حتى كأن بها ضربا من اللمم
قد كلمتها العوالى فهى كالحة .·. كأنما الصاب معصوب على اللجم

ويقول (١) :

أقل فَعالى بَلْهَ أكثره مجد .·. وذا الجد فيه نلت أم لم أنل جد
سأطلب حقى بالقنا ومشايخ .·. كأنهم من طول ما التثموا مُرْدُ
ثِقال إذا لاقوا خفاف إذا دعوا .·. كثير إذا شدوا قليل إذا عُدُّوا

وكان شغفه بالقوة سببا فى كثرة رحلاته فى البوادى والحواضر طمعا فى الحصول على مراده ، يقول (٢) :

أوانا فى بيوت البدو رحلى .·. وآونة على قتد البعير
أعرِّض للرماح الصم نحرى .·. وأنصِبُ حرَّ وجهى للهجير
وأسرى فى ظلام الليل وحدى .·. كأنى منه فى قمر منير
فَقُلْ فى حاجة لم أقض منها .·. على شغفى بها شَرْوَى نقير
ونفس لا تجيب إلى خسيس .·. وعين لا تُدارُ على نظير
وكف لا تنازع من أتانى .·. ينازعنى سوى شرفى وخِيرى

فالمتنبى فى ظل ظروف عصره السياسية المليئة بالفتن الدينية والمذهبية ، وتنازع الحكام ، وثورات المحكومين ، وتنافس الدول الناشئة واضطرابها ، فى ظل هذه الظروف كلها نجده يطوف فى بلاد الأعراب ليتزود من ينابيع علوم الفصاحة ،

---

(١) الديوان : ١/ ٣٧٣ .
(٢) الديوان : ٢ / ١٤٢ ، ١٤٣ .

وليتعلم الفروسية والشجاعة ، ولذلك اكتسبت أخلاقه قوة وخشونة ، وأخذت البداوة تتمكن منه وتؤثر فى نفسه .

ولاريب فى أن مثل هذه النشأة هى المجال الأوحد الذى يخلق من المتنبى فارسا محاربا ، والذى شكله كشاعر عظيم ومحارب قوى كانت الحرب زاده المادى والمعنوى ، وقد مثل هذا بقوله أصدق تمثيل حيث يقول يعبر عن نفسه العظيمة فى مطالبها ومطامحها (١) :

وفى الجسم نفس لا تشيب بشيبه .·. ولو أن ما فى الوجه منه حراب
لها ظفر إن كلّ ظفر أعده .·. وناب إذا لم يبق فى الفم ناب
يغيّر منى الدهر ما شاء غيرها .·. وأبلغ أقصى العمر وهى كعاب

ويقول يعبر عن نفسه الثائرة ونشأته المضطربة (٢) :

وأهوى من الفتيان كل سميدع .·. نجيب كصدر السمهرىّ المقوّم
خطت تحته العيس الفلاة وخالطت .·. به الخيل كبّات الخميس العرمرم
ولا عفة فى سيفه وسنانه .·. ولكنها فى الكف والفرج والفم

وقد عرف السخط منذ عرف نفسه ، وكان من أثر هذه النفس الساخطة الثائرة أن ثار المتنبى على الأوضاع الفاسدة السياسية والاجتماعية ، وثار كذلك على كل الرذائل ، يقول (٣) :

أفكر فى معاقرة المنايا .·. وقود الخيل مشرفة الهوادى
زعيما للقنا الخطىّ عزمى .·. بسفك دم الحواضر والبوادى
إلى كم ذا التخلف والتوانى .·. وكم هذا التمادى فى التمادى

---

(١) الديوان : ١ / ١٩٠ .
(٢) الديوان : ٤ / ١٣٦ ، ١٣٧ .
(٣) الديوان : ١ / ٣٥٥ ، ٣٥٦ .

وشُغْلُ النفس عن طلب المعالى ∴ ببيع الشعر فى سوق الكساد
وما ماضى الشباب بمسترد ∴ ولا يوم يمر بمستعاد

وكان من أثر هذه النفس الهائجة الثائرة أن جاءت بحكم غاية فى الدقة والبراعة والأداء الفنى ، يقول (١) :

أرى كلنا يبغى الحياة لنفسه ∴ حريصا عليها مستهاما بها صبا
فحب الجبان النفس أورده التقى ∴ وحب الشجاع النفس أورده الحربا

يضاف إلى ذلك أنها جاءت بأصدق المبادئ للحرب بين الحق والباطل، يقول (٢):

ألهى الممالك عن فخر قفلت به ∴ شُرْبُ المدامة والأوتار والنغم
مقلدا فوق شكر الله ذا شُطَبٍ ∴ لا تُسْتَدام بأمضى منهما النعم
ألقت إليك دماء الروم طاعتها ∴ فلو دعوت بلا ضرب أجاب دم

وحين رأى الحكام الذين يحكمون الأمصار على درجة أقل منه فى العلم والحكمة ثار عليهم ، وأخذ يدور فى نفسه حب الرياسة والولاية ، وبدأت تظهر عليه الرغبة فى السلطان ، يقول (٣) :

لقد تصبرت حتى لات مصطبر ∴ فالآن أُقْحَمُ حتى لات مقتحم
لأتركن وجوه الخيل ساهمة ∴ والحرب أقوم من ساق على قدم
والطعن يحرقها ، والزجر يقلقها ∴ حتى كأن بها ضربا من اللمم
قد كلمتها العوالى فهى كالحة ∴ كأنما الصاب معصوب على اللجم
بكل مُنْصَلِتٍ مازال منتظرى ∴ حتى أدلت له من دولة الخدم
شيخ يرى الصلوات الخمس نافلة ∴ ويستحل دم الحجاج فى الحرم

(١) الديوان : ١ / ٦٥ .
(٢) الديوان : ٤ / ٢٥ ، ٢٦ .
(٣) الديوان : ٤ / ٤٠ - ٤٢ .

وكثيرا ما كان يكرر رغبته الجادة فى السير فى طريق المجد والمعالى ، يقول(١) :

ألــذُّ مــن المُــدام الخنــدريــس .·. وأحــلى مــن معــاطــاة الكئــوسِ
مُعــاطـــاةُ الصفائــح والعـــوالى .·. وإقحـامـى خميســا فــى خميــس
فمــوتى فــى الوغــى أربَى لأنــى .·. رأيــت العيــش فــى أرب النفــوس

والحقيقة إنه وإن كان المتنبى قد بلغ مكانة لم يبلغها شاعر قبله ، - لأنه شاعر المعانى الدقاق ، وهو شاعر الحرب ، وصاحب الحكمة ، وهو الذى خلد مجد سيف الدولة - فليس من الأمر السهل - مع ذلك - أن نتعرف إلى حياته استنادا إلى الكتب التاريخية ، أو إلى الكتب الأدبية ؛ وذلك لما يشوب هذه الكتب من وهم ونسيج خيال ونقص فى التدوين .. هذا بالإضافة إلى أن شخصية المتنبى كانت كغيرها من شخصيات الشعراء الكبار الذين راحوا ضحية زيف التاريخ ونواقص التدوين ، ولذلك تحولت إلى شخصية أسطورية عقدت حولها أخبار وروايات لا تستند إلى واقع تاريخى ، وإنما تكون فى أكثر الحالات وليدة وهم ونسيج خيال ، فقد أسرف القدماء فى العناية بشاعرنا حبا وبغضا ، وإقبالا وإعراضا ، كما أسرف المحدثون فى حبهم لشاعرنا وفى إقبالهم عليه ، والشغف بشخصه وفنه (٢) .

يقول الأستاذ عباس حسن (٣) وهو بصدد حديثه عن وسائل الرأى عند القدماء فى الحكم على المتنبى : " فلم يكن عجيبا أن أعتمد على أصحاب هذه الطريقة (٤) لأعرف رأى القدماء فى " المتنبى " وأتبين مكانته عندهم . لجأت إليها فراعنى اختلاف الآراء باختلاف الأهواء ، وشهدت من تباين النزعات وتحكم الميول ما لا نظير له

---

(١) الديوان : ٢ / ١٩١ ، ١٩٢ .

(٢) انظر : تاريخ الأدب العربى (العصر العباسى الثانى) للدكتور طه حسين : ٣ / ١٦ . دار العلم للملايين ، بيروت ، الطبعة الأولى ١٩٧٤ م .

(٣) المتنبى وشوقى وإمارة الشعر ص ١٥ ، دار المعارف بمصر ، الطبعة الثانية ١٩٧٣ م .

(٤) يشير إلى طريقة تجمع الآثار الأدبية فى دواوين خاصة وفى كتب معينة ليسهل الرجوع إليها لدراستها ودراسة أصحابها قبل الحكم عليهم (انظر المصدر السابق ص ١٤) .

فى الحكم على شاعر آخر . ولكنى شهدت كذلك مَنْ وَقَفَ موقف المحايد، يصف مايراه ، ويدون ما يسمعه من غير أن يبدى رأيا خاصا ، أو يصدر حكما مستقلا ، فيقول عن المتنبى : " قد شغل به الألسن ، وسهرت فى أشعاره الأعين ، وكثر الناسخ لشعره ، والغائص فى بحره ، والمفتش عن جمانه ودره . وله شيعة تغلو فى مدحه ، وعليه خوارج تتغالى فى جرحه . "

وقد اختلف المؤرخون والنسابون فى شخص المتنبى ، هل كان رجلا عربيا خالص النسب ؟ . واختلفوا كذلك فى معرفته لأبيه وجده ، كما اختلفوا فى مهنة والده ..وهم فى كل ذلك يختلفون ما بين متحدث يريد أن يحط من شأن المتنبى الذى ينتسب إلى رجل قليل الشأن ، خامل الذكر ، وبين متحدث آخر يريد أن يرفع من شأن المتنبى الذى ينتسب إلى رجل متواضع خامل ، فملأ الدنيا ، وشغل الناس بشعره ، وغلب به الشعراء ، وقهر به الفحول والعظماء !

وهذه كلها مسائل متناقضة تستوجب النظر ..

يضاف إلى ذلك أمران هامان :

<< أولهما : أنه عاش النصف الأول من القرن الرابع الهجرى ، فأدرك فترة خطيرة من حياة الدولة العباسية وصفها المؤرخون بأنها كانت مليئة بالاضطرابات السياسية ، والفتن الدينية والمذهبية ، وتنازع الحكام ، وثورات المحكومين ، وتنافس الدول الناشئة ، وتقاتلها .. ومن أمثلة ذلك فتنة " الشيعة " ، " والإسماعيلية " ، وثورة " القرامطة " وفظائعهم ، وحروب مصر مع جاراتها ، وحروب الخلافة مع الخارجين عليها ، أو مع الدويلات المنفصلة عنها ...

ثانيهما : أنه خبر حياة البدو والحضر خبرة واسعة ، وانغمس فيها من قمة رأسه إلى أخمص قدميه ، فعرف الصحراء ، وأهلها ، وطباعهم ، ووسائل عيشهم ، وكل ما يتصل بهم . كما عرف الحضر ، وزار أشهر مدنه ، وخالط ملوكا وأمراء ، وأدرك ماهم عليه من ترف ومتعة ، وما عليه المحكومون من نعمة ورخاء وحرية أو ضيق أو بؤس واستعباد ، ونصيبهم من الحضارة بمختلف مظاهرها العلمية والأدبية ، وسائر فنونها وصناعاتها >> (١) .

---

(١) المتنبى وشوقى وإمارة الشعر ، عباس حسن ص ٢٧ .

والشئ المحقق أن شخصية المتنبى شخصية مميزة فى تاريخ الشعر العربى ، ومن يقرأ ديوانه يجد أن لشاعرنا عوالم خاصة ومعالم فريدة ، إنه شاعر دأب كثيرا على أن يحقق ذاته ويؤكد قيمته ، فأخذ يغالى فى الغرور ويسرف فى الكبرياء ، ولذلك نراه ينتسب إلى السيف والرمح ، وكان يؤثر هذا الانتساب على غيره .

يقول الدكتور طه حسين : " وقد تعود الناس أن يؤمنوا بأن المتنبى رجل عربى خالص النسب . ينتهى من قبل أبيه إلى جعفىّ ، ومن قبل أمه إلى همْدَانَ ، وهما حيان من أحياء اليمن فيما يقول المؤرخون والنسابون .

وجائز جدا أن يكون المتنبى عربيا ، وجائز أن يكون من عرب الجنوب ، جعفر الأب همدانى الأم . ولكن الشئ الذى ليس فيه شك هو أن ديوانه لا يثبت هذا ولا يؤكده بل لا يسجله ولا يذكره . ومن يدرى ، لعل ديوانه ينفيه ، ولعله ينفيه نفيا هو إلى الصراحة أدنى منه إلى الإشارة والتلميح .

أكان المتنبى يعرف أباه ؟ قال المؤرخون نعم ، ولم يقل المتنبى شيئا . فأنت تقرأ ديوانه من أوله إلى آخره وتقرؤه مستأنيا متمهلا فلا تجد فيه ذكرا لهذا الرجل الطيب الذى أنجب للقرن الرابع شاعره العظيم .

لم يمدحه المتنبى،ولم يفتخر به،ولم يرثه المتنبى، ولم يظهر الحزن عليه حين مات؛ أكان ذلك لأن المتنبى لا يعرف أباه؟أم كان ذلك لأن المتنبى عرف أباه ولكنه لم ير له خطرا،ولم ير فى ذكره ما يرفع من شأنه ويرد عنه كيد الكائد وحسد الحسود ؟أم كان المتنبى يزدرى أباه ويكبر شعره عن أن يقف عنده مادحا أو هاجيا ونادبا أو راثيا ؟

كل ذلك ممكن . ولكن الشئ المحقق أن المتنبى كان يؤثر أن ينتسب إلى السيف والرمح ، وإلى الحرب والبأس ، على أن ينتسب إلى هذا الرجل الطيب الذى سماه المؤرخون الحسين، ونسبوه إلى جعفر من عرف الجنوب " (١) .

---

(١) مع المتنبى ص ١٢ . دار المعارف بمصر ، الطبعة الحادية عشر ١٩٧٦ م .

وهو يؤثر فى كثير من أبياته الشعرية الانتساب إلى البأس والشدة والحروب ، ونجده ينتسب كذلك إلى حسن البلاء وإلى المروءة والنجدة وارتفاع الهمة ، وكثيرا ما يصف نفسه فى أشعاره بأنها نفس أبية الضيم ، شديدة البأس ، قوية المراس .. وهو فوق ذلك يزدرى كل الناس وبخاصة الكائدين له المتألبين عليه مع كثرتهم وشدة بأسهم.

وهو فى أبيات له يصور رأيه فى نفسه ، وما يمتلك من فتوة وقوة إيمان وصدق معرفة بالناس .

يقول [1] :

أنا ابنُ مَنْ بعضُهُ يفوقُ أبا الـ ... باحث والنَّجْلُ بعضُ مَنْ نَجَلَه

وإنما يذكُرُ الجُدودَ لهم ... من نَفَروه وأنفدوا حيَلَهْ

فخراً لغَضْبٍ أرُوحُ مُشْتَمِلَهْ ... وسمْهَرِىٌّ أرُوح مُعْتَقِلَه

وليفخر الفخر إذ غدوت به ... مُرتَديا خيره ومُنْتَعِلَه

أنا الذى بيَّن الإله له الـ ... أقدار والمرءُ حيثما جعله

جوهرةٌ يفرح الكرامُ بها ... وغُصَّةٌ لا تُسيغُها السَّفَلَه

إن الكذابَ الذى أكادُ به ... أهونُ عندى من الذى نَقَله

فلا مبالٍ ، ولا مداج ، ولا ... فانٍ ، ولا عاجزٌ ، ولا تُكَلَهْ

ودارع سِفْتُهُ فخرَّ لَقىً ... فى المُلتَقَى والعَجاجِ والعَجَلَهْ

وسامعٍ رُعْتُهُ بقافيةٍ ... يَحارُ فيها المُنَقَّحُ القُوَلَهْ

وربما يَشهد الطعام معى ... من لا يساوى الخبز الذى أكله

ويظهر الجهل بى وأعرفه ... والدرُّ درٌّ برغم من جهله

---

[1] الديوان : ٣ / ٢٦٦ - ٢٧٠ .

وهو يرى أنه عربى صريح النسب ، ويخاطب نفسه قائلا : إننى شرفت بنفسى لا بجدودى أو قومى ، وإنما يشرف قومى الذين هم أفصح العرب بى ، يقول[1] :

لا بقومى شرفت بل شرفوا بى ... وبنفسى فخرت لا بجدودى
وبهم فخر كل من نطق الضا ... د وعَوْذُ الجانى وغوثُ الطريد

ويقول الدكتور طه حسين وهو فى معرض حديثه عن نسب المتنبى : " فما الذى يمنعنا من أن نصدق المتنبى ، ونرى معه أنه كان عربيا قحطانيا ؟ لا شئ إلا أنه لم يحفظ نسبه ، ولم يحفظه له المؤرخون ، فأمره فى ذلك أمر الكثرة التى لا تحصى من العرب القدماء و المحدثين الذين أضاعوا أنسابهم أفنجحد عربيتهم ، لأنهم قد أضاعوا هذه الأنساب ؟ وما يمنعنا إذن أن نجحد إنسانية الناس ، لأنهم لم يحفظوا أنسابهم إلى الإنسان الأول ، أو إلى الأناس الأولين ؟ إنما أفهم الشك فى عربية المتنبى لو أن المؤرخين رووا أن له نسبا معروفا أو قريبا من المعروف فى أمة غير عربية ، وأنه قد جحد هذا النسب وتبرأ منه ، واصطنع لنفسه نسبا عربيا ، ولكنى لم أر أحدا عاب المتنبى بهذا ، أو أضاف إليه نسبا أعجميا ، أو جعله عربيا بالولاء . وإذن فلنقبل من المتنبى ، ومن أصدقائه انتسابه إلى العرب ، فذلك لا يغير من العلم شيئا ، وأكبر الظن أنه يلائم الحق . " [2] .

ومع هذا الغموض الذى أحاط بحياة المتنبى وبنسبه فإننا نجده صاحب شخصية بعيدة الطموح [3] ، شديدة العصبية ، وهو شاعر يعتد بنفسه ويتعاظم على الناس، ولا يرى أحدا فوقه أو مثله ، وقد ملأ قصائده بالفخر ، وكثيرا ما يرفع نفسه فى قصائد الفخر على كل الناس ، وله فى هذه القصائد مبالغة وتعاظم وازدراء واحتقار لبنى دهره .. ولعل ذلك هو السر فى فخامة أسلوبه ، وفى إتيانه بالتشابيه البارعة

---

(١) الديوان : ١ / ٣٢٢ ، ٣٢٣ .
(٢) تاريخ الأدب العربى (العصر العباسى الثانى) ٢٧ .
(٣) انظر أمراء الشعر العربى فى العصر العباسى ، أنيس المقدسى ص ٣٤٣ . دار العلم للملايين ، بيروت ، الطبعة العاشرة ١٩٧٥ م .

والاستعارات الأنيقة ، وبالإكثار من المعانى ، وضرب الأمثال ، والأخذ بالصناعة اللفظية والمبالغة فى كل شئ .

ولعل العربية لم تعرف فى عصورها الأدبية شاعرا بلغ الشهرة التى نالها أبو الطيب المتنبى ، فلقد شغل الناس فى عصره وبعد عصره ، ولعلنا كذلك لا نعرف أثرا أدبيا نال من الاهتمام والرعاية ما ناله ديوان المتنبى ، فلايزال يشغل الناس جيلا بعد جيل ، وقد عكف على دراسته وشرحه كثير من العلماء والأدباء (١)، وعنيت عشرات الكتب بشعر أبى الطيب وتفسير المشكل من أبياته (٢) ، وكان حظ المتنبى فى ذلك أكثر من حظ غيره من الشعراء .

يقول الشيخ ناصيف اليازجي : " وعلماء الأدب مختلفون فى شعره فمنهم من يرجحه على أبى تمام والبحترى ، ومنهم من يرجحهما عليه ، وقد انتدب العلماء للكلام على ديوانه فشرحه نحو الخمسين من أكابر أهل العلم وجلتهم .. " (٣) .

ويقول ابنه إبراهيم بن ناصيف اليازجي فى موضع آخر : " ومعلوم ما لهذا الديوان من الشهرة الطائرة بين خاصة الناس وعامتهم لكثرة ما فيه من موارد الحكمة ومضارب الأمثال الشائعة على الأقلام والألسنة مع ماهو مشهور فى شعر المتنبى من عَوَص التراكيب وبعد متناول المعانى ومع قلة ما فى أيدى الناس من شروحه على كثرتها وعزة الظفر بالمحكم منها كشرح الواحدى ومن فى طبقته ولذلك اشتدت حاجة المتأدبين والدارسين فى هذا العصر إلى شرح يعتمد عليه فى استخراج مكنونه والكشف عن غامضه ... " (٤) .

---

(١) انظر وفيات الأعيان لابن خلكان : ١ / ١٠٣ تحقيق محمد محى الدين ، القاهرة ١٩٤٨م .
وانظر كذلك كشف الظنون لحاجى خليفة : ١ / ٨٠٩ - ٨١٢ . طهران ١٣٧٨ هـ .

(٢) انظر تاريخ الأدب العربى ، عمر فروخ : ٢ / ٤٧٩ - ٤٨٣ . دار العلم للملايين ، بيروت ١٣٨٨ هـ ١٩٦٨ م .

(٣) العرف الطيب فى شرح ديوان المتنبى : ١ / ٢ ، ٣ . طبعة ١٨٨٧ م .

(٤) المصدر السابق : ٢ / ٦٢٥ ، ٦٢٦ .

ويقول : " مع أنه لم يشرح هذا الديوان شارح إلا خبط فى دياجير لفظه ، وهام فى تيه تعبيره ، فأخذ بين تقدير وتأويل وتخريج وتعليل مما يقضى بالعناء الثقيل إلى أن يفرغ منه وفى نفسه منه أشياء " (١) .

ويقول الدكتور محمد رضوان الداية فى مقدمة تحقيقه لكتاب " شرح مشكل شعر المتنبى للأندلسى " : " وأضحى ديوان المتنبى من الكتب السائرة بين المتأدبين ، ووضعت عليه الشروح المتعددة لتقريبه إلى الناشئة أو لإمتاع المتأدبين ، وبسط قضاياه وحل غوامضه ، والتعريف بأعلامه وذكر مناسبات قصائده ، وبيان مرامى أبى الطيب وتلميحاته وإشاراته ، وصار شعره مادة يتوفر عليها النقاد المتخصصون " (٢) .

وهناك دراسات كثيرة دارت حول المتنبى ، ويضيق المجال هنا عن حصر هذه الدراسات ، غير أن دراسة الدكتور شوقى ضيف فى كتابه " الفن ومذاهبه فى الشعر العربى " تعد أقوى دراسة تتصل بأسلوب المتنبى ، فلقد درّس شعره ، وكان منطلقه فى دراسة هذا الشعر هو دراسة اللغة المكونة له ، وقد أظهر ما فى النص من غنى واحتمالات أخرى متعددة تفرضها اللغة التى تؤلف هذا النص الشعرى والتى جعلت المتنبى قطبا كبيرا فى مذهب التصنع فى الشعر العربى ، بل جعلته المفتاح الذى أخذت تتساقط منه نغمات هذا المذهب فى قصائد الشعراء ونماذجهم (٣) .

وعلى مذهب التصنيع ينطلق المتنبى فى شعره ، فمع أنه تناول الموضوعات التى سبقه إليها الجاهليون ومن تبعوهم إلى آخر الدولة الأموية ، والتزم أغراضهم ، وتلقى التراث الأدبى القديم فالتزمه وحافظ عليه ، مع هذا نجده يحترف التصنيع فى شعره ، فيأتى إلينا بمبالغات غير مقبولة ، وبألفاظ غريبة ، وبشئ من الشذوذ اللغوى أو النحوى ، كما يأتى ببحر غير مناسب للموضوع ، أو بقافية ثائرة ،

---

(١) المصدر السابق : ٢ / ٦٥٣ .
(٢) ص ٦ . منشورات دار المأمون للتراث ، دمشق ، مطبعة محمد هاشم الكتبى ١٣٩٥هـ ١٩٧٥م .
(٣) الفن ومذاهبه فى الشعر العربى د. شوقى ضيف ص ٣٤٩ . دار المعارف ، الطبعة العاشرة .

واستعارة مستهجنة ، أو صفة بلاغية سيئة ، وحاول كذلك أن يستوعب فى شعره الأفكار والصيغ الفلسفية والشارات المنطقية ، وكان يعدل بشعره إلى العبارات الصوفية وما يتصل بها من ظروفها وأحوالها الخاصة .

وظلت هذه الألوان من التصنيع هدفا خاصا للمتنبى ،وقد اتخذها مذهبا له فى صناعة شعره طوال أيام حياته ، لدرجة أنك إن فتشت فى شعره لم تجده يوفق إلا قليلا فى اختيار كلماته المفردة ، وكلامه المركب ، وشواهد ذلك كثيرة فى شعره لا تخلو قصيدة منها ولا يصعب على أى باحث أن يجد منها فى الديوان ما يتجاوز ما دونه البلاغيون والناقدون .

يقول الأستاذ أحمد حسن الزيات :

" بيت المتنبى يضيق أحيانا بمعناه ، فيعسر فهمه ، وتبعد غايته منه فيطيش سهمه ، وقد بلغ من إهمال اللفظ أن وقع فى بعض المساوئ كاستكراه اللفظ ، وتعقيد المعنى ، واستعمال الغريب ، وقبح الطالع ، ومخالفة القياس ، وكثرة التفاوت فى شعره ، والخروج فى المبالغة إلى الإحالة " [١] .

---

(١) تاريخ الأدب العربى ص ٣٠١ . الطبعة الرابعة والعشرون .

٢- الحياة فى عصر المتنبى

لعل فترة من فترات تاريخنا الأدبى لم تحفل بتغيرات جوهرية فى أساليب السياسة والحكم ، وفى مظاهر الحياة الاجتماعية والسياسية والفكرية ، كما حفلت الحقبة التى عاشها المتنبى ، ولهذا تعد هذه الحقبة فترة حاسمة فى حياة الدولة الإسلامية .

وسأتعرض فى إلمامة سريعة لمظاهر الحياة العامة دون ميل للتفصيل ، وبالقدر الذى يلقى الضوء الكافى على تلك الفترة .

أولا : الحياة الثقافية :

قضى المتنبى حياته فى القرن الرابع الهجرى ،ويعد هذا القرن أخصب العصور الأدبية ، فقد اتسع مجال اللغة ، وحلق الشعر فى كل مجال ، واتسع مجال النقد والتأليف ، وعن هذا كله أصبح من المعروف أن رقى العقل فى هذا الوقت قد انتهى إلى مالم ينته إليه قط فى العصور السابقة ، بل إنى لا أظن أنك فى حاجة إلى أن أؤكد لك أن رقى العقل فى عصر المتنبى ليس بأقل ظهورا وجلاء من فساد السياسة والاقتصاد ، ولم لا ! وهو العصر الذى نضجت فيه الحضارة الإسلامية ، وأدركت رشدها ، واستكملت قوتها ، وأخذت ثمارها تؤتى طيبة لذيذة فى كل فن من الفنون، وفى كل فرع من فروع العلوم والآداب .

والحقيقة أن العراق آنذاك كان أخصب مركز لهذه الحضارة الإسلامية المثمرة [١] ، ففيه التقت أكثر الأجناس التى تتألف منها الدولة الإسلامية ، وكل هذه الأجناس كانت تلتقى للنفع لا للضرر ، وقد زالت بين هذه الأجناس الفروق ، واختلطت ثقافاتهم المختلفة بين جميع الطبقات ، ونشأ عن ذلك أن كل متعلم مثقف

---

(١) انظر ظهر الإسلام للأستاذ أحمد أمين : ١ / ٢١٦ وما بعدها .

طمح إلى حال خير من حاله التى هو عليها ، وترتب على ذلك كله أن ارتقى العقل ووصل إلى درجة لم يكن قد انتهى إليها فى العصور السابقة ، الأمر الذى أحدث آثارا غريبة أقل ما توصف به أنها كانت متناقضة أشد التناقض .

وهكذا أتيح لحياة القرن الرابع سلاح من العقل الراقى والثقافة الواسعة ، ويرجع السبب فى ذلك إلى كثرة الكتب التى ترجمت إلى اللغة العربية ، هذا من جانب ومن جانب آخر فإن رجال الفكر العربى والإسلامى قد اهتموا بالدراسات الفلسفية والأدبية، وأصبح القرن الرابع الهجرى عنوانا مشرقا للفكر الإسلامى (١) .

وقد لمع فى هذا القرن كثير من علماء الفلسفة واللغة والأدب والترجمة ، ومن هؤلاء : الرازى ، والفارابى ، ومسكويه، وابن سينا ، والخالديان ، والسرى الرفاء ، والأصفهانى ، والحسين بن خالويه ، وأبو الفتح بن جنى ، وأبو على الفارسى ، وأبو بكر الخوارزمى ، وأبو الطيب اللغوى ، وعلى بن عبد العزيز الجرجانى .

وكانت مدينة حلب عاصمة سيف الدولة تعج بعلماء اللغة وأساطينها ، وليس من شك فى أنه كان لسيف الدولة الفضل الأكبر فى هذا الازدهار الثقافى الرائع الذى شهدته مدينة حلب (٢) ، فلقد شجع الأمير علماء اللغة بصفة عامة ورجال الأدب والشعراء بصفة خاصة ، لدرجة تجعلنا نقول إن الأدب العربى لم يظفر بشئ من التشجيع كما ظفر فى عهد سيف الدولة الأمير العربى ، ولا غرابة فى ذلك فقد كان الأمير ذا ذوق رفيع ، وقد منح قدرة على فهم الأدب وإدارة الحديث فى المجالس واستخراج أفضل ماعند العلماء والأدباء بالعطاء والتنافس ، وكان ذا حكمة فى تقدير شعرائه ، ولذلك جذب إليه مجموعة ممتازة من الشعراء ، وصار محيطه الأدبى

---

(١) انظر ظهر الإسلام لأحمد أمين : ١ / ٢٢٨ .

(٢) انظر : سيف الدولة وعصر الحمدانيين ، الدكتور سامى الكيالى ص ٥٤ وما بعدها . دار المعارف بمصر ١٩٥٩ م . وانظر كذلك : محاضرات عن الحركة الأدبية فى حلب ، للدكتور سامى الكيالى ص ٨ . مطبعة نهضة مصر ١٩٥٦ . ١٩٥٧ م .

يعتبر فى مركز الخليفة العباسى فى ذلك الزمان (١) .

ولم يكن سيف الدولة الحمدانى هو الوحيد الذى منح ذوقا صافيا وقدرة على فهم الأدب ، ولكن كان هناك شعراء كبار من بنى حمدان يتذوقون الشعر من أمثال أبى فراس الحمدانى ، ومهلهل بن نصر بن حمدان ، وأبو العشائر ، وغيرهم . الأمر الذى يعكس الحياة الثقافية والأدبية التى كانت سائدة فى عصر المتنبى .

ثانيا : الحياة السياسية :

كانت الحياة السياسية فى العصر الذى ولد فيه المتنبى مقسما بين العرب والفرس والترك ، فقد اعتمدت الدولة العباسية منذ قيامها على الفرس ، وأخذ هؤلاء من جهتهم يسيطرون على المراكز الحساسة فى الدولة وعلى تصريف الأمور فيها . وقد لعبوا دورا بارزا فى تولية الخليفة (٢) .

وحين جاء المعتصم نجده يعتمد اعتمادا كليا على عنصر الأتراك ، وأخذ يعين منهم كبار أمراء الجيش ، وأخذ التاريخ العباسى يصبغ بصبغة تركية ، فلم يكن أمر الجيش وتسيير الأمور بيد الترك فحسب،ولكن أخذ هؤلاء يعتدون على الخلفاء ، حتى أنهم عندما شعروا أن الخليفة المتوكل يريد الخلاص منهم أرادوا القضاء عليه(٣)

وبعد مقتل المتوكل أخذت مؤامرات الأتراك تستمر فى قتل الخلفاء ، فبعد موت المنتصر الذى كانوا قد نصبوه نجدهم يقتلون المستعين ثم المعز ، وأخذوا من ثم يتمادون فى الاستخفاف بالخلافة والخلفاء ، والعرب بوجه خاص .

وأمام هذا النفوذ التركى الذى سيطر على الخلافة ، وأخذ يسير الأمور كما

---

(١) انظر نخب تاريخية وأدبية جامعة لأخبار الأمير سيف الدولة الحمدانى ، تأليف ماريوس كنار ص ٢٨١ . طبعة ليشيو ليطو وجول كربونيل ، الجزائر ١٩٣٤ م .
(٢) انظر ظهر الإسلام : ١ / ٦ .
(٣) انظر ظهر الإسلام : ١ / ١١ .

يريد . كان هناك نفوذ للفرس ، وكان الفرس يتآمرون على الإسلام ، ويتطلعون إلى قلب نظام الإسلام إلى نظام فارسى مجوسى .

ثم كان هناك نفوذ آخر عربى يتمثل فى وجود الإمارة العربية الحمدانية فى الموصل وحلب (٣١٧ - ٣٩٤ هـ) ، وقد احتفظ هؤلاء كأعراب بطبائعهم العربية من حيث البداوة وعدم التأثر بغير العرب ، وأخذ هؤلاء يتطلعون إلى الخلاص من النفوذ التركى والفارسى،إلا أن مؤامرات الأتراك وكثرتهم أوقفت محاولات بنى حمدان (١).

وهكذا انقسمت الدولة الإسلامية بين هذه العصبيات الثلاث التركية والفارسية والعربية ، ولم يعد فى أيدى العباسيين إلا العراق والجزيرة الأمر الذى يجعلنا نقرر أن القرن الرابع الهجرى كان زمنا للثورات والفتن والحروب ، وأن الكوفة بلدة المتنبى قد تعرضت لغارات وهجمات من هنا وهناك ، وقد نشأ الشاعر فرأى هذا عيانا ، وأخذ يشارك فيه بعد رجوعه من مصر .. وهكذا هيأت الظروف للمتنبى أن يتسم بالجرأة منذ الصغر ، وأن يأتى شعره متفقا مع طموحه وتطلعاته وأمانيه فى السلطان والسيطرة ، وأن يطبع بطابع العنف ، فيكون شعره متعاليا قويا طموحا إلى الأمجاد والمعالى (٢) .

يقول الدكتور طه حسين وهو بصدد الحديث عن عصر المتنبى : " فى هذا العصر الذى نحن بإزائه عظمت الشخصية الفردية حتى انتهت من القوة إلى حد لم تبلغه قط فى التاريخ الإسلامى ، وضعفت قوة الجماعة حتى كادت لا تكون شيئا يذكر ، ونشأ عن ذلك أن قويت الأثرة وتحكمت فى الأفراد وتسلطت على سيرتهم وتفكيرهم، وامحى الإيثار أو كاد يمحى ، وضعف تأثير العواطف الطبيعية التى تعتمد عليها الحياة الاجتماعية المستقرة ، ولم يكن غريبا أن يمكر الصديق بصديقه، ويغدر الخليل بخليله ، ويكيد الابن لأبيه ، ويبغى الأخ على أخيه ، وتنتهك

---

(١) انظر ظهر الإسلام : ١ / ٥٨ .

(٢) انظر فنون الشعر فى مجتمع الحمدانيين ص ٤٢٥ ، ومطالعات فى الكتب والحياة للعقاد ص ٢١٧، وأمراء الشعر العربى فى العصر العباسى لأنيس المقدسى ص ٣٤٦

الحرمات التى أمر الله أن ترعى " (١) .

ويقول :
" فى هذا العصر الذى نحن بإزائه ، وفى هذا الاضطراب المتصل والفساد الشائع، كثر المغامرون والمخاطرون وأصحاب المطامع التى لا تحد ، وظفر بعض هؤلاء المغامرين بما كان يريده كله أو بعضه ، ظفرا يطول حينا ويقصر حينا ،ولكنه ظفر على كل حال من شأنه أن يغرى بالمغامر ويدفع إلى المخاطرة ، ويزيد أثرة الأفراد ويضعف فى حياة الجماعات فسادا إلى فساد .

فى هذه البيئة المنكرة التى لم نبالغ ولم نغل فى تصويرها ولد المتنبى . وأكبر الظن أن مولده كان أثرا من آثار هذا الفساد العظيم ، أو أنه لم يخل من تأثر به على كل حال .

ولد المتنبى فى بيئة كان الدم يصبغها من حين إلى حين . كان الدم يصبغها ثم لا يكاد يجف حتى يسفك دم آخر . ولم يكن الدم وحده يصبغها ، وإنما كان يصبغها صبغ آخر ليس أقل نكرا من سفك الدم ، هو النهب والسلب ، واستباحة الأعراض ، وانتهاك الحرمات ، والاستخفاف بقوانين الخلق والدين (٢) .

وهذه الظروف نفسها هى التى جعلت هذا الشاعر يتعصب للعرب ويدعو إلى العروبة الخالصة ، ويتعصب ضد الأعاجم الذين صار أمر أمة العروبة والإسلام آنذاك بأيديهم ،ويرى ضرورة بقائهم محكومين لا حاكمين . على أنه قد وجد ضالته فى أمير حلب سيف الدولة الحمدانى ، فأخذ يصور الإباء والفروسية أروع تصوير .

يقول فى اعتزازه بالعربية وافتخاره بها (٣) :

---

(١) مع المتنبى ص ٣١ ط ١١ .
(٢) المصدر السابق ص ٣١ ، ٣٢ .
(٣) الديوان : ١ / ١٥٢ - ١٥٥ .

فـتى علّمتـه نفسُـهُ وجـدودُهُ .·. قِـراع الأعـادى وابتـذال الرغـائب
فقـد غيّبَ السُّهّـاد عـن كـل موطن .·. وردٌ إلـى أوطانـه كـل غـائب
كـذا الفاطميـون النـدى فى بنانهـم .·. أعـزُّ امّحـاءً مـن خطـوط الرواجب
أنـاس إذا لاقـوا عـدى فكأنمـا .·. سـلاح الـذى لاقـوا غبار السلاهب
..
إذا لـم تكـن نفـس النسيب كأصلـه .·. فمـاذا الـذى يغنى كـرام المناصب

ونلمس تفضيله العرب على الأقوام جميعا فى قوله (١) :

إن كنـت عـن خيـر الأنـام سائـلا .·. فخيـرهـم أكـثرهـم فضـائـلا
مَـنْ أنـت منهـم يـا هُمـامُ وائـلا .·. الطاعنـين فـى الوغـى أوائـلا
والعاذليـن فـى النـدى العـواذلا .·. قـد فضلـوا لفضـلك القبـائـلا

وقوله (٢) :

وإنمـا النـاس بالملـوك ومـا .·. تفلـح عـرب ملـوكهـا عـجـم

وقوله (٣) :

أفعـال مـن تلـد الكـرام كريمـة .·. وفعـال مـن تلـد الأعـاجـم أعجم

وقوله مخاطبا سيف الدولة (٤) :

رفعتْ بـك العـربُ العمـادَ وصيرتْ .·. قـممَ الملـوك مواقـدَ النيـران
أنْسـابُ فخرهـم إليـك وإنمـا .·. أنسـابُ أصلهـم إلى عدنـان

---

(١) الديوان ٣ / ١١١.
(٢) الديوان ٤ / ٥٩ .
(٣) الديوان ٤ / ١٣٢ .
(٤) الديوان ٤ / ١٨٤ ، ١٨٥ .

ثالثا : الحياة الاجتماعية :

سبق أن قلنا إن مطلع الخلافة العباسية قد شهد تكتلات فارسية وأخرى عربية، وتجلت هذه التكتلات سافرة فى الصراع بين الأمين والمأمون حين انتصر العرب للأمين، وانتصر الفرس للمأمون .

وسبق أن قلنا أيضا إن الأمر لم يكن مقصورا على إذلال الخلفاء وامتهانهم ، وإنما كانت الثورات الداخلية تدب فى كل مكان . فالقرامطة يعيثون فى الأرض فسادا ، ويضربون فى الأمصار الإسلامية تارة فى الشام ، وتارة فى جنوبى العراق ، وتارة فى الحجاز ، لدرجة أنهم لم يتورعوا عن قتل الحجاج حول البيت الحرام ،واغتصاب الحجر الأسود ونقله إلى عاصمتهم هجر (١) .

والأمر الخطير فى تلك الحقبة من الزمان هو تفتيت الإمبراطورية العباسية ، التى بلغت من الضعف والانحلال ما شجع كثيرا من الأطراف الإسلامية على إنشاء دويلات مستقلة ، ففى طبرستان ظهر مردويج ، ثم بنويويه الذين لم يلبثوا أن بسطوا سلطانهم على فارس كلها ، ثم استولوا على عاصمة الخلافة بعد ذلك بفترة وجيزة (٢) .

وقبل ذلك قامت فى سجستان دولة الصفاريين حوالى سنة ٢٥٦ هـ ، وفى اليمن أقام يحيى بن الحسين إمارة زيدية حوالى سنة ٢٨٤ هـ ، وفى مصر تمكن أحمد بن طولون من إنشاء دولة بها سنة ٢٥٥هـ (٣) ، ثم جاء بعده الإخشيديون .

وغدا هذا الوهن سمة مميزة لبغداد ، قابله نشاط سياسى متميز فى الأطراف ، واستمر المركز فى الضعف ، والأطراف فى النشاط وفى الاستقلال ، وازداد التمزق فى

---

(١) الكامل فى التاريخ ، لابن الأثير : ٦ / ٢٠٣ ، ٢٠٤ . إدارة الطباعة المنيرية ١٣٥٣ هـ .
(٢) مهيار الديلمى وشعره ، الأستاذ على الغلال ص ١١ . مطبعة الاعتماد بمصر ١٩٤٧ م .
(٣) تاريخ الشعوب الإسلامية ، بروكلمان : ٢ / ٥٠ - ٩٠ . نقله إلى العربية الدكتور نبيه أمين فارس ومنير البعلبكى . دار العلم للملايين ، بيروت ، الطبعة الأولى ١٩٤٩ م .

أجزاء الدولة ، مما جعل الأقاليم تتوزع بين أمراء استقلوا بها ، وغدت صلاتهم بالخليفة صلات صورية ، يعترفون له بالسيادة الاسمية ، ويدعون له على المنابر ، ويرسلون له ضرائب رمزية ، مما يؤكد أن معظم الخلفاء عاشوا محالا بينهم وبين السلطة الفعلية .

والواقع أن هذه الفوضى قد استمرت حتى نهاية الخلافة العباسية ، تتخللها فترات صحو لم تدم طويلا . على أن من أهم الأسباب فى تدهور الخلافة العباسية أن كثرة الخلفاء انغمست فى اللهو والترف ، والإقبال على كل متاع مادى[1] .

* * * * *

فإذا ما تأملنا الحياة الاجتماعية ، وجدنا المجتمع العباسى يضم عناصر مختلفة الأجناس والنزعات ، فيها العرب والفرس والروم والترك ، وفيها المسلمون وغير المسلمين ، ولكل تقاليده التى احتفظ بها ، وقد تداخلت هذه التقاليد وتفاعلت ، ونتجت خليطا متنافرا أدى إلى تفكك اجتماعى ساعد على التفكك السياسى .

ومما يتصل بالحياة الاجتماعية الحالة الاقتصادية التى كانت فى غاية الاضطراب فلم يكن هناك توازن اقتصادى بين طبقات المجتمع ،الأمر الذى تسبب فى اندلاع ثورات مختلفة تغطى أغراضا سياسية بأقنعة اجتماعية أو اقتصادية ، وتناهض الدولة وتعرض كيانها للخطر .

لهذا الذى سبق من سوء الحياة بوجه عام ، سواء أكانت سياسية أم اجتماعية أم اقتصادية ، كانت الحياة فى عصر بنى العباس تتميز بطابع من القلق والفوضى ، مما عرض البلاد لطمع الطامعين .

---

(١) انظر مروج الذهب للمسعودى ، تحقيق محمد محى الدين : ٤ / ١٢٢ مطبعة السعادة الطبعة الثالثة ١٣٧٧ هـ ١٩٥٨ م .

الفصل الثانى
مفهوم الإغراب وأسبابه

أولا : مفهوم الإغراب

لعل من الصعب أن يضع أى كاتب تعريفا محددا لما يسمى بـ " الإغراب " فى الشعر العربى عامة وفى شعر المتنبى خاصة ، وذلك لأسباب ثلاثة :

فأما السبب الأول فهو أن اللغويين لم يحددوا لمادة هذه الكلمة معنى واحدا يمكن أن ترجع إليه سائر المعانى ، وإنما السياق وحده هو الذى يحدد المعنى المراد .

وأما السبب الثانى فهو كثرة التعريفات التى وضعها النقاد (القدامى منهم والمحدثون) للإغراب ، وذلك من خلال جملة آرائهم التى تمثل جزءا حيا من تاريخ النقد الأدبى عند العرب .

وأما السبب الثالث فيرجع إلى أن الإغراب أمر نسبى يختلف من ناقد إلى آخر، وكذلك فإننا نرى أن النقاد الذين تتبعوا شاعر العربية المتنبى تختلف مناحيهم فى الدراسة ، ومناهجهم فى البحث ، واتجاهاتهم فى النقد ، ويكشف تتبعهم للمتنبى عن مدى قدرة الواحد منهم على تطبيق المقاييس النقدية التى كانت فى متناول أيديهم وفى محيط حياتهم .. ومما لاشك فيه أن حالات الإغراب ودرجاته وتقدير هذه الدرجة تختلف فى نفسها وفى الناقد الذى نرجع إليه فى تقديرها ؛ لأن كثيرا من النقاد القدامى قد يستسيغون الإغراب ويجعلونه أجود المذاهب الشعريه مادام الشاعر لم يتجاوزه إلى درجة الإحالة ، ومع ذلك فهناك أبيات فى شعر المتنبى فيها إغراب لا يختلف فيه اثنان .

ولكى تكون المسألة واضحة فإنه ولابد من بحث عدة أمور ترتبط ببعضها ارتباطا وثيقا يتمثل أولها فى دراسة مصطلح " الإغراب " دراسة لغوية تحليلية ، ويتمثل ثانيها فى دراسة مصطلح الإغراب عند البلاغيين والنقاد ، ويتمثل الأمر

الثالث فى دراسة ألفاظ قد تؤدى مدلول الإغراب أو تؤدى بعضه ، دراسة تحدد مابين هذه الألفاظ من اشتراك إن فى المدلول اللغوى أو العرفى .

١- الإغراب فى اللغة :

يرجع لفظ " الإغراب "و كذلك " الغرابة " وكذلك " الغريب " إلى مادة "غرب".. وليس لهذه المادة معنى واحد يمكن أن ترجع إليه سائر المعانى ؛ ذلك لأنها من المواد المشتركة التى لا يتحدد معنى اشتقاقها إلا من خلال السياق الذى تذكر فيه .

وكلمة " الإغراب " كأى كلمة لها منحى قد يتغير ، أو يتبدل ، أو يتقلب فى أوضاعه المختلفة من عصر إلى عصر ، ومن بيئة إلى أخرى ، ومن ناقد إلى آخر . فكل عصر - وكذلك كل بيئة - يرتبط مصطلح الإغراب فى ذهن أفراده بصورة معينة ، وصور الإغراب قد تختلف تمام الاختلاف من عصر لآخر ؛ ولعل هذا هو السبب الذى جعل الفيروزابادى يذكر للفظة (غرب)ما يزيد على عشرين معنى (١)، وهو السبب نفسه الذى جعل أحمد بن فارس فى مقاييسه لم يحدد معنى تدور المادة حوله (٢) .

وسأحاول أن استظهر تعريفات تلك الكلمة ، وتقلباتها ، وتطور منحاها مع تعضيد ذلك كله باستعراض ما أمكن من النصوص فى عصور وبيئات مختلفة .

وقد وردت للكلمة تعريفات فى معاجم اللغة منها :

(أ) لسان العرب لابن منظور :

يقول : " والغريب : الغامض من الكلام ، وأغرب الرجل جاء بشئ غريب ، وقال الأصمعى : أغرب الرجل إغرابا إذا جاء بأمر غريب .. " (٣) .

---

(١) انظر القاموس المحيط : ١ / ١٠٩ . مؤسسة الحلبى وشركاه للنشر والتوزيع بالقاهرة .

(٢) انظر مقاييس اللغة لابن فارس ، تحقيق عبد السلام هارون :٤ / ٤٢٠ القاهرة ، الطبعة الثانية ١٩٦٩ م .

(٣) الجزء الأول ص ١٣٢ ، ١٣٣ . الدار المصرية للتأليف والترجمة والنشر .

(ب) تهذيب اللغة لأبى منصور الأزهرى :

يقول : " والغريب من الكلام : العُقْمِيُّ الغامض ، وقال الكميت :

وشطٌ وَلْىُ النوى إن النوى قُذُف .·. تيّاحة غرْبة بالدار أحيانا

وفى حديث عمر رضى الله عنه أنه قال لرجل قدم عليه من بعض الأطراف ، هل من مغرِّبة خبر .

قال أبو عبيدة يقال : مغَّربة ومغرِّبه بكسر الراء وفتحها قال ذلك الأموى بالفتح وقال غيره بالكسر ، وأهله فيما نرى من الغرب وهو البعد .

وقال الكميت :

أعهدكَ من أولى الشبيبة تطلب .·. على دبر هيهات شأوٌ مغرِّب

والخبر المغرب الذى جاء غريبا حادثا طريفا ، ويقال غرَّب فلان فى الأرض وأغرب إذا أمعن فيها .

وقال الأصمعى : أغرب فى منطقه : إذا لم يبق شيئا إلا تكلم به ، وأغرب الفرس فى جريه ، وهو غاية الإكثار منه .

فى الحديث أن النبى صلى الله عليه وسلم سئل عن الغرباء فقال : (الذين يحيون ما أمات الناس من سنتى) . وفى حديث آخر :" إن الإسلام بدأ غريبا وسيعود غريبا فطوبى للغرباء "

وفى حديث آخر : " إن فيكم مغربين قالوا وما مغربون ، قال الذين يَشْرَكُ فيهم الجن " سموا مغربين لأنهم جاءوا من نسب بعيد " (١) .

---

(١) الجزء الثامن تحقيق عبد العظيم محمود ومحمد على النجار ، الدار المصرية للتأليف والترجمة ، مطابع سجل العرب ص ١١٥ -١١٩ .

(جـ) مقاييس اللغة لابن فارس :

يقول : الغربة البعد عن الوطن ، يقال : غَرَبَت الدار ومن هذا الباب غروب الشمس ، كأنه بُعْدُها عن وجه الأرض ، وشأو مغرِّب أى بعيد . قال :

أعَهْدَكَ من أولى الشبيبة تطلب .·. على دُبُر هيهات شأو مُغَرِّبُ

ويقولون : " هل من مغربة خبر " يريدون خبرا أتى من بعيد . وفى كتاب الخليل " إذا أمعنت الكلاب فى طلب الصيد قيل : " غرَّبت " (١) .

(د) أساس البلاغة للزمخشرى :

يقول : كففتُ من غَرْبه أى من حدّته

قال ذو الرمة :

فكفَّ من غربه والغُضْفُ تتبعه .·. خَلْف السَّبيب من الإجهاد تنتحبُ

وقذفته نوىً غَرْبَةٌ أى بعيدة

يقال : غرَّبه : أبعده ، وغرُب : بعُد ، وإذا أمعنت الكلاب فى طلب الصيد قالوا : غرَّبت .ويقال للرجل : يا هذا غرِّب ، شرِّق أو غرِّب . "وهل من مغربة خبر " وهو الذى جاء من بُعد ، وتقول العرب للرجل : هل عندك من جليَّةٍ خبر أو مغَرِّبةٍ ؟ فيقول : قَصُرت عنك لا أى ما عندى خبر .

وغرَّبت الوحشُ فى مغاربها أى غابَتْ فى مكانسها . ورمى فأغرب أى أبعد المرمى ، وتكلم فأغرب إذا جاء بغرائب الكلام ونوادره ، وتقول فلان يُغْرِب كلامه ويغرب فيه ، وفى كلامه غرابة ، وغَرُب كلامه ، وقد غَرُبت هذه الكلمة أى غمضت فهى غريبة ، ومنه مصنف الغريب ، وقول الأعرابى : ليس هذا بغريب ولكنكم فى الأدب غرباء . وأغرب الفرس فى جريه والرجل فى ضحكه إذا أكثرا منه ، ونُهى عن

---

(١) الجزء الرابع ، تحقيق وضبط عبد السلام هارون ، مطبعة مصطفى البابى الحلبى بمصر ، الطبعة الثانية ١٣٩١ هـ ١٩٧١ م . ص ٤٢١ .

الاستغراب فى الضحك وهو أقصاه . ويقال : وجه كمرآة الغريبة لأنها فى غير قومها فمرآتها أبدامجلوة لأنه لا ناصح لها فى وجهها " (١) .

(هـ) تاج العروس للزبيدى :

يقول : والغرب التنحى عن الناس ، وقد غرب عنا يغرب غربا ، والغرب أول الشئ وحدّه كغرابة بالضم والغرب والغربة الحدة فى التهذيب يقال كف من غربك أى حدتك ، وغرب الفرس حدته وأول جريه تقول كففت من غربه .

قال النابغة الذبيانى :

والخيــل تمـرغ غـربـا فـى أعنتهـا .·. كالطيـر ينحو من الشؤبوب ذى البرد

والغرب النوى والبعد كالغربة بالفتح ونوى غربة بعيدة وغربة النوى بعدها .

قال الشاعر :

وسـط ولى النـوى إن النـوى قـذف .·. تياحـة غربـة بالـدار أحيـانـا

والغرب بالضم التزوح عن الوطن كالغربة بالضم أيضا ، والاغتراب والتغرب أيضا البعد تقول منه تغرب واغترب .

والإغراب إتيان الغرب يقال غرّب القوم ذهبوا فى المغرب وأغربوا أتوا الغرب والإغراب الإتيان بالغريب يقال أغرب الرجل إذا جاء بشئ غريب وفى الأساس تكلم فأغرب جاء بغريب الكلام ونوادره ، وفلان يغرب كلامه ويغرب فيه .

وغرب ككرم غمض وخفى ومنه الغريب وهو الغامض من الكلام ، وكلمة غريبة وقد غربت وهو من ذلك وفى الأساس يقال فى كلامه غرابة " (٢) .

---

(١) ص ٦٧٣ دار ومطابع الشعب بالقاهرة ١٩٦٠ م .
(٢) المجلد الأول ، المطبعة الخيرية بمصر ، الطبعة الأولى ١٣٠٦ هـ ص ٤٠٤ - ٤١١ .

(و) الصحاح للجوهرى :

يقول : الغربة : الاغتراب ، تقول منه : تغرّب واغترب بمعنى فهو غريب وغُرُب أيضا . وقال :

ومـا كـان غـض الطـرف منا سجية ... ولكننـــا فـــى مـذحـــج غُــرُبـــانِ

والجمع الغرباء والغرباء أيضا : الأباعد

واغترب فلان ، إذا تزوج إلى غير أقاربه ، وفى الحديث " اغتربوا ولا تُضْووا "

ويقال : " هل جاءكم من مغرِّبة خبر " يعنى الخبر الذى طرأ عليهم من بلد سوى بلدهم .

وشأوٌ مغرِّب ومغرَّب أيضا بفتح الراء أى بعيد .

وأغرب الرجل : جاء بشئ غريب .

وغرب أى بعد يقال : اغرُب عنى أى تباعد " (١) .

(ز) مختار الصحاح للرازى :

يقول : تغرَّب واغترب بمعنى فهو غريب وغُرُب والجمع الغرباء ، والغرباء أيضا الأباعد ، واغترب فلان إذا تزوج إلى غير أقاربه . وفى الحديث اغتربوا ولا تضووا ، وأغرب جاء بشئ غريب ، وأغرب عنى أى تباعد " (٢) .

(ح) القاموس المحيط للفيروزابادى :

يقول : " والإغراب إتيان الغرب والإتيان بالغريب " (٣)

(ط) المنجد للويس معلوف :

يقول : " غَرُبَ غرابة الكلام : غمض وخفى والشئ : كان غير مألوف ، أغرب :

---

(١) الجزء الأول تحقيق أحمد عبد الغفور عطار ، مطابع دار الكتاب العربى بمصر ص ١٩١ ، ١٩٣ .

(٢) مطبعة مصطفى البابى الحلبى بمصر ١٣٦٩ هـ ، ١٩٥٠ م ص ٤٩٥ ، ٤٩٦ .

(٣) المجلد الأول ص ١١٠ .

أتى بالشئ الغريب ... " [١] .

(ى) المعجم الوسيط [٢] :

" غربت الشمس غروبا : اختفت فى مغربها ، وفلان غاب والقوم ذهبوا ، وعنه: تنحى يقال : اغرُب عنى . وفلانا غربا وغربه : بعُد عن وطنه .

غرُب عن وطنه – غرابة وغُربة : ابتعد عنه . والكلام غرابة : غمض وخفى فهو غريب ج غرباء وهى غريبة ج غرائب .

أغرب : أتى الغرب وصار غريبا ، وارتحل ، وجاء بالشئ الغريب .وفى كلامه : أتى بالغريب البعيد عن الفهم . ويقال : رمى فأغرب : أبعَدَ المرمى وفى الضحك : بالغ . استغرب الرجل فى الضحك : بالغ فيه " .

(ك)قطر المحيط لبطرس البستانى :

يقول فى باب الغين : " غرب الكلام يغرب غرابة غمض وخفى ، وأغرب الرجل أتى بشئ غريب " [٣] .

ومن هذا العرض يتضح لنا أن أقرب هذه المعانى المختلفة إلى ما نحن بصدده هو معنى البعد والاختفاء ، وقد أوردت معاجم اللغة العربية العديد من المشتقات التى تدور حول هذا المعنى [٤] .

---

(١)ص ٥٤٧ المطبعة الكاثوليكية ، بيروت ، الطبعة التاسعة عشرة .

(٢) (مجمع اللغة العربية) إخراج إبراهيم مصطفى وأحمد حسن الزيات وحامد عبد القادر ومحمد على النجار ، أشرف على الطبع عبد السلام هارون (٢ / ٦٥٣)

(٣) ص ١٤٤٦ نشر مكتبة لبنان .

(٤) انظر جمهرة اللغة لابن دريد الأزدى الجزء الأول طبعة حيدر آباد (الدكن- الهند) ١٣٤٤ هـ . وانظر كذلك المقاييس لأحمد بن فارس الجزء الرابع ، وتاج اللغة وصحاح العربية لإسماعيل بن حماد الجوهرى ، والطبعة الثانية تحقيق أحمد عبد الغفور عطار القاهرة ١٩٨٢ م ، ولسان العرب لابن منظور الجزء الأول دار صادر ١٩٥٦ م .

ويتضح أيضا أن الشاعر يتصف شعره بالإغراب إذا جاء بغرائب الكلام ونوادره، وأتى فيه بشئ غريب غير مألوف ، أو خرج فيه عن الاعتياد ، كاستعماله للألفاظ الغريبة ، أو العنصر من عناصر اللغة القديمة التى تحتاج إلى التفسير ، أو كاستعماله لتلك الألفاظ التى قد يلتبس معناها ، أو للفظ بعيد المعنى غامضه .. وليس يخفى أن الخروج عن الاعتياد قد يكون فى المعنى كما يكون فى اللفظ كما يكون فى التركيب وغير ذلك .

٢- مفهوم الإغراب عند النقاد والبلاغيين :

من جملة ما كتب الجاحظ حول مفهوم الغرابة [١] يمكننا أن نفهم أن الغرابة عنده تتعلق باستعمال الكلمات ذات المعنى الغامض التى يخفى بعضها على علماء اللغة المبرزين من أمثال الأصمعى وغيره . والملاحظ أن الجاحظ ينظر إلى الغرابة بمقياس نسبى يختلف باختلاف من يستعملها من الناس ، وينظر كذلك إلى واقع الاستعمال الحسى للغة فى العصر الذى قيلت فيه ، ويربط الغرابة بالطبقة الاجتماعية التى ينتمى إليها المتكلم والسامع .

يقول : " وكما لا ينبغى أن يكون اللفظ عاميا وساقطا سوقيا فكذلك لا ينبغى أن يكون غريبا وحشيا ، إلا أن يكون المتكلم بدويا أعرابيا ، فإن الوحشى من الكلام يفهمه الوحشى من الناس ، كما يفهم السوقى رطانة السوقى وكلام الناس فى طبقات كما أن الناس أنفسهم فى طبقات " [٢] .

على أن موقف عبد القاهر الجرجانى[٣] وغيره من علماء البلاغة لا يختلف عن موقف الجاحظ فى هذه القضية كثيرا . وإذا كان بعض النقاد وهو قدامة بن جعفر قد جعل الغرابة عيبا من عيوب اللفظ فى الشعر فإن المقصود بلاشك بذلك إنما هو اللفظ

---

(١) انظر البيان والتبيين ، تحقيق عبد السلام هارون : ٣٧٨/١ ، ٣٧٩ . ط ٤ القاهرة ١٩٧٥ م .
(٢) المصدر السابق : ١ / ١٤٤ .
(٣) انظر دلائل الإعجاز ص ٣٩٦ - ٣٩٨ - تحقيق محمود شاكر،مكتبة الخانجى ، القاهرة ١٩٨٤ م .

من حيث علاقته بمعناه ومن حيث جرسه واستهجانه فى السمع [١] .

ويرى ابن رشيق أن الغريب الوحشى إنما هو اللفظ الذى ينبو عنه السمع بالإضافة إلى كونه غريبا فى معناه [٢] .

وينبغى أن نشير ونحن بصدد هذا الكلام إلى أن مصطلح الغريب أخذ بعدا جديدا عند الآمدى وابن رشيق ، يختلف عنه عند النقاد وعلماء البلاغة المتقدمين ، فالكلمة الغريبة أو الوحشية عندهما هى التى ينفر منها السمع ، هذا بالإضافة إلى كونها مستغربة لا يعرفها إلا الأعرابى القح أو العالم المبرز ، على أن التفتازانى يجعل المألوف فى مقابل الغريب .

٣- الإغراب وألفاظ أخرى :

وأقرب الألفاظ التى تؤدى معنى الإغراب هو لفظ " الغرابة " و " المبالغة " بحكم وضعهما اللغوى وبحكم استعمالهما ؛ لأن التعريفات المختلفة والتقسيمات المتعددة التى وضعها المتقدمون لكل من المبالغة والغرابة تجتمع فى النهاية وتفيد أن المقصود بها هو أن يغرب الشاعر فى قوله ويتعدى فيه حدود المعقول أو المألوف المعروف .. مما يؤكد قوة الاتصال بين الإغراب وبين هذين اللفظين ، وأن هذه الألفاظ قد تنتهى فى مدلولها إلى غاية واحدة غالبا .

أما لفظ الغرابة فإنه يرجع إلى مادة " غرب " وهذه المادة لا يتحدد لها - كما سبق القول - معنى واحد إلا من خلال السياق الذى تذكر فيه . بيد أن من يدرس المعانى المختلفة لهذه المادة يرجح أن أقربها فهما هو معنى الاختفاء والبعد ، وقد أوردت المعاجم مشتقات متعددة تدور حول هذا المعنى [٣] .

---

(١) انظر نقد الشعر لقدامة ، تحقيق كمال مصطفى ص ١٧٢ القاهرة ، الطبعة الثالثة ١٩٧٨ م .
(٢) انظر العمدة : ٢ / ٢٦٥ تحقيق محمد محى الدين القاهرة ١٩٣٤ م .
(٣) انظر اللسان : ١ / ٦٤٠ ، والمقاييس ٤ / ٤٢١ ، والعين للخليل بن أحمد : ٤ / ٤١١ تحقيق الدكتور إبراهيم السامرائى ومهدى المخزومى بغداد ١٩٨٢ م .

قال ابن دريد وأحسب أن اشتقاق الغريب من هذا والمصدر الغربة ، يقول الجوهرى : تقول من الغربة تغرب واغترب بمعنى فهو غريب .. والجمع الغرباء ، والغرباء أيضا الأباعد ، واغترب فلان إذا تزوج إلى غير أقاربه ، والتغريب النفى عن البلد ، وأغرب الرجل جاء بشئ غريب، وأضاف صاحب اللسان إلى هذه المعانى قوله : قدح غريب أى ليس من الشجر التى سائر القداح منها ، ورجل غريب ليس من القوم ، والغريب الغامض من الكلام .

... ومن ذلك يتبين لنا أن لفظة الغريب إنما هى مرحلة من مراحل تطور معنى " الغرابة " فى استخداماتها الأولى .

وقد لقيت كلمة " المبالغة " كذلك اهتماما فى توضيح مدلولها أكثر من غيرها ، ومصطلح " المبالغة " فى الكلمة أو الأسلوب يحمل فى ذاته حكما بالإفراط والإسراف وتجاوز الحقيقة .

فأبو منصور الأزهرى يقول : " قال الليث : والمبالغة أن تبلغ من العمل جهدك " (١) .

وقال ابن سيده : وتبالغ الدّباغ فى الجلد : انتهى فيه ... والمبالغة أن تبلغ من الأمر جهدك " (٢) .. وعلى هذا فالمعنى الذى تدور حوله اللفظة هو بذل أقصى الغاية من الطاقة والجهد .

ويقول ابن منظور فى مادة " بلغ " : بالغ يبالغ مبالغة وبلاغا إذا اجتهد فى الأمر ... والمبالغة أن تبلغ فى الأمر جهدك " (٣) .

---

(١) تهذيب اللغة (بلغ) : ١٣٩/٨ تحقيق عبد السلام هارون الدار القومية للطباعة ١٣٨٤ هـ ١٩٦٤ م .

(٢) المحكم والمحيط الأعظم فى اللغة ، تحقيق إبراهيم الإبيارى : ٢ / ٣١٥ مطبعة الحلبى ، الطبعة الأولى ١٣٩١ هـ ١٩٧١ م .

(٣) لسان العرب مادة " بلغ " .

ويقول الفيروزابادى : " بالغ مبالغة وبلاغا إذا اجتهد فى الأمر " [١] .

وفى المعجم الوسيط [٢] : بلغ الشجر : حان إدراك ثمرة و – الغلام : أدرك . و– الأمر : وصل إلى غايته ، ومنه (حكمة بالغة) و – الشئ بلوغا : وصل إليه .

بلغ بلاغة فصح وحسن بيانه فهو بليغ ج بلغاء (بالغ) فيه مبالغة وبلاغة : اجتهد فيه واستقصى ، تبالغ فى الشئ تناهى .. "

وهذه تعريفات لغوية لمعنى المبالغة ، ولا شك أنها توضح لنا أصل تسمية تلك الكلمة ودلالتها ، وعلى هذا فالمبالغة ومادتها يصح أن تطلق وصفا لمن يبذل أقصى الغاية فى الأمر .

وحين نرجع إلى كتب النقد القديمة [٣] نجدها تضع تعريفات متعددة للمبالغات الشعرية ، وهذه التعريفات تفيد فى مجموعها أن الشاعر قد تجاوز حدود المألوف والمعروف ، أى أن شعره يتسم بالإفراط والتجاوز ... وهذا المعنى وإن لم نجده فى كتب اللغة إلا أننا يمكن أن نقول إن المدلول النهائى لهذه الكلمة قد ينقلب على سبيل الشك إلى ضده فتتصف من ثم بالتجاوز والإفراط والمبالغة .

وقد أفرد ابن رشيق بابا للمبالغة يقول فيه : " وهى ضروب كثيرة . والناس فيها مختلفون : منهم من يؤثرها ، ويقول بتفضيلها ، ويراها الغاية القصوى فى الجودة ، وذلك مشهور من مذهب نابغة بنى ذبيان ، وهو القائل : أشعر الناس من استجيد كذبه ، وضحك من رديئه ...

ومنهم من يعيبها وينكرها ويراها عيبا وهجنة فى الكلام ، قال بعض الحذاق

---

(١) القاموس المحيط بلغ .
(٢) ١ / ٦٩ .
(٣) انظر على سبيل المثال نقد الشعر لقدامة بن جعفر ص ١٤١ وانظر الصناعتين لأبى هلال العسكرى ص ٣٧٨ طبعة عيسى البابى الحلبى .

بنقد الشعر : المبالغة ربما أحالت المعنى ولبَّسته على السامع ، فليست لذلك من أحسن الكلام ولا أفخره ، لأنها لا تقع موقع القبول كما يقع الاقتصاد وما قاربه ؛ لأنه ينبغى أن يكون من أهم أغراض الشعر والمتكلم أيضا الإبانة والإفصاح ، وتقريب المعنى على السامع ، فإن العرب إنما فضلت بالبيان والفصاحة ، وحلا منطقها فى الصدور وقبلته النفوس لأساليب حسنة ، وإشارات لطيفة ، تكسبه بيانا وتصوره فى القلوب تصويرا ، ولو كان الشعر هو المبالغة لكانت الحاضرة والمحدثون أشعر من القدماء " (١) .

وهكذا وضحنا التقارب فى المدلول بين لفظة " الإغراب " وكل من لفظة " المبالغة ؛ ولفظة " الغرابة " .. وبينا أن هذه الألفاظ قد تنتهى فى بعض مدلولاتها إلى غاية واحدة .

وتتمة للموضوع ينبغى أن نشير إلى أن بعض العلماء قد ربطوا بين الإغراب والنادر ، فقد ذكر السيوطى فى المزهر (٢) أن النوادر من الألفاظ التى تقترب فى معناها من الغرائب وأنها مثلها مما يخالف الفصيح ، وذكر الجوهرى أن النوادر مأخوذة من قولهم : " ندر الشئ : سقط وشذ ومنه " النوادر " (٣) ، وذهب الزمخشرى إلى الربط بين النادر والغريب فقال : " وهذا كلام نادر : غريب خارج عن المعتاد "(٤) ، وقد ذهب ابن منظور هذا المذهب حين قال عن النوادر إنها : " ما شذ وخرج عن الجمهور " (٥) .

والحقيقة أن فى هذه الآراء المذكورة نوعا من التعميم ، لأن اللفظين – أى الغريب والنادر – وإن كانا يتقاربان فى أصل الاستعمال اللغوى إلا أنهما ليسا كذلك

---

(١) العمدة تحقيق محمد محى الدين : ٢ / ٥٣ دار الجيل بيروت الطبعة الرابعة ١٩٧٢ م .
(٢) ١ / ٢٣٣ . تحقيق محمد أحمد جاد المولى وآخرين ، طبعة دار إحياء الكتاب العربى ، القاهرة .
(٣) الصحاح : ٢ / ٨٢٥ .
(٤) أساس البلاغة ٦٢٥ بيروت ١٩٦٥ .
(٥) لسان العرب : ٥ / ١٩٩ .

فى كل معانيهما الاصطلاحية ، والمتأمل للتعريفات اللغوية يلمح بوضوح العلاقة بين المعنى اللغوى لمادة (ن د ر) والمعنى الاصطلاحى مثلا للنوادر عندما يراد بها طائفة معينة من الكلمات .

يقول ابن فارس فى مقاييس اللغة : " النون والدال والراء أصل صحيح يدل على سقوط أو إسقاط ،وندر الشئ : سقط ويقال ضربته على رأسه فندرت عينه أى خرجت عن موضعها " (١) .

وقد أصبح العلم بالنادر من الألفاظ وغيرها مما يحرص عليه العلماء ويتفاضلون بمعرفته ، الأمر الذى يؤكد أن النوادر تختلف - إن قليلا أو كثيرا - عن الغرائب ، وفى رأيى أن النوادر إنما سميت كذلك لندرتها وقلة استعمالها ، وهذا يعنى أن كل نادر غريب وليس العكس ؛ لأن ما ذكره علماء اللغة عن الغريب يفيد أن الغريب إنما كان كذلك بسبب قلة الاستعمال .

---

(١) الجزء الخامس ص ٤٠٨ الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٦٩ .

ثانيا : أسباب الإغراب فى شعر المتنبى

والآن وقد انتهينا من دراسة حياة المتنبى وعصره ، وبيان معنى الإغراب ، نحب أن نسجل حكما عاما على إغراب هذا الشاعر ، وأن نفصل القول فى فنه بعد أن فرغنا من تفصيل القول فى شخصيته وحياته .

ولكن شيئا واحدا يحتاج إلى أن نقف عنده قبل أن نخوض القول فى فنية المتنبى .. ذلك الشئ هو : ماهى المؤثرات التى تأثر بها شاعرنا ، والتى جعلت شعره يكون بتلك الصورة التى استعرضناها فى هذه الدراسة ؟

والحقيقة أن هذه المؤثرات منها ما يتصل بطبيعة الشاعر وحياته ، أو عصره ، أو بيئته ، أو الظروف التى أوجدت النص الشعرى ، ويمكن إجمال ذلك فيما يأتى :

الأمر الأول : أن المتنبى شاعر يمتلك حسا قويا ، ومزاجا حادا ، وشعورا دقيقا، وهو صاحب نفس عنيفة ، وكثيرا ماكان يزخر شعره بالفخر ، والاعتداد بالنفس اعتدادا مفرطا (١) ... ومن الطبيعى أن يندفع الشاعر بحكم هذا كله إلى الغلو والإغراب والمبالغة ، وكان يزداد اندفاعا للغلو ، وتتسع عنده المبالغة كلما ازداد خصومه فى الهجوم عليه وفى الغض من شأنه ، حتى لقد رفع نفسه على كل الناس، وأخذ يعلن ازدراءه بهم ، وحقده الشديد عليهم .

يقول الأستاذ عباس حسن وهو بصدد الحديث عن عيوب المتنبى اللفظية : " لعل مرد الأمر – أى فى هذه العيوب – إلى طبيعته المتمردة ، العنيفة ، الصخابة التى زادتها الأحداث عنفا وصخبا ، وإلى ما فطر عليه من غلظة وقسوة لا يجنحان إلى رقة وعذوبة ، وملاينة فى شعر أو غير شعر . وضح هذا فى حياته الخاصة والعامة، وفى علاقته بأتباعه وسواهم . كما وضح فى شعره ، فجاء فى أغلب نواحيه

---

(١) انظر موقف الشعر من الفن والحياة فى العصر العباسى د. محمد زكى العشماوى ص ٢٣١ وما بعدها دار النهضة العربية ، بيروت ١٩٨١ م

خشنا ، صلبا ، تشيع فيه الجزالة وإن اقتض الأمر الفرار منها ، محروم الرقة وإن فرضها المقام . فإلى طبيعته الصلبة الثائرة يرجع السبب الأول فيما نحن بصدده ، فقد وجدت بينها وبين الصحراء تلاؤما وتشابها فمالت إليها ، وانعقدت بينهما أواصر التآلف والتحالف ، وصح لهذا أن يوصف المتنبى بأنه " بدوى فى خلقه وأدبه " . وإن شئنا زخرفة القول وتجويده قلنا ما قاله السابقون : " إنه كالملك الجبار ، يأخذ ما حوله قهرا وعنوة . أو : كالشجاع الجرئ ، يهجم على ما يريده لا يبالى ما لقى ولا حيث وقع " . وتلك أحسن صفات البدو ، وسكان الصحارى .. " (١) .

الأمر الثانى : أن المتنبى من الشعراء الذين قلدوا شعراء القرن الثالث الهجرى الذين كلفوا وأغرموا بالبديع ، وأمعنوا فيه وعنوا منه بالمبالغة عناية خاصة . وقد بدأ المتنبى مذهبه الفنى وهو فتى ، وأصبح تقليده للقدماء وبخاصة أبى تمام ظاهرا فى شعره كل الظهور ، فأخذ يعتمد على الطباق والمبالغة .

يقول البديعى فى كتابه " الصبح المنبى " (٢) تحت عنوان (إقراره بفضل أبى تمام) " قال الخالديان : كان أبو الطيب المتنبى كثير الرواية جيد النقد . ولقد حكى بعض من كان يحسده أنه كان يضع من الشعراء المحدثين ويغض من البلغاء المفلقين ، وربما قال أنشدونى لأبى تمامكم شيئا حتى أعرف منزلته من الشعر ، فتذاكرنا ليلة فى مجلس سيف الدولة بميًّا فارقين (من أشهر بلاد الموصل) وهو معنا ، فأنشد أحدنا لمولانا أيده الله شعرا له قد ألم فيه بمعنى لأبى تمام استحسنه مولانا أدام الله تأييده فاستجاده واستعاده ..

فقال أبو الطيب : هذا يشبه قول أبى تمام ، وأتى بالبيت المأخوذ منه المعنى ، فقلنا قد سُرِرْنا لأبى تمام إذ عرفتَ شعره ، فقال : أو يجوز للأديب ألا يعرف شعر أبى تمام وهو أَستاذ كل من قال الشعر بعده فقلنا قد قيل إنك تقول كيت وكيت فأنكر ذلك ، ومازال بعد ذلك إذا التقينا ينشدنا بدائع أبى تمام ، وكان يروى جميع شعره " .

---

(١) المتنبى وشوقى وإمارة الشعر ص ٩٢ ، ٩٣ .
(٢) ص ١٤٢ ، ١٤٣ .

ويقول الدكتور طه حسين فى كتابه " تاريخ الأدب العربى " : << إنما هو شاعر مقلد ، ينهج نهج المتقدمين ، ونهج أبى تمام منهم خاصة >> (١) .

وإذا كانت المراجع لم تضع أيدينا على أئمة المتنبى ومن تأثر بهم من الشعراء فإننا نلاحظ أن المتنبى كان حريصا على قراءة ومراجعة دواوين الشعراء بصفة عامة ، وديوانى الطائيين بصفة خاصة ، إذ المعروف أن المتنبى لم ينكر معرفته بهذين الديوانين .

وقد ذكر أبو القاسم عبد الله بن عبد الرحمن الأصفهانى ، صاحب " إيضاح المشكل " أنه قيل للمتنبى : معنى بيتك هذا أخذته من قول الطائى ،فأجاب المتنبى : الشعر جادة، وربما وقع حافر على حافر . وكان المتنبى يحفظ ديوانى الطائيين ويستصحبهما فى أسفاره ويجحدهما ، فلما قتل توزعت دفاتره فوقع ديوان البحترى إلى بعض من درس علىّ وذكر أنه رأى خط المتنبى وتصحيحه فيه " (٢) .

والذى يؤكد ذلك ويقويه أننا حين نستطلع ديوان المتنبى نجد فيه قصائد مدح بها عبد الله وأخاه أبا عبادة ابنى يحيى بن الشاعر البحترى . وقد مدح أولهما بقصيدتين ، مطلع أولهما (٣) :

بكيتُ يا ربع حتى كدْتُ أبكيكا ... وجُدْتُ بى وبدمعى فى مغانيكا

ومطلع الثانية (٤) :

أرِيقُكِ أم ماءُ الغَمامة أم خَمْرُ ... بفِىَّ بَرُودٌ وهو فى كبدى جمر !

أما أخاه فقد مدحه بقصيدة يقول فى أولها (٥) :

ما الشوق مقتنعا منى بذا الكمد ... حتى أكون بلا قلب ولا كبد

---

(١) (العصر العباسى الثانى) ص ١٠٩
(٢) خزانة الأدب للبغدادى : ٢ / ١٣٩ وانظر وفيات الأعيان لابن خلكان . ١ / ٢٤٢ .
(٣) الديوان : ٢ / ٣٧٧ .
(٤) الديوان : ٢ / ١٢٣ .
(٥) الديوان : ١ / ٣٤٩ .

ومن الملاحظ أن المتنبى فى ثنايا هذه القصائد الثلاث لم يذكر البحترى الشاعر (جدّ الممدوحين السابقين) ولم يشر إليه ، ولعل هذا فى الواقع يلائم ما كان معروفا عن المتنبى من الإمعان فى قراءة شعر المحدثين وأدب البلغاء ، والادعاء مع كل ذلك بأنه لا يقرؤهما ولا يحسن العلم بهما ، حتى افتضح أمره فى ذلك [١] .

والحقيقة أننا مادمنا نعلم حرص المتنبى على تلقف العلوم ، ورغبته فى الاطلاع الواسع ، فإنه ليس له من حق أن يجحد ديوانى الطائيين ، أو أن ينكر صلته ومعرفته بهما ، إذ أنهما دون شك من العلوم والمعارف التى نجد صداها فى ديوانه ، ونلمح آثارها فى مناقشاته ، وخصائص شعره تثبت هذا إثباتا قاطعا ، ومذهبه الفنى يظهر فيه كل الظهور تقليده للقدماء ، ولأبى تمام بصفة خاصة .

والمتنبى يمضى فى التكلف ويستجيزه ، ومن يقرأ أشعاره يضع يده على ما فى كل بيت من أبياته من مشقة وعسر ، والشاعر مضطر بحكم هذه المشقة وذلك العسر إلى التكلف ، وهو يرى أنه ليس عليه من هذا بأس ؛ ولعله - وهو الشاعر عنيف النفس - كان يحس من المحيطين به شيئا من الإنكار فتأبى عليه طبيعة نفسه إلا أن يندفع بحكم هذا كله فى الغلو والإسراف ، وإن يغيظ مخاصميه بالإلحاح فيما يكرهون ، فأخذ ينتقل من الضرورة إلى التكلف ومن التكلف إلى التعقيد والصنعة، وأصبح له مذهب شعرى خاص به ، فهو يرى تجاوز المألوف وسيلة من وسائل الأداء الشعرى .

الأمر الثالث : أن المتنبى قد انعقدت بينه وبين علماء اللغة والفلاسفة صلة وثيقة ، فقد حاول أن يرضى أصحاب الغريب من اللغة ، كما يرضى أصحاب الفلسفة والتصوف والتشيع .. ولذلك نجده يحشد فى شعره محصولا كبيرا من ثقافته اللغوية والنحوية ، ولا نشك فى أنه أفاد من ثقافته العقلية الواسعة التى امتزج فيها التصوف والتشيع والفلسفة ، والمعروف أن المتنبى قد درس الفلسفة على الفارابى

---

(١) الصبح المنبى ص ٧٩ ، ٨٠ .

وعلى أبى فضل الكوفى ، كما درس التصوف على الأوارجى .

يقول الدكتور شوقى ضيف : " كان المتنبى مثقفا ثقافة واسعة بكل ما عرف لعصره من معارف وآراء ،وقد اتجه بشعره إلى أن يستوعب أساليب هذه المعارف والآراء ، وأنه يمثل عناصرها المتنوعة حتى ينال إعجاب العلماء والمثقفين لعصره ، وهذا هو كل ما أصابته حرفة الشعر من تطور فى صياغتها عند المتنبى ، فإن القصيدة لن تعد تعبر فقط عن خواطر وجدانية ، بل أصبحت تعبر أيضا عن ثقافة ، حتى تظفر بالنجاح فى بيئات العلماء والمثقفين " (١) .

والحقيقة أن المتنبى إذا لم تكن له قصائد بعينها نحا فيها ناحية الفلسفة ، وأنه لم يكن يعتنق مذهبا فلسفيا بالمعنى الدقيق ، إلا أن صدى الفلسفة قد انتقل إلى خياله الشعرى ، وخرجت أبيات كثيرة له ، مغمورة فى ثنايا قصائده الطوال ، تتشح بالفلسفة ، وتصطبغ بصبغتها فى كثير من الأحيان ، الأمر الذى يجعلنا نجد فى شعره ميلا إلى نزعة التشاؤم ونزعة حب القوة ، ثم المزج بين العقل والقوة ، لذلك رأيناه الوحيد من بين شعراء القرن الرابع الذى قوبلت أبياته فى الفلسفة بكثير من عناية الدارسين والنقاد .

فإذا كان قد تحامل على الأيام فى قوله (٢) :

أذاقنى زمنى بلوى شرقت بها .·. لو ذاقها لبكى ما عاش وانتحبا

فإننا نجده صاحب أمنيات رفيعة القدر ، عظيمة الشأن ، فى قوله (٣) :

إذا غامرت فى شرف مروم .·. فلا تقنع بما دون النجوم
فطعم الموت فى أمر صغير .·. كطعم الموت فى أمر عظيم

---

(١) الفن ومذاهبه فى الشعر العربى ص ٣١١ .
(٢) الديوان : ١/١٢٠ .
(٣) الديوان : ٤/١١٩ .

وقوله (١) :

الـرأى قبـل شجاعـة الشجعـان ... هـو أول وهـى المحـل الثانـى
فـإذا همـا اجتمعـا لنفـس مـرة ... بلغـت مـن العليـاء كـل مكـان

فالمتنبى- وكما هو واضح من أبياته ـ يحمل على الحياة ، ويتشاءم منها ، وفى نفس الوقت يعشقها ، ويطمح فيها كل الطموح غير قانع إلا بعظائم الأمور ، وليس بالأمر الغريب أن تتولد نزعة حب القوة فى نفس شاعرنا من نزعة التشاؤم ، مع ما بين النزعتين من اختلاف ، فنزعة التشاؤم عنده جاءت وليدة السخط والحرمان ، كما جاءت من برمه بالحياة وصروفها .

وإذا ما أراد المرء أن يتخلص من حرمانه فإنه لابد وأن يتمثل مبادئ القوة والعنف ، وأن يجعل القوة لنفسه مذهبا وهدفا . وفى رأيى أن هذا الأمر هو الذى جعل شاعر العربية المتنبى يجمع فى شعره بين مذهبين متباعدين هما مذهب التشاؤم ومذهب القوة ، وهو السبب نفسه الذى جعله يؤمن بالقوة إيمانا قويا وعميقا ، غير آبه بالنتائج ولو كانت الموت ، وهو لذلك لا يرضى إلا بكل جليل من الآمال ، ويحمل بكل قوة وعنف على كل قانع خامل .

والحقيقة أن النقاد من قدامى ومحدثين قد أولوا شعر المتنبى الفلسفى جانبا كبيرا من اهتمامهم ، وكادوا يجمعون على أنه كان فيلسوفا ، ولم يشذ عن هذا الرأى من كان على خصومة شديدة معه .

فهذا هو الحاتمى(٢) المعروف فى بادئ أمره بالعداوة للمتنبى ، يؤلف رسالة فى فلسفته ومنطقه ، ويحاول أن يفتح ثغرة ينفذ منها إلى إيجاد مكانة رحبة يضع فيها المتنبى شاعرا فيلسوفا ، له ما للفلاسفة من نظريات ومبادئ ، وقد أورد أبياتا كثيرة له وحاول أن يرد كل بيت إلى أصله من حكم أرسطو(٣) . وهو وإن لم يوفق توفيقا

(١) الديوان ١٧٤/٤ .
(٢) أبو على محمد بن الحسن .
(٣) انظر الرسالة الحاتمية (ضمن مجموعة التحفة البهية والطرفة الشهية) مطبعة الجوائب بقسطنطينية عام ١٣٠٢هـ ص ١٤٤ ، ١٤٥ .

كاملا فى كل ما أراد إثباته للمتنبى ، إلا أنه قد أثبت بشكل أو بآخر أن المتنبى ثقف ثقافة فلسفية رفيعة .

وأما القاضى أبو الحسن على بن عبد العزيز الجرجانى ، والذى شهد المعارك الأدبية العنيفة التى كانت بين المتنبى وخصومه ، فقد ألف كتاب " الوساطة بين المتنبى وخصومه " وعلى كثرة المادة الشعرية والنصوص التى حفل بها كتاب الوساطة، وعلى كثرة ما أجرى على شعر المتنبى من دراسات نقدية ، فإننا نجده لم يمنح الجانب الفلسفى من شعر المتنبى عناية تذكر ، وهو وإن اهتم بدراسة الأبيات وتحليلها ، إلا أنه لم يبد اهتماما للأبيات التى اهتم بها من نسب المتنبى إلى الفلسفة، ولم يحاول ردها إلى أصولها الفلسفية .

يقول عن فلسفة المتنبى فى شعره :
" .... وإنما دللناك على منهاجه ، وأريناك بابه ، وقد قدمنا ما استرذلنا من شعره ، وإنما تجد له المعنى الذى لم يسبقه الشعراء إليه إذا دقق ، فخرج عن رسم الشعر إلى طريق الفلسفة ... " (١) .

وإذا تركنا النقاد القدامى إلى المحدثين فإننا نجدهم ليسوا أقل اهتماما وعناية بالمتنبى وفلسفته من سابقيهم ، ونحن إذا أمعنا النظر فى آرائهم وجدنا كثرتهم تذهب إلى أن تلك الحكم المتفرقة والأفكار المجتلبة لا تكاد تنهض دليلا على فلسفة الشاعر، وهى غير كافية لوضعه فى سلك الفلاسفة(٢) .

وينفرد العقاد من بين النقاد المحدثين باهتمامه الكبير بالاتجاهات الفلسفية فى شعر المتنبى على ضوء النظريات الفلسفية المعروفة ، وقد عقد دراسة طويلة لفلسفته، خص فصلا قصيرا منها للعلاقة بين أبى الطيب الشاعر العربى القديم

---

(١) الوساطة بين المتنبى وخصومه ص ١٨١ ، ١٨٢ .

(٢) انظر : أبو الطيب المتنبى حياته وخلقه وشعره وأسلوبه ، للأستاذ محمد كمال حلمى ،
وانظر : مع المتنبى ، للدكتور طه حسين ، وفيلسوف العرب والمعلم الثانى للشيخ مصطفى عبد الرازق . والفن ومذاهبه فى الشعر العربى للدكتور شوقى ضيف .

ونيتشه الفيلسوف الألمانى الحديث ، وحاول فى هذا الفصل أن يوجد رابطة بين المتنبى ونيتشه فى حب القوة (١) .

والعقاد يربط بين المبادئ التى نادى بها المتنبى وتلك التى ذكرها نيتشه ، فهو يتأمل أبيات المتنبى (٢) :

وما قتل الأحرار كالعفو عنهم ∴ ومن لك بالحر الذى يحفظ اليدا
إذا أنت أكرمت الكريم ملكته ∴ وإن أنت أكرمت اللئيم تمردا
ووضع الندى فى موضع السيف بالعلا ∴ مضرٌ كوضع السيف فى موضع الندى

ويخرج منها بنتيجة مفادها أن الناس ليسوا صنفا واحدا ، ومن ثم فينبغى أن يعامل كل صنف منهم بما يستحق أن يعامل به ، فالحر الكريم له معاملة خاصة ، واللئيم من الناس له معاملة خاصة أيضا ، وهذا ما ذهب إليه نيتشه تماما(٣) .

ويمضى العقاد فى دراسته هذه مقررا أن المتنبى دعا إلى القوة فى ألوانها المختلفة ومظاهرها الكثيرة ، ويستعرض بعض أبياته كقوله :

إذا غامرت فى شرف مروم ...

ليقرفى النهاية أن هذه المبادئ هى بعينها التى نادى بها نيتشه ، فهما يتفقان فى مبادئهما واعتقاداتهما إلى حد كبير (٤).

وأيا ما كان الأمر فنحن لا نستطيع ـ أمام اختلاف النقاد القدامى والمحدثين ـ أن نجرد شاعر العربية المتنبى من جميع المعانى الفلسفية تجريدا تاما ، وديوانه يشهد أنه قد تثقف ثقافة فلسفية ، وأنه نقل بعض آراء الفلاسفة ونثرها فى قصائده ورصع

(١) انظر مطالعات فى الكتب والحياة ص ١٤٥ـ ١٦٢ .
(٢) الديوان : ١ / ٢٨٨ ، ٢٩٢ .
(٣) انظر مطالعات فى الكتب والحياة ص ١٦٠ ـ ١٦٢ .
(٤) المصدر السابق ص ١٥٧ .

بها أبياته . على أننا فى الوقت نفسه نقول إنه قد اجتلب تلك الآراء الفلسفية من الكتب التى قرأها ، أو من رفيقه فى بلاط سيف الدولة أبى نصر الفارابى ، وفوق ذلك كله فهو صاحب فضل كبير فى تهجين الشعر العربى بالأفكار الفلسفية .

الأمر الرابع : أن المتنبى كما قال الدكتور طه حسين :" قد نشأ فى غير مدرسة ، وتعلم على غير معلم ، ولم يأخذ ثقافته وأدبه عن الأساتذة والنقاد ، وإنما أخذها عن الكتب والصحف ، وكان ينشد الجهال وأشباه الجهال ، فيسمع منهم إعجابا كثيرا مصدره الجهل ، ويأخذ منهم مالا قليلا مصدره البخل ، فيشتد إعجابه بنفسه لما يسمع من الثناء وما يرى من الإعجاب ، ويشتد حنقه على الناس لما يرى من البخل وما يقاسى من الحرمان " (١).

واقرأ معى هذه الأبيات التى قالها المتنبى يصور فيها ما بقى فى نفسه من حقد وحفيظة وغيظ لم يخمد(٢) :

أذاقنى زمنى بلوى شرقْتُ بها ∴ لو ذاقها لبكى ما عاشَ وانتحبا
وإن عَمرتُ جعلت الحرب والدة ∴ والسَّمْهَرِىَّ أخا والمشرفى أبا
بكل أشعثَ يلقى الموت مبتسما ∴ حتى كأن له فى قتله أرَبا
قحٌّ يكاد صهيل الخيل يقذفُهُ ∴ عن سَرْجه مَرَحا بالعز أو طربا
فالموت أعذر لى والصبر أجمل بى ∴ والبَرُّ أوسع والدنيا لمن غلبا

ومن هذا الشعر أيضا أبياته التى يصور فيها رأيه فى الزمان والناس ،وسخطه على الحياة والأحياء ، يقول (٣) :

فؤاد ما تسلّيه المُدامُ ∴ وعُمْرٌ مثل ما تهب اللئام
ودهرٌ ناسُهُ ناسٌ صغارٌ ∴ وإن كانت لهم جثث ضِخام

---

(١) مع المتنبى ص ١١٤،١١٣ . دار المعارف ط ١١ .
(٢) الديوان : ١٢١،١٢٠/١ .
(٣) الديوان : ٦٩/٤ - ٧٢ .

وما أنا منهم بالعيش فيهم ∴ ولكن معدن الذهب الرغام
أرانبُ غير أنهم ملوك ∴ مفتحةٌ عيونُهمُ نيام
بأجسام يحرّ القتل فيها ∴ وما أقرانها إلا الطعام
وخيلٍ لا يخر لها طعين ∴ كأن قنا فوارسها ثُمام
خليلك أنت لا من قلت خلّى ∴ وإن كثر التجمل والكلام
ولو حيزَ الحفاظ بغير عقل ∴ تجنب عُنْق صيقله الحُسامُ
وشِبْهُ الشئ منجذب إليه ∴ وأشبهُنا بدنيانا الطَّغام
ولو لم يَعْلُ إلا ذو محلّ ∴ تعالى الجيش وانحط القتامُ

الأمر الخامس : أن المتنبى قد خاض فى مواقف صعبة ، وكثيرا ما كان يسلك طرقا غير مألوفة حينما يريد أن يبز أقرانه ويفوق سواه ، وقد أرغمته الحياة على ركوب المركب الصعب (١) ، فركبه الغرور منذ نشأته ، ولم يتخل عن كل مظاهر العظمة ولو كان ذلك بين أيادى ممدوحيه ، يضاف إلى ذلك أنه لا يمكنه أن ينسى نفسه أو يخفى شخصيته (٢) ، ومعنى ذلك أن الشاعر يستوحى نفسه ويسجل ذاته ، ويصور عصره وأحداثه وظروف البيئة التى عاشها ، كما يصور أحواله المتقلبة منذ نشأته ، وما منى به من فشل فى مستهل أمره .

وقد وهب الله المتنبى نفسا طموحة ، وروحا ثائرة ، وشعورا وقادا ، وأحاسيس متأججة ، ولما كان طمعه لا حدود له ، وطموحه إلى الكمال لا يقف عند حد ، نجده يطبع بطابع العنف ، وكان شاعرا عبقريا فى عالم المعارك التى ساهم فيها بسيفه وقلمه ورمحه وكل ما أوتى من قوة ، ومع أن حياته زاخرة بكل ما يجلب عليه الحسد والبغض والعداء من الآخرين وذلك شأن كل عبقرى عظيم إلا أن كل هذا لم يثنه عن عزمه .

---

(١) انظر حصاد الهشيم للمازنى ص ١٢٨ .
(٢) انظر الهلال العدد الخاص بالمتنبى (أول أغسطس عام ١٩٣٥ م) ص ١١٢٢ ، ١١٢٦ .

أما عن العوامل التى شكلت نفسيته ، وطبعته بطابع العنف ، وجعلت منه شاعرا قويا فهى [١] :

١- وفاة والديه فى صباه وحرمانه من حنانهما .
٢- نشأته فى الكوفة نشأة فقيرة .
٣- سجنه ظلما مما صبغ شعره باللون القانى من العنف والقوة .
٤- عصره عصر حروب وفتن وخلافات .

أما أسباب طموحه وتعاليه فهى [٢] :

١- عبقرية المتنبى ونبوغه وبروزه فى عالم الشعر .
٢- قوة عزيمته .
٣- تعصبه للعرب ضد الأعاجم الذين صار أمر أمة العروبة والإسلام بأيديهم .
٤- قربه من حاكم عربى خالص النسب واعتباره الشاعر الخاص له .
٥- شجاعة المتنبى ليست نظرية وإنما هى مستمدة من الوقائع والحروب .

هذا هو المتنبى الذى كان فى حياته الأولى شقيا بالأمل والطموح ، وكان شقيا أيضا فى تشوقه الزائد إلى عظائم الأمور وجلائل الأعمال . أما فى حياته الثانية فقد أصيب بشقاء آخر ، ذلك هو شقاء اليأس ، فقد كان يؤثر العافية ومايكاد يظفر بها ، ويبتغى الراحة وما يكاد ينتهى إليها ، وبينما كان فى حياته الأولى شديد الثقة بنفسه ، عظيم الإيمان بعزمه ، إذا بنا نراه فى حياته الثانية شاكا فى نفسه أشد الشك، قانطا من عزمه أشنع القنوط ، نادما على ماضيه الذى جحده ، ملتاعا فى مستقبله الذى يئس منه ، متضررا من حاضره الذى ضاق به أشد الضيق . ومن هنا دب إلى شعره كثير من الفساد ، وظهر فيه تكلف يمقته الذوق العربى الصريح ، ولا نجده حتى عند شاعر العربية أبى تمام الذى يعد أشد شعراء العربية تكلفا .

---

(١) انظرها فى الحرب فى شعر المتنبى د. محمود حسن أبو ناجى : ٤٢٩/١ دار الشروق جدة ط أ ١٣٩٨ هـ ١٩٧٨ م .
(٢) انظرها فى المصدر السابق : ١ / ٤٤٣ .

الفصل الثالث
الإغـراب فى اللفـظ

تمهيد :

ألفاظ الشاعر وما تحويه هذه الألفاظ من دلالات مختلفة هى على رأس الدلائل التى تجعل للشاعر عالما خاصا يختلف قليلا أو كثيرا عن عوالم الشعراء الآخرين ، وهى كذلك اللبنة الأولى فى التعبير عن أفكاره ، وعليها يتوقف جانب كبير من سلامة نظمه وتحقيقه لهدفه .

ومجموعة الألفاظ التى تتألف منها لغة شاعر ما خاضعة لإحساسه العاطفى وإدراكه الوجدانى ، فأى شاعر حين تخطر له فكرة ما من خلال تجاربه وإحساساته ، فإنها لا تخطر له مجردة من وعائها اللفظى- أى الألفاظ التى تعبر عن هذه الفكرة - فكأن الشاعر لاتواتيه الفكرة أولا ثم يعد لها قالبا من الألفاظ المناسبة يفرغها فيه ، بل تجول الفكرة فى نفسه حية فى وعائها التعبيرى . ولذلك يمكننا أن نقول إن كل شاعر له سمات خاصة فى لغته التى يستخدمها ، لا لأنها تتكون من ألفاظ بعينها ، ولا لأن الشاعر يتبع فى تلاؤم هذه الألفاظ مع بعضها طريقة خاصة ، بل لأنها خضعت لتجارب فى نفسه وكانت صدى لإحساسه العاطفى .

والمختار من الألفاظ هو ماكان سهلا جزلا لا يشوبه شئ من كلام العامة ، واللفظ الفصيح هو الذى تحققت فيه أوصاف معينة ، وعلى قدر توفر تلك الأوصاف يأخذ اللفظ قسطه من الحسن أو القبح ، وتوفر هذه الأوصاف يؤدى أيضا إلى الإصابة فى المعانى ، وإلى جودة فى التفكير ،وبراعة فى النظم والتعبير (١) .

أما الألفاظ الغريبة فهى التى مات استعمالها ، وغدت من الوحشى الغريب الذى يحتاج فى معرفته إلى أن يبحث عنه فى كتب اللغة والمعاجم ، وقد أصبحت كتب البلاغة تعجّ بشواهد كثيرة لعيوب فى الألفاظ اتفق العلماء على خروجها عن منهج الفصاحة ، وشروط القبول والاستحسان .

---

(١) انظر : أصول النقد الأدبى ، تأليف الأستاذ أحمد الشايب ص ٢٤٧ . طبع ونشر مكتبة النهضة المصرية ، الطبعة الثامنة ١٩٧٣ م .

وعلى الشاعر أن يتجنب جميع ما يكسب ألفاظه الغرابة ، فيتجنب اللفظ الوحشى البدوى ، والسوقى المبتذل ، وكذلك ما خالف فيه وجه الاستعمال ؛ لأنه لا مجال لمثل هذه الألفاظ . فالقارئ يحار معها فى فهم المعنى المراد ، ويحتاج إلى ما يوقفه عليه ليعرف المعنى المقصود من خلال هذا الإغراب .

ولا يخفى كذلك أنه إذا كانت ألفاظ شاعر ما تميل إلى الإغراب كانت الأفكار المرتبطة بها أكثر غرابة ، ومن ثم أكثر غموضا فى فهم مراد الشاعر على وجه التحديد من معانيه وأفكاره ، ومن ثم ينبغى أن تصدر ألفاظ الشاعر فصيحة ، وأن تكون مرتبطة بمفاهيم واضحة ومحددة فى ذهنه ، فتحديد الألفاظ وفصاحتها يتبعه تحديد الفكرة أو الأفكار ووضوحها فى ذهن القارئ أو الشاعر .

والشاعر المقتدر هو الذى يحسن استخدام ألفاظ اللغة ، وهو الذى يسيطر على أفكاره ويجيد التعبير عنها ، وهو الذى يضع الكلمة المناسبة فى المكان المناسب ، فيقسم الألفاظ على رتب المعانى ، وهو الذى تكون ألفاظه صدى لما فى نفسه ، فإذا كانت نفسه ثائرة هائجة وجب عليه اختيار ألفاظ فخمة جزلة ، كى تستطيع أن تترجم عن أعمق مشاعره ، وتصورها أقرب ما تكون إلى الحقيقة . وإن كانت نفسه هادئة وجب تخير اللفظ الرقيق حتى يبلغ الشاعر هدفه من الشعر وهو التأثير فى القارئ ، فاللفظ الجزل إذا وضع فى غير موضعه اللائق به استحال جافا ، واستحالت الجزالة المستحسنة عيبا بغيضا ، وكذلك اللفظ الرقيق .. ولذلك يمكننا أن نقول ببطلان تلك الدعوى التى تقول بأن هناك ألفاظا يمكن أن نسميها ألفاظا شعرية ، وأخرى غير شعرية ؛ لأن كل لفظ مهما تكن دلالته ومهما كان جرسه يمكن أن يكون شعريا إذا عبر عن نفس الشاعر وعن إحساسه ، وإذا تفاعل مع غيره من الألفاظ ، وكان كفيلا بنقل تجربة الشاعر بكل ما فيها من إحساس وإدراك .

وكان المتنبى من الشعراء المحدثين، وقد جرى على رسومهم فى اختيار الألفاظ المألوفة ، وربما قد انفصل عنهم فى أنه قد تعاطى الغريب الوحشى من الألفاظ ، وله قصائد تمتلئ بالشاذ البدوى ، وظل لم ينزه ألفاظه عما يستشنع ذكره حتى انحط عن الشعراء بالركاكة والسفسفة،ووقع فى شعره ما وقع من ألفاظ العامة والسوقة ومعانيهم .

وكان يصنع شعره كما يقول العكبرى (١) للفضلاء من العلماء والأدباء والمثقفين ، ومع أنه من المحدثين ، وقد جرى على رسم العصريين فى اختيار الألفاظ المعتادة المألوفة بينهم ، إلا أننا نراه يحاول أن يحدث فى شعره غرابة ، وأن يتعاطى الغريب الوحشى والشاذ البدوى من الألفاظ ، وكان يجمع بين البديع النادر والضعيف الساقط لدرجة جعلت قدامى اللغويين والأدباء والنحاة يجدون فى شعره بغيتهم من الأمثلة والشواهد المعيبة .

يقول الثعالبى (٢) وهو بصدد الحديث عن معائب شعر المتنبى ومقابحه : " ومنها اتباع الفقرة الغراء بالكلمة العوراء والإفصاح بذلك فى شعره عن كثرة التفاوت، وقلة التناسب ، وتنافر الأطراف ، وتخالف الأبيات ، وما أكثر ما يحوم حول هذه الطريقة ، ويعود لهذه العادة السيئة ، ويجمع بين البديع النادر والضعيف الساقط . فبينا هو يصوغ أفخر حلى ، وينظم أحسن عقد ، وينسج أنفس وشى ، ويختال فى حديقة ورد ، إذا به وقد رمى بالبيت والبيتين فى إبعاد الاستعارة ، أو تعويص اللفظ ، أو تعقيد المعنى ، إلى المبالغة فى التكلف ، والزيادة فى التعمق ، والخروج إلى الإفراط والإحالة والسفسفة ، والركاكة والتبرد والتوحش ، باستعمال الكلمات الشاذة ، فمحا تلك المحاسن وكدر صفوها ، وأعقب حلاوتها مرارة لامساغ لها ، واستهدف لسهام العائبين ، وتحكك بألسنة الطائعين .

وإنه لأمر عجيب أن تكون ألفاظ المتنبى على هذه الشاكلة مع ما نال من شهرة وما عرف عنه من تجويد وحرص على استصفاء شعره ، والأشد غرابة أن المتنبى كان يأتى بهذه الألفاظ الغريبة لا عن جهل كان عنده ، ولا قصور عن اختيار اللفظ الفصيح ، ولكنه كان يحاول جهده أن يظهر تفوقا لغويا فى شعره ، وأن يرضى به أصحاب الغريب من اللغة وينال إعجابهم ، وكأنه يلفتنا إلى شئ مهم وهو أنه قادر على تحقيق تفوق لغوى فى أوساط اللغويين من أصحاب الغريب .

---

(١) انظر شرحه لديوان المتنبى : ٢ / ٢١ .

(٢) يتيمة الدهر تحقيق محمد محيى الدين : ١ / ١٤٨ دار الفكر بيروت .

قال الصاحب : ومن أطمّ ما يتعاطاه : التفاصح بالألفاظ النافرة ، والكلمات الشاذة حتى كأنه وليد خِباء وغذّى لبن ،ولم يطأ الحضَر ،ولم يعرف المدَر " (١) .

صور الإغراب فى اللفظ عند المتنبى :

والمتنبى كان يطلب الإغراب فى اللفظ ويحققه لنفسه فى صور مختلفة:

إغرام المتنبى بالشذوذ النحوى :

فمرة نراه – وهو عالم بالنحو ومشاكله ، وكان كوفى المذهب (٢) – يأتى بالغريب قاصدا عامدا ، وكان يكثر منه فى شعره لا لشئ إلا ليروع علماء اللغة والغريب ، وليظهر علما وفضلا بينهم .

ويكاد يكون المتنبى هو الشاعر العباسى الوحيد الذى تعمق دراسة النحو ، وأغرم بالشذوذ النحوى وتصنعه فى شعره ، فليس بين شعراء عصره شاعر أغرم بالمذاهب النحوية ، أو كلف نفسه الوقوف عليها ومعرفة مشاكلها ، ولئن كان بينهم من درس النحو ووقف على مذاهبه ومشاكله ، فإنه لا يعمد إلى الطرافة النحوية ، ولا يجعل شعره مستودعا للتراكيب النحوية الشاذة كما هو الحال عند المتنبى ؛ وتعليل ذلك ما ذكرناه قبل من أنه كان يود أن يستحوذ على إعجاب اللغويين من حوله ، ولذلك انتدب العلماء لديوانه وشرحوه شروحا كثيرة ، بل إنه لم يسمع بديوان شعر فى الجاهلية ولا فى الإسلام شرح هكذا مثل هذه الشروح الكثيرة سوى هذا الديوان(٣) . ولعله من أجل ذلك كان يعجب برؤبة والعجاج وأبى النجم وأضرابهم ، وكانوا معروفين بالإفراط فى الغريب والإكثار منه ، وقد صاغ الأراجيز يحاكيهم بها فحشد الغريب فيها حشدا .

---

(١) الصبح المنبى عن حيثية المتنبى ليوسف البديعى تحقيق مصطفى السقا ومحمد شتا وعبده زيادة : ٣٦٩ دار المعارف الطبعة الثانية . وانظر كذك الإبانة عن سرقات المتنبى للعميدى شرح إبراهيم الدسوقى البساطى ص ٢٥٤ دار المعارف الطبعة الثانية .

(٢) الفن ومذاهبه فى الشعر العربى د. شوقى ضيف : ٣٣٦ .

(٣) انظر الصبح المنبى للبديعى : ٢٦٨ . ٢٦٩ .

يقول الدكتور شوقى ضيف : " ولم يقف - أى المتنبى - عند هذا الجانب ، بل طلب الشواذ فى الحروف وبناء الأسماء وكأنه لم يترك لغة شاذة فى حرف أو اسم إلا جلبها فى شعره . وقد يكون من الطريف أن نتعقبه فى شوارده اللغوية . فمن ذلك استعماله للكَيْذَبان بدلا من الكذاب ، والتَّوْراب بدلا من التراب ، ومن ذلك أن يجمع كوبا على أكؤب ، وبوقا على بوقات ، ودار على أدؤر ، وأرضا على أروض ، وعينا على أعيان ، وأخا على إخاء ، ومن ذلك أن يأتى بربُتَما بدلا من ربما ، وأيما بدلا من إما ، وأولاك بدلا من أولئك ، واللذ بدلا من الذى ، وهنَّك بدلا من إنك ، وهلمَّنَّا بدلا من هلموا ، إلى غير ذلك من لغات شاذة (١) .

والحقيقة أن كل شاعر ينبغى أن يعمد فى تعبيره عن المعانى التى أوردها إلى الألفاظ الصحيحة المتخيرة ، فلا تكون فى قصيدته - وإن طالت - ألفاظ غير صحيحة ولا سليمة فى اشتقاقها وبنائها الصرفى ، ولا نجد فى شعره أيضا ألفاظا نابية أو مبتذلة أو مستكرهة ، وهذا كله يدل على ثروة لغوية أفادها الشاعر من ثقافته اللغوية وقراءاته الأدبية ، وقد ساعده ذلك على انتقاء الألفاظ الصحيحة وتخيرها حتى تعبر بجلاء عما يريد .. وثمة ظاهرة نفتقدها الآن فى كثير من شعر شعرائنا المحدثين ، فنحن نلحظ لين العبارة أو الهبوط بها إلى ما دون مستوى اللغة الأدبية التى ينبغى دائما أن تحتفظ بمستواها الرفيع الذى يسمو بها إلى ما فوق لغة التخاطب بين عامة أصحاب اللغة .

ومن لغات المتنبى الشاذة وكلماته النادرة قوله (٢) :

كُلُّ آخائِهِ كِرامُ بنى الدُّنْـيا ولكنّه كريمُ الكرام

كما يجمع شمسا على شموس فيقول (٣) :

ولو غيرُ الأميرِ غَزَا كِلابا .. ثَنَاهُ عن شُمُوسِهِمُ ضَبابُ

---

(١) الفن ومذاهبه فى الشعر العربى ص ٣٣٦ .

(٢) ديوان المتنبى شرح العكبرى : ٣ / ٣٧٨ .

(٣) الديوان : ١ / ٨٣ .

وقد اختلف شراح المتنبى فى تفسير دلالة الشمس والضباب هنا . فبعضهم يرى أنه كنى بالشموس هنا عن نساء كلب وبالضباب عن الدفع عنهن . لأن الضباب يستر الشمس ويحول عن النظر إليها ، وبعضهم قال : " الشموس تعنى حقائق أنفس كلاب والضباب المقصود به الطعان والضراب ،وقد تعنى الشموس سادات كلاب والضباب الرعاع ، وقد يراد بالشموس شموس كل يوم " (١) .

وهذه الحيرة فى فهم المعنى المراد تدل على أن الشاعر استخدم ألفاظه استخداما عابرا ذا دلالات عامة لا تعين على فهم المقصود على وجه التحديد .. والحقيقة أنه لا مجال إطلاقا للألفاظ المشتركة ذات الدلالات العامة التى تدل على أكثر من معنى، لأن القارئ - وكما سبق أن قلنا - يحار معها فى فهم المعنى المراد ، ويحتاج إلى ما يوقفه عليه .

ومن ذلك قوله (٢) :

أيـنَ البطاريـقُ والحَلفُ الـذى حلفُـوا .·. بمفرقِ الملْكِ والزّعْمُ الـذى زعَموا (٣)

يعقب أبو هلال العسكرى على هذا البيت فيقول : " هذا قبيح جدا ، وإنما سمع قول العامة حلف برأسه ، فأراد أن يقول مثله فلم يستو له ، فقال : بمفرق الرأس فجاء فى غاية الهجنة ولو جاز هذا لجاز أن يقول : حلف بيافوخ أبيه وبقمحدوة سيده "(٤).

وهذا النوع من الإغراب يقع كثيرا فى شعر المتنبى ، وقد لا نعيب على شاعرنا إتيانه بمثل هذه الأمور، فالثقاة من العلماء قد عدوا بعض هذه من الضرورات الشعرية

---

(١) انظر الديوان : ١ / ٨٣ وانظر كذلك ابن جنى فى : الفتح الوهبى على مشكلات المتنبى ، تحقيق محسن غياض ص ٣٧ مطبعة الجمهورية بغداد ١٩٧٣ م . وابن سيده فى شرح مشكل شعر المتنبى تحقيق محمد رضوان الدايه ص ٢٣٩ والواحدى فى شرح ديوان أبى الطيب المتنبى ص ٥٤٧ طبعة برلين ١٨٦١ م .

(٢) الديوان : ٤ / ١٦ .

(٣) البطاريق : جمع بطريق وهو القائد من الروم .

(٤) الصناعتين تحقيق البجاوى وأبى الفضل ص ١٥٥ دار الفكر العربى الطبعة الثانية .

المباحة ، وقد صوبوا بعضها ، والبعض الآخر لم يخرج عن كونه رأيا كوفيا جرى فيه المتنبى على مذهبه الكوفى ، كما جرى مع أصله الكوفى فى ذلك ، وليس بمستساغ أن نعيب المذهب الكوفى وإن كنا لا نعفى المتنبى من تبعات هذا الإغراب ومن الحكم بأنه أساء إلى لغته : فلعل السبب الأساسى فى وضوح التفكير ومن ثم التعبير عنه أن يتحرى الشاعر الدقة فى كل ما يستخدم من ألفاظ ، وألا يستخدم إلا الألفاظ العربية فى أصولها ، الصحيحة فى بنائها الصرفى واشتقاقها . فالمعانى وإن كانت كامنة فى نفس المعبر عنها إنما يقوى على إبرازها وإبانتها من توفر حظه من الألفاظ، ومن كان قادرا على تحرى اللفظة الصحيحة وعلى التصرف فيها ، واستعمالها فى محلها ، ووضعها فى موضعها اللائق بها .

عدم الدقة فى اختيار الألفاظ :

ومرة نرى الإغراب فى شعره نتيجة لعدم ملاءمة الكلمة لجاراتها وللموضوع الذى تعرض فيه ، فاللفظ الدقيق هو الذى يمثل المعنى الذى يقصده الشاعر ويصوره أروع تصوير دون زيادة ولا نقصان .

وعدم دقة الألفاظ عند المتنبى يرجع إلى سبب أساسى وهو العجز عن وضع الكلمة المناسبة فى المكان المناسب ، وتوفر الدقة فى اللفظ إنما يتحقق بتلافى هذا العيب بمعنى أن يكون الكلام مطابقا للحال كى يتوصل بذلك إلى فهم الخطاب وإنشاء الجواب ، والشاعر الحاذق هو الذى لا نجد فى شعره لفظا نابيا ، وهذا يدل على ثروة لغوية أفادها من قراءاته الأدبية وثقافته اللغوية ، وقد ساعد ذلك بلا شك على انتقاء ألفاظه وتخيرها حتى تعبر بجلاء عما يريد .

وقد عرفنا قيمة هذا التركيب فى دراستنا للبلاغة ، وعرفنا أن هذه القيمة إنما تكمن فى نوع التأثير الوجدانى الذى يتميز به التركيب ، وهذا واحد من الأمور الرئيسية التى يقف أمامها الناقد الأدبى حين يدرس النص الأدبى ، فعمود البلاغة هو وضع كل نوع من الألفاظ فى موضعه الأشكل به المناسب له ، الذى إذا أبدل مكانه غيره جاء منه إما تبدل المعنى الذى يكون منه فساد الكلام ، وإما ذهاب الرونق الذى يكون معه سقوط البلاغة .

وهذا كله يعنى أنه ينبغى أن تكون للكلمة فى شعر الشاعر خصوصية ، فتستعمل ألفاظ المدح للمدح ، والغزل للغزل وما إلى ذلك .. وهذا يقتضى أن تكون ألفاظ موضوع الحرب والتهديد ألفاظا جزلة ، وألفاظ الغزل ألفاظا رقيقة وهكذا .

وألفاظ المتنبى من هذه الناحية لا تتسم بالخصوصية ، فهى فى الغالب لا تتلاءم مع الموضوع الذى تعرض فيه ، فهو يأتى فى المواطن كلها باللفظ الجزل سواء أكان مناسبا فى مكانه أم غير مناسب ، لا فرق عنده بين مدح وعتاب ، وحرب ونسيب ، وحنين وهجاء واستبطاء وغير ذلك . وعندى أن لأسلوب حياة المتنبى وجفاء طبعه صلة بذلك .

استمع إليه يقول فى المدح (١) :

فـتىً فـاتتِ العَدْوَى مـن الناس عَيْنَهُ .٠. فمـا أرْمَـدَتْ أجفانَـهُ كـثرةُ الرُّمْـدِ

فهو يمدحه بأنه بصير فى الوقت الذى أصاب الناسَ العمى ، وماأصاب عيون الناس لم يكن لينتقل على سبيل العدوى إلى عينه ، وهذا الاختيار غير موفق ، فما مسوغ ذكر لفظة العدوى فى مقام مثل مقام المدح ؟!

ومثل ذلك قوله مادحا (٢) :

وَمَـنْ تـوهَّمْـتُ أنّ البـحرَ راحتُـهُ .٠. جُـوداً ، وأن عطـايـاهُ جـواهـرُهُ

إذ كيف يحسن بالشاعر فى مقام المدح أن يقول مثل لفظة " توهمت " ؟ أليس يعلم - وهو عالم بالنحو - أن هذه الكلمة لم تجر فى الاستعمال إلا مجرى الشك غالبا أو ما هو أضعف منه .

وإن القارئ للبيت إذا تأمل هذه الكلمة حكم بنفسه على الشاعر بأنه قد أساء

---

(١) الديوان : ٢ / ٦٦ .
(٢) الديوان : ٢ / ١٢٢ .

اختيارها ، وأنه بذلك قد أضعف المعنى الذى قصده .

ومن ذلك قوله فى رثاء أخت سيف الدولة [١] :

كـأنّ فَعْـلَةَ لـم تمـلأ مواكبُهـا .·. ديـارَ بكـرٍ ولـم تخلَعْ ولـم تَهَـبِ
يعلَمْنَ حينَ تُحيِّـى حُسنَ مَبسمِـها .·. وليـس يعلـمُ إلا اللـهُ بالشَّنب [٢]

ونحن إن وقفنا عند كلمة (فَعْلَة) التى كنى بها عن خولة أخت سيف الدولة وتأملناها وجدنا أنها قد أضافت قبحا إلى البيت وهذا القبح قد أفسد الرثاء أيما إفساد .

ولو تأملنا كذلك كلمتى (مبسم ، وشنب) أدركنا أن الشاعر لم يوفق أى توفيق فى اختيارهما ؛ إذ لا يصح بأى حال من الأحوال التعرض لحسن الفم والأسنان فى موطن الرثاء عامة ، فكيف الحال إذا كان الرثاء لأميرة ؟ .

ومن أمثلة ذلك قوله متغزلا [٣] :

لـولا ظِبـاءُ عَـدِىّ مـا شَقِيتُ بِهِـمْ .·. ولا بِـرَ بْـرَبِـهِـمْ لـولا جـآذِرُهُ

فليس بمستحسن أيضا فى مقام التحدث عن الحبيب أن يقال إنه سبب الويل والشقاء لمن يحبه .

ومن ذلك قوله فى مقام العتاب لسيف الدولة [٤] :

أهـذا جـزاءُ الصـدْق إن كنـتُ صادقـاً .·. أهـذا جـزاءُ الكِـذْب إنْ كُنت كاذبـا

---

(١) الديوان : ١ / ٨٨ ، ٨٩ .
(٢) المبسم : الفم ، والشنب : حدة فى الأسنان .
(٣) الديوان ٢ / ١١٥ .
(٤) الديوان : ١ / ٧١ .

فليس بمستساغ ولا بمستحسن أن يصرح فى مقام العتاب بالكذب ؛ لأن مثل هذا عيب ولا يصح التصريح به .

وقد تكون الغرابة فى اللفظ نظرا لأنه ليس جميل الجرس على الآذان ، فالنفس تنفر منه ، وتشمئز عند سماعه أو قراءته . وذلك مثل قول المتنبى حين أنفذ إليه سيف الدولة كتابا وطلب منه المسير إليه (١) :

مُبـــاركُ الاســـمِ ، أغـــرُّ اللَّقَـــبْ .·. كريـــمُ الجِرِشَّى ، شريـفُ النَّسَبْ (٢)

فكلمة " الجرشى " هنا ذات صوت تمجه الأذن ، وينفر منه الحس والذوق . وأنت إذا أمعنت النظر فى شعر المتنبى وجدت هذا الأمر ليس قصرا على أبياته الشعرية ولكنه يتناول قصائد كاملة له ، فقصيدته التى مدح فيها أخاه أبا سهل سعيد بن عبد الله تكاد تكون نموذجا للقصائد التى جمع فيها المتنبى بين الغث والسمين من الألفاظ .

ومطلع القصيدة (٣) :

قـد علـم البيـنُ منـا البيـنَ أجفانا .·. تدْمى ، وألـف فى ذا القلـب أحزانـا
أملْت ساعـةَ سـاروا كشف معصمها .·. ليلبـث الحـى دون السـير حيرانـا
ولـو بـدت لأتاهَتْهُـم محجَّبُهـا .·. صـونٌ عقولهـم مـن لحظهـا صانـا
بالواخـدات وحـاد بهـا وبى قَمَـرٌ .·. يظَـلّ مـن وخدهـا فى الخدر حشيانا
أمـا الثيـاب فتعـرى من محاسنه .·. إذا نضاهـا ويُكْسَـى الحُسنَ عريانـا
يضمـه المسـكُ ضـمّ المستهـام بـه .·. حـتى يصيـر على الأعكان أعكانا

(١) الديوان : ١ / ٩٩ .
(٢) الجرشى (بكسر الجيم والراء والتشديد) : النفس .
(٣) الديوان : ٤ / ٢٢٠ - ٢٢٢ .

وقصيدته التى مطلعها [١] :

ألا كلُّ ماشيةِ الخيزلى ... فدا كُلّ ماشيةِ الهيْذبى [٢]

نموذج واضح لاحتيال الشاعر على الألفاظ الغريبة ، فهو يكثر منها فى كل الأبيات ، ويأخذ يفرط فيها إفراطا شديدا حتى لتظهر هذه الألفاظ فى قصائده على هيئة صفوف متلاحقة ، ويخيل إلينا أنه لم يكن هناك لفظ غريب أو تعبير غير مألوف إلا وتكلفه المتنبى فى هذه القصيدة وإن الإنسان ليكاد يؤمن بأن الشاعر لم يكن له وجهة من صنيعه هذا الصنع إلاأن ينال إعجاب علماء اللغة ، ولاشك أن ابن جنى قد أعجب به وبشعره ، وقد انعقدت صلة وثيقة بينهما ، فروى ابن جنى عنه أبياته ، وشرح ديوانه شرحا مشهورا . وماهذا إلا إعجاب بالمتنبى وافتتان بفنه .

وللمتنبى مطالع [٣] افتقدت الحسن والعذوبة فى الألفاظ ، وهى مطالع يمجها السمع ، وتنبو عنها النفس ، فهى لا ترضى أدباء البلاغة ولا تشرح صدورهم ، ولكنها تسوءهم وتوغر نفوسهم .

وقد يكون فى المطلع الواحد من مطالعه عدة عيوب ، ومن ذلك قوله [٤] :

وَفاؤكُما كالرَّبْع أشْجاه طاسِمهْ ... بأن تُسْعدا والدَّمْع أشْفاه ساجمه

فالمتنبى يتكلف فى ألفاظ هذا البيت ، وهو كمطلع لقصيدة أصابه ما أصابه من التعقيد ، ولعل المتنبى أراد به أن يغرب على من فى حاشية سيف الدولة من اللغويين أمثال ابن جنى وابن خالويه ، وقد مضى يكثر من الألفاظ الغريبة والأساليب العويصة ، والمعانى غير المألوفة حتى يلفت العلماء والفلاسفة أمثال

---

(١) الديوان : ٣٦/١ .

(٢) الخيزلى : مشية فيها استرخاء . والهيذبى : مشية فيها سرعة .

(٣) انظر ماذكرهَ الثعالبى من قبح لمطالع المتنبى (يتيمة الدهر ، تحقيق محمد محيى الدين : ١٤٥/١ دار الفكر ، بيروت ، الطبعة الثانية ١٣٩٣ هـ ١٩٧٣ م) وانظر كذلك (المتنبى وشوقى وإمارة الشعر للأستاذ عباس حسن ص ١٥٨ وما بعدها) .

(٤) الديوان : ٣ / ٣٢٥ .

الفارابى . وفعلا حظى بإعجابهم جميعا ... (١) .

وكان من الأولى ببيت المتنبى كمطلع لقصيدته أن يكون بارعا قويا يسترعى الأسماع وأن يكون بالغ الجودة والإتقان ؛ لأنه أول مايقرع الأذن من القصيدة ، فينبغى أن يستهوى الألباب لمتابعة الموضوع،ويجذب النفوس للإقبال عليه،ولعل هذا هو السبب فيما ابتكره القدماء من استهلال لقصائدهم بالغزل المحبب ، وبكاء الديار وذكر الأحباب ومواقف الوداع ، وأشباه ذلك مما يستهوى الألباب ويسترعى الانتباه .

وفى إطار الموازنة بين شعر المتنبى وشعر خصومه يحكى القاضى الجرجانى عن أحد الطاعنين على شعر المتنبى قوله :

<< كيف يُحتمل له اللفظ المعقد ، والترتيب المتعسِّف لغير معنى بديع يفى شرفه وغرابته بالتعب فى استخراجه ، وتقوم فائدة الانتفاع بإزاء التأذى باستماعه كقوله :

وفاؤكما كالربع أشجاه طاسمه .·. بأن تسعدا والدمع أشفاه ساجمه

ومن يرى هذه الألفاظ الهائلة ، والتعقيد المفرط فيشك أن وراءها كنزا من الحكمة ، وأن فى طيها الغنيمة الباردة ، حتى إذا فتشها وكشف عن سترها ، وسهر ليالى متوالية فيها حصل على أن "وفاءكما ياعاذلىّ بأن تسعدانى إذا درس شجاى . وكلما ازداد تدارسا ازددت له شجوا كما أن الربع أشجاه دارسه ، فما هذا من المعانى التى يضيع لها حلاوة اللفظ ، وبهاء الطبع .. >> (٢) .

وقد تناول الدكتور طه حسين فى كتابه " تاريخ الأدب العربى " (٣) قصيدة المتنبى الميمية التى قالها فى مدح سيف الدولة والتى مطلعها البيت السابق (وفاؤكما كالربع ...)ورأى الدكتور أن المتنبى قد استعد بهذه القصيدة لمقام سيف الدولة فأحسن الاستعداد وأطاله ، كى تقدر القصيدة ، ويحسب لصاحبها حسابا ويعترف أصحاب الأمير بأن الشاعر وشعره خليقان حقا بالعناية والتفكير .

---

(١) الفن ومذاهبه فى الشعر العربى د. شوقى ضيف ص ٣٠٦ ، ٣٠٧ .

(٢) الوساطة بين المتنبى وخصومه ص٩٨ تحقيق أبى الفضل والبجاوى مطبعة الحلبى وشركاه ١٩٦٦م، ١٣٨٦هـ .

(٣) العصر العباسى الثانى ص ١٨٠ وما بعدها

ثم يقول :" ويكفى أن تقرأ مطلعها-أى القصيدة - لتعرف أن الشاعر قد تعمده تعمدا،وقصد إليه مع سبق الإصرار،كما يقول أصحاب القانون،لا لشئ إلا ليبهر ويسحر ويصدم السامعين،ويفرض عليهم نفسه، ويكرههم على الاعتراف بأن هذا الشاعر الجديد ليس شاعرا ما، ليس أول مقبل كما يقول الفرنسيون، وإنما هو شاعر يعرف كيف يدير رأيه فى رأسه وكيف يدير لسانه فى فمه، وكيف يقول البيت من الشعر، فيكلف سامعيه وقارئيه كثيرا من الجهد والعناء ليفهموه ثم ليذوقوه. ولن يقنعنى أحد بأن المتنبى قد أرسل نفسه على سجيتها فى هذا البيت وقاله فى غير تكلف وتعمد.والمتنبى عندى أعقل وأذكى وأعلم بالشعر وأبرع فيه من أن يندفع إلى هذا البيت اندفاع الذى لا يعلم ما يأتى ومايدع ، إنما أراد المتنبى أن يعنّى خصومه الذين عرفهم أو افترضهم ، وأن يكلفهم التفكير فى تفسير هذا اللغز الذى استفتح به قصيدته، أو هذه الألغاز التى مضى فيها أثناء القسم الأول من هذه القصيدة " (١).

ومن مطالع المتنبى المستشنعة ماقاله فى استفتاح قصيدة فى مدح كافور قيل إنها أول قصيدة مدح يريد أن يلقى المتنبى بها كافورا أول لقية (٢) .

ومطلع هذه القصيدة قوله (٣) :

كفى بك داء أن ترى الموت شافيا .·. وحسب المنايا أن يكن أمانيا

فهو يقول : كفاك داء أن ترى الموت شفاء ، والحقيقة أن المنية إذا صارت أمنية فهى غاية الشدة والبلية ، وفى الابتداء بذكر الداء والموت والمنايا مافيه من الطيرة التى تنفر منها السوقة فضلا عن الملوك (٤) .

ومن ابتداءاته العجيبة التى يمجها السمع كذلك قوله (٥) :

---

(١)المصدر السابق ص ١٨٢ .
(٢) يتيمة الدهر للثعالبى : ١ / ١٤٦ .
(٣) الديوان : ٤ / ٢٨١ .
(٤) يتيمة الدهر : ١ / ١٤٦ .
(٥) الديوان : ٢ / ٢٤٩ .

مُلِثَّ القَطْرِ أعطِشْها ربوعا .·. وإلا فاسقها السم النقيعا

فمن عادة العرب أنها تدعو بالسقيا للربوع . والمتنبى فى هذا المطلع يدعو عليها ، فهو يخاطب السحاب المقيم الدائم القطر بأن يعطش تلك الربوع وإلا فليسقها السم النقيع فى الماء ، كل ذلك لأنه دعاها فلم تجبه ، ولم تترحم على من رحل عنها .

ومن تكلفه فى الألفاظ قوله فى مطلع قصيدة له يمدح بها أبا العشائر : الحسين بن على بن الحسين بن حمدان [(١)] :

أتراهاه لكثرة العشاق .·. تحسبُ الدمع خِلقة فى المآقى

كيف ترثى التى ترى كل جفن .·. راءها غير جفنها غير راقى [(٢)]

أنتِ منا فتنتِ نفسك لكنَّك عوفيتِ من ضنىً واشتياق

اختياره للألفاظ الصعبة فى النطق :

وقد تكون الألفاظ غريبة نظرا لصعوبة نطقها على اللسان ،وهذا كثيرا ما يحدث فى شعر المتنبى نتيجة لكثرة التكرار [(٣)] الذى يسيطر على شعره ويؤدى إلى ثقل وصعوبة فى النطق .

ومما يستهجن عنده تكرار اللفظ فى البيت الواحد دون تحسين يضيفه ذلك التكرار ، ومن هذا قوله [(٤)] :

وَمِن جاهلٍ بى وَهْوَ يجْهلُ جهْلَهُ .·. ويجهَلُ عِلمى أنَّهُ بِىَ جاهِلُ

---

(١) الديوان : ٢ / ٣٦٢ .

(٢) راءها : الأصل رآها فقدم الألف وأخر الهمزة ضرورة .

(٣) انظر معاهد التنصيص على شواهد التلخيص للعباسى : ١ / ٥٨ ، ٥٩ عالم الكتب بيروت ١٣٦٧ هـ ١٩٤٧ م .

(٤) الديوان : ٣ / ١٧٤ .

وقوله فى نفس القصيدة [١] :

فقلقلتُ بالهمّ الذى قلقل الحشا . . قلاقل عيسٍ كلّهنّ قلاقلُ

وقد اشترطنا بقولنا : " دون تحسين " حتى لا يكون كلامنا عاما فيشمل كل ما للمتنبى من تكرار فى الألفاظ ، فالإنصاف يقتضينا أن نقول إن للمتنبى ألفاظا مكررة كثيرة غير أن التكرار عنده مستحسن فى كل ما يتصل بالسلاح والحروب [٢] .

والحقيقة أن هذا النوع من التكرار ليس له أية تفسيرات خاصة تتصل بلغة الشاعر ، فالحال يقضى أن بعض الكلمات قد لا يخضع تكرارها إلا لطبيعة الموضوع دون أن يكون لها أدنى علاقة بخاصية أسلوبية متأصلة أو بنزوع سيكولوجى خاص [٣].

والاستكثار من التكرار فى البيت الواحد غريب جدا ، وفيه سخافة وضعف ، كما أنه يدل على التكلف وعلى ضعف فى صنعة الشعر .

يقول المتنبى [٤] :

ولا الضّعفَ حتى يتبَعَ الضّعفَ ضِعفُه . . ولا ضِعفَ ضِعفِ الضّعفِ مثله ألفُ

فأنت ترى أن هذا التكرار لا يوافق موضعا ولا يليق فى مكانه ، وفيه فوق الغرابة سخافة وضعف .

---

(١) الديوان : ٣ / ١٧٥ .

(٢) انظر سيفيات المتنبى دراسة لسعاد عبد العزيز المانع ص ١١ وما بعدها دار عكاظ للطباعة والنشر بجدة الطبعة الأولى ١ ١٤ هـ ١٩٨١ م .

(٣) انظر مقال : الأسلوب والشخصية " ترجمة جابر عصفور مجلة القاهرة عدد ١٧٦ فى أغسطس ١٩٧١ م

(٤) الديوان ٢ / ٢٩

عدم طرافة الألفاظ :

وقد تكون الغرابة فى ألفاظه بسبب عدم طرافتها ، فهى إن بحثت عنها وجدتها رائجة بين العامة والسوقة ، وتشيع على ألسنة العامة وأشباههم ، ولا يكاد أحد منهم ينطق بغيرها للدلالة عليها ، ومثل هذا الفيض من الاستعمال يذهب بما لأى كلمة من نضرة وبهاء ، ثم إن إقبال النفس على الطريف الجديد من الألفاظ أشد وأقوى من الشائع المبذول .

انظر إليه يتمثل ألفاظ العامة والسوقة ومعانيهم فى قوله (١) :

وإنْ ماريْتَنى فاركَبْ حِصَانا ∴ ومثّله تخِرُّ له صريعا

وانظر إلى قوله (٢) :

وإن كان لا يُدْعَى الفتى إلا كذا ∴ رجُلاً فَسَمّ الناس طُرا إصْبَعا

وكان المتنبى لا يتحرج من استعمال اللفظ الذى يريد ، وإن أدى هذا إلى استعمال لفظ من ألفاظ اللغة الدارجة .

فهو يقول مادحا (٣) :

طَلَبَ الإمارةَ فى الثغور ونَشْؤُهُ ∴ ما بين كَرْخَايا إلى كَلْواذا (٤)

وله فى العامية أمثال منها (٥) :

وكل طريق أتاه الفتى ∴ على قدر الرِّجْلِ فيه الخطا

---

(١) الديوان : ٢ / ٢٥٦ .

(٢) الديوان : ٢ / ٢٦٧ .

(٣) الديوان : ٢ / ٨٤ .

(٤) كرخايا وكلواذا : قريتان من أعمال بغداد .

(٥) الديوان : ١ / ٤٢ .

ومن أردأ ما قاله يتمثل فيه ألفاظ العامة ما قاله يهجو فيه ضبة بن يزيد العتبى [١] :

مـــا أنْصَـــفَ القَـــومُ ضبَّـــهْ .٠. وأمَّــــهُ الطُّـــرْطُبَّـــــهْ
رَمَــــوْا بـــــرأس أبيـــــه .٠. وبـــاكُــــوا الأمَّ غُلُبَّــــــهْ

وقد تضطره صعوبة القافية إلى الإتيان بألفاظ عامية مبتذلة ، مثل قوله من قصيدته الزائية التى مدح بها أبا بكر عليا بن صالح الكاتب [٢] :

حملتـــه حمائـــل الدهـــر حـــتى .٠. هـــى محتـاجـــة إلـى خـــراز

وكقوله فى القصيدة نفسها [٣] :

شغلـت قلبـه حســان المعـالــى .٠. عـــن حســان الوجـــوه والأعجــاز

ومن القصائد التى تكلف فيها المتنبى فى الألفاظ والمعانى جميعا قصيدته الرائية التى قالها يمدح فيها أبا الفضل محمدا بن العميد، ففى هذه القصيدة من سخف الألفاظ والمعانى ما فيها،وقد ضعف فيها المتنبى، وأتى فيها بالإسفاف من القول .

وأغلب الظن أن المتنبى كان ينظر إلى ابن العميد نظرة خاصة ، إذ كان ابن العميد عظيما فى نفس المتنبى ، سواء فى ذلك الناحية العقلية ، أو الناحية الأدبية ، أو الناحية الفنية ، وهذا يفرض على المتنبى أن يحسب لابن العميد حسابا ، بحيث يجتهد فى إرضائه من جهة ، ويتقى نقده من جهة أخرى ، وقد يكون هذا هوالسبب فى إتقان الشاعر ، وفى تجويد صنعته ، وقد يكون السبب أيضا فى إخفاقه وعجزه وتهالكه ، إذ المعلوم أن الطابع الفنى لا يستجيب إلى التكلف كلما دعى إليه ، ولا يحقق الإجادة كلما سألته إياها . يؤكد ذلك أن الإجادة استعصت على المتنبى ، وأن طبعه امتنع عليه ، وهو ينشد الرائية فلم يأت فيها بما يلائم ابن العميد ، ولا بما

---

(١)الديوان : ١ / ٢٠٤ .
(٢) الديوان : ٢ / ١٧٤ .
(٣) الديوان : ٢ / ١٧٩ .

يرضيه ، وقد أظهر ابن العميد للمتنبى أن هذه القصيدة لم تعجبه ، وأنها لم ترض حاجته من شعر المتنبى .

والذى يعنينا من أبيات تلك القصيدة هذه الأبيات التى ظهر فيها التصنع ، والتهالك ، والإسفاف ، والتكلف السخيف فى الألفاظ والمعانى (١) :

مـــن مبـلغ الأعــراب أنــى بعدها ∴ شـاهــدت رسطاليـــس والإسكنـدرا
ومللت نحـر عشـارهــا فأضـافنـى ∴ مـــن ينحـر البـدر النضار لمـن قرى
وسمعـت بطليمـــوس دارس كتبـــه ∴ متملكــا متبـــديـــا متحضـــرا
ولقيــت كـــل الفاضليـــن كـأنمـــا ∴ رد الإلـــه نفـوسهـــم والأعصـــرا
نسقــوا لنــا نســق الحساب مقدمــا ∴ وأتـــى فـــذلك إذ أتيـت مـؤخـرا

وقارئ هذه الأبيات يحس أن المتنبى يتكلف ازدراء الأعراب والغض منهم وهو يظن أنه بذلك إنما يرضى ابن العميد . ومن المحقق أن الأبيات لا تدل على شئ ، وهى لا تمتاز بشئ إلا بما فيها من تكلف سخيف فى المعانى والألفاظ جميعا . بل إننا يمكننا أن نقول إن المتنبى كان ضيقا بإنشاء هذا الشعر ، وكان يحمل نفسه فيه على ما لا تكاد تطيق ، ويكلفها ما لا تحب ، وأخذ يظهر فى الأبيات جهدا وتأنقا نحسهما ونرثى له منهما .

والحقيقة أن للمتنبى قصيدة دالية ، هى أجود ما قال فى ابن العميد ، وهى ليست أقل تكلفا وتصنعا من الرائية ، والمهم أن المتنبى قد اعترف فيها بالتقصير الذى كان منه فى الرائية ، وأخذ يعتذر عن هذا التقصير ، يقول (٢) :

هــل لعــذرى عنــد الهُمــام أبــى الفَضْـــل قبـــول ســـوادُ عينــى مِــدَادُهْ
أنـــا مـــن شــدَّة الحيـــاء عليـــل ∴ مـــكرمـــات المُعـــلّه عُــــوَّادُهُ
مـــا كفـــانى تقصير مـــا قلت فيـــه ∴ عـــن عُـــلاهُ حتى ثنـــاه انتقـــاده

(١)الديوان : ٢ / ١٧٠ ، ١٧١ .
(٢) الديوان : ٢ / ٥٣ ، ٥٤ .

إننـــــى أصيَـــدُ البُـــزَاةِ ولكـــــن أجَـــلُّ النجــوم لا أصطـــادُهْ
رُبَّ مـا لا يعـبر اللفـــظ عنـــه .·. والـــذى يضمـر الفــؤاد اعتقـــاده
مـــا تـــعودت أن أرى كـــأبى الفضـــــل وهـــذا الـــذى أتـــاه اعتيـــاده
إن فـى المــوج للغريــق لعــذرا .·. واضحـــا أن يفـوتــه تَـعْـــدادُهُ
للنـــدى الغَلْـــبُ أنـــه فـــاضَ والشعـــر عمـــادى وابـــنُ العميــد عمــاده

وأيا ما كان الأمر فالدالية أقل من الرائية ضعفا وتهالكا وإسفافا ، على أن أسلوب المتنبى يعاب بمثل تلك الألفاظ المبتذلة ، وبخاصة تلك الألفاظ والتراكيب المرددة التى اشتركت فيها طبقات متعددة ومتعاقبة . وقد تغفر لشاعرنا الابتذال فى مواطن أخرى ، لأن صفة الابتذال أو الطرافة تتغير من عصر إلى عصر ، ومن قوم إلى قوم ، يضاف إلى ذلك أننا لم نشهد عصر المتنبى ، ولم نعرف مبلغ ذيوع الكلمة أو عدم ذيوعها فيه .

استعمال الكلمات فى غير موضعها :

وقد تكون الغرابة فى ألفاظ المتنبى وذلك بسبب استعماله اللفظ فى غير موضع استعماله ، أو فى تركيبه ألفاظ البيت على التقديم والتأخير بطريقة لا يباح مثلها فى أساليب الكلام ، لدرجة أنك إذا حللت تركيب البيت وجدته باقيا على غموضه .

استمع إليه يقول (١) :

فـتىً ألف جـزء رأيـه فـى زمـانـه .·. أقـل جــزء بعضُــهُ الــرأىُ أجمــعُ

وحاصل ما فى البيت من معنى أن الممدوح أعلم الناس بأحوال الدهر فرأيه لا يشاركه فيه أحد ، فله من الرأى ألف جزء ، وأقل جزء منها بعضه الذى لدى الناس جميعا ، بمعنى أن الناس جميعا يدبرون أمورهم وأحوالهم بأقل بعض رأيه .

---

(١) الديوان : ٢ / ٢٤٢ .

ونحن نرى أن أكثر ألفاظ البيت قد ظهر عليها أثر الإغراب ، وتجاذبتها الصنعة، وغلب عليها التكلف والتعقد .

ومن قبيل هذا ما قاله من قصيدة له يمدح فيها أبا الفضل (١) :

وكـل شريـك فـي السرور بمُصْبَحِي ∴ أرى بعده من لا يرى مثلهُ بعدى (٢)

فالشاعر يقول هذا البيت فى وداع ابن العميد ، وحاصل ما يؤخذ من البيت من معنى أنه يقول : إن كل من شاركنى فى السرور إذا أصبحت عند أهلى ، وما حظيت به من النظر إليه ، أرى أنا بعد فراقه منك يا ابن العميد من لا يرى هو مثله بعد مفارقتى ، لأنه لا نظير له فى الدنيا .

ولا شك أن هذا البيت من أبياته التى تحير الأفهام لما فيها من إبهام وإيهام ، ولا يستطيع أى شارح له أن يأتى فى معناه بما يزيد على مفاد ظاهره ، وبعد تأويل ألفاظ البيت ، وهذا لا يتأتى ولا يحصل إلا بعد إمعان فى التأمل وتقليب النظر .

ومن أبياته التى أصابها التعقيد والإبهام فى استعمال ألفاظ اللغة ما قاله من قصيدة له وقد أمره سيف الدولة بإجازة أبيات لأبى ذر سهل بن محمد الكاتب ، يقول (٣) .

وَهَـبِ الملامـةَ فى اللذاذة كالكرى ∴ مطـرودة بسهـاده وبكائـه

والبيت فى حد الإبهام و الإيهام ، وقد وقفت على ما ذكر الشراح فى تفسيره فلم أجدهم يأتون فى بيان معناه بما يغنى الأفهام ، فالألفاظ مضطربة فى تصويرها للمعنى ، وما أولوه يبعد عن مقتضى اللفظ .

---

(١) الديوان : ٢ / ٦٩ .
(٢) بعده : أى بعد ابن العميد .
(٣) الديوان : ١ / ٥ .

قال أبو الفتح : " اجعل ملامتك إياه فى التذاذكها كالنوم فى لذته ، فاطردها عنه وبما عنده من السهاد والبكاء ، أى لا تجمع عليه اللوم والسهاد والبكاء ، أى فكما أن السهاد والبكاء قد أزالا الإكراه ، فلتزل ملامتك إياه " (١) .

ورد عليه الواحدى وقال : " هذا كلام من لم يفهم المعنى ، فظن زوال الكرى من العاشق ، وليس كما ظن ، ولكنه يقول للعاذل : هب أنك تستلذ الملامة كاستلذاذك النوم ، وهو مطرود عنك بسهاد العاشق وبكائه ، فكذلك دع الملام ، فإنه ليس بألذ من النوم ، فإن جاز ألا تنام جاز أن لا تعذل ... " (٢) .

ومن كلام الشراح يتضح أن البيت يحتاج - بسبب التعقيد الذى أصاب ألفاظه ، وبسبب الإغراب الذى أصاب المعنى - فى الغوص على معناه إلى عنت شديد ، ثم إن معناه لم يفهم إلا على سبيل التكهن والنظر فيما يحتمله المقام ويقتضيه السياق ، وليس أدل على ذلك من أن التفسيرين المذكورين لا يقع واحد منهما منا موقع الإقناع . وفى رأيى أن بعد تأويل الشراح عن مقتضى اللفظ إنما مرده فى الدرجة الأولى إلى ما أصاب الألفاظ من تعقيد هذا من وجهة ، ومن جهة أخرى ضعف التأليف واضطراب العبارة .

استخدامه لكلمات لا أصل لها فى اللغة :

وقد تشذ للمتنبى ألفاظ يأخذها عليه رجال اللغة ويعدونها من سقطاته وهناته، وإن كانت - فى الحقيقة - من الندرة بحيث لا تقلل من معرفته باللغة وسعة باعه فيها ، ولا تنهض دليلا على عدم إحاطته باللغة أو تبحره فيها ؛ لأن تنقله إلى الصحراء ، ومخالطته العرب الخلص ، وسماعه عنهم دليل على علمه باللغة ، وعلامة من علامات اعترافه بقيمة اللغة وتمنيه الحذق فيها .

ومن ذلك استعماله لكلمة لا أصل لها فى اللغة ، ومن هذا قوله من قصيدة

(١) الديوان : ١/ ٥ .
(٢) الديوان : ١ / ٥ ، ٦ .

يمدح بها المغيث بن على بن بشر العجلى [١] :

بيـاضُ وجه يُريـك الشمس حالكـةً .·. ودرُّ لفـظ يريـك الـدرّ مَخْشَلبـا

فكلمة مخشلب يفسرها الشراح بالخزف أو بقطع الزجاج المتكسر . وأغلب الظن أنهم استقوا هذا المعنى من مقتضى المقابلة فى البيت بين الدر والمخشلب ولم يستقوه من المظان اللغوية الموثوق بها [٢] .

ويقول العكبرى : " المَخْشَلب والمشْخلب : لغتان ، وليستا عربيتين ، وإنما هما لغتان للنبط . وهو خرز من حجارة البحر وليس بدر " [٣] .

امتثاله لألفاظ التفلسف والتصوف :

وقد يستخدم الألفاظ استخداما معقدا ؛ إذ يلونها بألوان مختلفة من التفلسف أو التصوف ما تزال - أى الألوان - تغير فى ألفاظه تغييرات ، وتعقد فيها ، وتنحو بها منحى جديدا ، وتنفذ بها إلى لون جديد يخرج بها عن طريق الشعر ، فإذا هى من طرازآخر غير معروف طراز فلسفى إن أمكن لنا أن نقول ذلك ، ولا شك أن هذا اللون لم تخل منه قصيدة من قصائد المتنبى ؛ فليس بغريب أن نقول إن المتنبى قد حاول كثيرا أن يستوعب أفكاره الفلسفية فى قصائد تخلو إلى حد ما من الصيغ المتوارثة ومن القوالب العتيقة ، وفى رأيى أن المتنبى لم يكن يأتى بهذه الألفاظ عن فلسفة فقط ، ولكنه كما سبق القول كان يسير فى ذلك على طبيعته .

ومن امتثاله لألفاظ المتصوفة ، واستعماله لكلماتهم المعقدة ما قاله مرتجلا[٤]:

إذا مـا الكـأسُ أرْعَشَتْ اليـديْـنِ .·. صَحَـوْتُ فلمْ تَحُـلْ بينـى وبينـى

(١) الديوان : ١ / ١١٣ .

(٢) المتنبى بين ناقديه فى القديم والحديث د. محمد عبد الرحمن شعيب ، دار المعارف بمصر ، الطبعة الثانية ١٩٦٨ م .

(٣) الديوان : ١ / ١١٣ .

(٤) الديوان : ٤ / ١٩٣ .

والمتنبى قد قال هذا البيت حين دخل على علىّ بن إبراهيم العنوخىّ فعرض عليه كأسا بيده فيها شراب أسود . والمعنى أنه إذا كان هناك من يشرب الخمر وتضطرب يداه من السكر فإنى لا أشربها ، إذا كانت تحول بينى وبين عقلى .

ومن ذلك ما قاله فى صباه يمدح به رجلا وأراد أن يستكشفه عن مذهبه [(١)] :

أنا مُبصرٌ وأظُنُّ أنّى نائمٌ .·. مَنْ كانَ يحلُمُ بالإله فأحلُما

كَبُرَ العيانُ علىَّ حتىَّ إنَّهُ .·. صار اليقين من العيان توهُّما

فهو يقول على طراز الصوفية أنا أرى الشئ على حقيقته وكأنى فى نوم ، وهذا استعظام لما رأى ، فمثله لا يرى فى اليقظة ، الأمر الذى جعله يشك فيما رأى ، وصار المعاين عيان اليقين كالمتوهم المظنون الذى لا يدرك بالعيان .

وقد تكون الغرابة فى اللفظ إذا لم يوافق أصول اللغة وقواعدها الفرعية كالنحو والصرف والعروض .

فهو يقول مادحا [(٢)] :

أحادٌ أمْ سُداسٌ فى أحادِ .·. لُيَيْلَتُنا المَنُوطةُ بالتَّنادِ

فنراه يأتى بكلمة (ليبلتنا) مصغرة ، والتصغير قد يكسب الكلمة خفة ورشاقة ، وذلك إذا كان فى موضعه وحسب الأصول والقواعد ، ولكن التصغير الذى جاء به المتنبى قد أضاف ثقلا إلى البيت ، هذا إلى ما فى البيت من غموض معنوى شديد ، وكيف نقدم للمتنبى عذرا فى أمر مثل هذا وهو كما نعلم قريب العهد بالفصحى .

ومن مخالفته للقياس اللغوى قوله [(٣)] :

---

(١) الديوان : ٤ / ٣٢ .
(٢) الديوان : ١ / ٣٥٣ .
(٣) الديوان : ٤ / ٨٥ .

ولا يُبْـرَمُ الأَمْـر الـذى هـو حالِـلٌ .·. ولا يُحْـلَلُ الأمـرُ الـذى هـو مُـبرَمُ

والمعنى أن ممدوحه لا يخالف فيما أراد ، فليس لأمره الذى يحكمه ناقض ، وليس للذى نقضه مبرم . وشاهد الغرابة فى البيت أن الشاعر أظهر التضعيف فى (حالل ، ويحلل) ولم يدغم فيهما مع توافر شروط الإدغام ، وفى هذا مخالفة للقياس اللغوى ، وكان يجب على الشاعر أن يقول : حالّ ، ويحلّ ، ولكنه أظهر التضعيف وهو من باب الضرورات ، ولعله فعل ذلك ليشعرنا أنه يعلم الضرورات .

وقد يكون الإغراب فى اللفظ إذ لم يكن معتدلا فى عدد الحروف ، وذلك بأن تزيد حروفه زيادة ملحوظة تسبب صعوبة فى النطق به .

ومن ذلك قوله فى قصيدة يمدح بها عليا بن إبراهيم التنوخى [(١)] :

أُسـائِلُهـا عـــن المُتَـدَيِّرِيهـــا .·. فـلا تَدْرِى ولا تُـذْرِى دُمُوعـا [(٢)]

يقول الصاحب : << لفظة " المتديريها " لو وقعت فى بحر صاف لكدرته ، أو ألقى مثلها على جبل لهدته >> [(٣)] .

ومن ذلك قوله [(٤)] :

إن الكِـرامَ بـــلا كِـرامٍ مِنْهُـــمُ .·. مثـلُ القـلوبِ بـلا سُوَيْدَاوتهـــا

وقد يكون اللفظ غريبا إذا لم يكن واضح المعنى ، غير مألوف الاستعمال ، وذلك إذا كان متوعرا وحشيا غريب المعنى .

---

(١) الديوان : ٢ / ٢٥٠ .
(٢) المتديريها : أى متخذيها دارا ، فأضافها إلى الضمير .
(٣) انظر الصبح المنبى ص ٣٦٨ ، والإبانة عن سرقات المتنبى ص ١٠ .
(٤) الديوان : ١ / ٢٣٠ .

ومن ذلك قوله (١) :

جَفَخَتْ وهمْ لا يجْفَخُون بها بهم ∴ شِيمٌ على الحسَبِ الأغَرّ دلائِلُ

فهو يستعمل جفخت بمعنى فخرت ، وهذا الاستعمال صحيح وإن كان اللفظ غريبا .

ويقول فى وصف الغيث من قصيدة يرثى فيها والدة سيف الدولة (٢) :

لساحيهِ على الأجْداثِ حَفْشٌ ∴ كأيْدى الخيلِ أبصَرَتِ المخالى

الحفش : شدة الوقع ، وهو مصدر حفش السيل حفشا : إذا جمع الماء من كل جانب إلى مستنقع ، ولا يخفى ما فى الكلمة من غرابة .

والمتنبى كما سبق أن قلنا على معرفة بغريب اللغة ، لكنه وإن كانت معرفة الغريب من الأمور الضرورية للشاعر إلا أنه ليس من حقه ترك الألفاظ مألوفة الاستعمال ، الدائرة على الألسن إلى الألفاظ الغريبة ؛ لأنه ليس هناك من داع يدعوه إلى استخدام مثل هذه الألفاظ التى هى بعيدة عن واقع القارئ .

وهنا نقطة لابد وأن نشير إليها ونحن بصدد هذا الكلام ، وهى أننا لم نصطدم بغرابة ألفاظ الشعر الجاهلى ، وذلك لأننا نحسها صادقة غير متكلفة ، ومعبرة عن تجربة الشاعر وواقعه . ثم إن الألفاظ الجاهلية مهما أغربت نجدها قريبة من روح العصر ، وبينها وبين المجتمع آنذاك اتصال وثيق .

أما الغريب من الألفاظ عند غير الشعراء الجاهليين فإنه يجعل الشعر ضعيفا واضح التلفيق والصناعة ، بعيدا عن التأثير الشعورى .. هذا من جهة ،ومن جهة أخرى فإن لغة الشعر فى هذه الحالة تكون متعثرة الألفاظ من ناحية ضعف دلالتها

(١) الديوان : ٣ / ٢٥٨ .
(٢) الديوان : ٣ / ١٣ .

على المعنى ،وعدم قدرتها على الإيحاء بالمطلوب ، ومن حقنا أن نقول إن شاعرا بصيراً باللغة كالمتنبى ينبغى أن يعرف ما يحسن منها فى السمع ويعذب فى النطق ، وينبغى أن يعرف أيضا ما هو منها متوعر غريب تأباه الطباع ، وتنفر منه الأذواق ، ولا يحسن وقعه على الأسماع ، وأن يراعى ذلك كله فى شعره .

استخدامه لألفاظ تنتمى إلى البيئة البدوية :

وقد يكون الإغراب فى اللفظ راجعا إلى استخدامه لألفاظ تتبدى فيها البدوية ، وينتمى معظمها إلى البيئة البدوية ، وتظهر هذه الألفاظ غالبا فى أشعار المتنبى التى تتحدث عن الطبيعة ، فالطبيعة فى شعره تتبدى فيها نظرة بدوية واضحة ، ويمكن النظر إلى ألفاظ الطبيعة عنده بكل ما تتعلق به من أرض أو ماء أو نبات أو فلك أو غير ذلك .

فإذا تحدث عن موضوعات تتصل بالأرض وجدنا الألفاظ المتعلقة بالصحراء مثل : الفلاة ، والبيداء ، والمهمة ، والمفاوز .

فهو يقول (١) :

بكُلِّ فَلاةٍ تُنْكِرُ الإنْسَ أرْضُها .·. ظَعائِنُ حُمْرُ الحَلْيِ حُمْرُ الأيانِقِ

ونحن نجد ألفاظ النبات التى يستعملها المتنبى ينتمى معظمها إلى البيئة الصحراوية مثل : السدر ، والنخيل ، والنوار ، والخزامى ، والريحان .

فهو يقول يرثى والدة سيف الدولة (٢) :

تُحَجِّبُ عَنكِ رائحةُ الخُزامَى .·. وتُمْنَعُ مِنكِ أنداءُ الطِّلالِ

---

(١) الديوان : ٢ / ٣٢٥ .
(٢) الديوان : ٣ / ١٥ .

ويقول مادحا (١) :

سِرْ حيثُ شِئتَ يَحُلُّهُ النُّوارُ .'. وأرادَ فيكَ مُرادكَ المِقدارُ

ويقول(٢) :

سَقاكِ وحَيَّانا بِكِ اللهُ إنما .'. على العيس نورٌ والخُدورُ كمائمه

وقل أن نجد عند المتنبى ألفاظا مثل الجلنار والياسمين والنرجس وغير ذلك من الألفاظ التى تتصل بالبيئة الحضرية ، أو مما استعمله الشعراء المولدون فى شعرهم . وفى رأيى أن هذا الذى صنعه المتنبى إنما يمثل شغفه بالتراث الشعرى القديم ، ومحاولة اتباع هذا التراث ، وإن جاءت بعض الألفاظ البدوية فى شعره نتيجة لتأثره ببيئة الصحراء أكثر مما جاءت من متابعته للتراث الشعرى القديم ، يؤيد ذلك أنه فى كل شعره لم يكن يتحاشى استعمال الألفاظ المألوفة الاستعمال أو المولدة فى عصره ، حتى أنه اتهم فى بعض الأحيان باستعماله للغة العامة .

. . . . .

والحق أن المتنبى وكما وضح فى شعره ينفرد بهذه العيوب اللفظية التى ذكرناها، ولم يشاركه فى ذلك أحد من الشعراء العباسيين الذين سبقوه أو عاصروه ، وفى رأيى أنه ليس فى سكناه البداية ما يدافع عنه وينهض للاعتذار له ، فليس المتنبى كما نعلم بأول شاعر حضرى قصد البادية وأقام فيها فترة من الزمان ، بل لقد سبقه من الشعراء العباسيين : بشار والبحترى وأبو نواس ، وغيرهم ممن قصدوا لمثل غايته فلم تطبعهم بطابعها ، ولم تؤثر فى صفاء ألفاظهم وجودة عباراتهم ، بل إن الجمهرة من الأدباء والناقدين ليعدونهم فى الصف الأول نقاء ألفاظ وحلاوة عبارات ولا سيما البحترى ، وكيف يتأثر المتنبى تأثره البالغ بحياة البادية - وقد سكنها فترة قصيرة - ولا يتأثر بحياة الأمصار ومجالسة الملوك ومعاشرة الأمراء ،وقد دامت له سنوات طويلة (٣) .

(١) الديوان : ٢ / ٨٦ .
(٢) الديوان : ٣ / ٣٣٠ .
(٣) المتنبى وشوقى وإمارة الشعر ، عباس حسن : ٩٢ .

ولعل هذا هو السبب المباشر الذى يجعلنا لا نهتدى إلى ما ندافع به عن عيوب الشاعر اللفظية اللهم إلا طبيعته المتمردة العنيفة الصاخبة التى طبع عليها ، والتى جعلته لا يجنح إلى رقة وعذوبة فى شعر أو غير شعر .

الفصل الرابع
الإغراب في التعبير

تمهيد :

الألفاظ هى قوالب المعانى ، وعليها يتوقف جانب كبير من سلامة التعبير وتحقيقه للفكرة ، وهى لا توجد لذاتها ، ولا تستخدم فرادى ؛ لأن الحقيقة أن اللفظ بمفرده ليس قادرا على خلق ذلك الجو الذى جاء من موقعه ، ومما تألف معه من ألفاظ دقيقة التركيب محكمة الصياغة .

واللفظ يقع فى البيت الشعرى ليمثل جزءا من معنى يقصده الشاعر ، ولم تصح المعانى الدقيقة إلا بسبب من جاراته ، والسحر فى اللفظ إنما يرجع إلى الدقة فى اختياره ليمثل المعنى المطلوب ويصوره أروع تصوير دون زيادة ولا نقصان ، وليس ثمة فائدة من استحضار اللفظ المفرد فى الذهن إلا من خلال استخدامه مع غيره فى قوالب لغوية .

وإذا كان اللفظ المفرد له قيمة فى ذاته من ناحية موسيقاه - كما لو كان فى بيت شعرى - ومن ناحية دلالته على معنى مباشر ، ومن ناحية إيحائه بمعان أخرى خفية ترتبط بالإدراك الوجدانى أو التجربة الذاتية .. إلا أنه لا يمكن أن يعبر وحده عن معنى يتمثل فى نفس الشاعر ، بل لابد من تلاؤمه مع مجموعة من الألفاظ كى يعبر عن هذا المعنى ، إنه كالنغمة الموسيقية الواحدة لا يبدو جمالها ولا يظهر ، ولا تؤثر فى النفس إلا إذا تألفت مع غيرها من النغمات فى لحن متكامل .

ومما ينبغى أن يكون معلوما قبل كل شئ أن غاية الشاعر هى الإفهام ، أى إدراك القارئ للأفكار والمعانى ، والذى يعينه على أداء هذه الوظيفة هو الألفاظ والأساليب التى نقرأها ، ونقف على ما اشتملت عليه من المعانى والأفكار ، لأن كل معنى من المعانى ينبغى أن يعبر عنه بألفاظ محددة موضوعة له دالة عليه ، ووضع كل لفظ منها فى موضعه الصحيح من التركيب كما يقتضيه الوضع اللغوى ، وكما يقتضيه المعنى الذى عبر عنه من غير تصرف يبعده عن معناه ، ويحوجنا إلى

التكلف فى فهمه ، أو التأول الذى قد يؤدى إلى غموض الفكرة .

وعلى هذا فينبغى على الشاعر كما قلنا قبل أن يتمهل فى اختيار ألفاظه ، وأن تكون ألفاظ جمله دقيقة تعبر عما يريد دون زيادة أو نقصان ، حتى لا يكتنف معناها غموض أو إبهام (١) ، وعليه أيضا أن يستخدم الكلمة المناسبة فى المكان المناسب وأن يحسن هذا الاستخدام .

وإذا كانت الجملة هى المرحلة الأولى لعملية التركيب الذى يعبر عن الفكرة التامة فى ذاتها ، فعليه أن يكون التعبير قويا ، وأن يترك التأثير والإقناع اللازمين للسامع والقارئ ، ولن يكون كذلك إلا إذا خلا من سوء الصياغة ليكون سبيلا إلى قوة المعنى ، أو وضوحه ، أو جماله أو صحته (٢) .

ومن هنا يبرز دور اللفظ والتركيب ، ودور المعانى والأفكار فى عملية التعبير، فالعنصران ضروريان ، وهما كفتا ميزان ينبغى أن يكونا متعادلين ، فإن الشاعر ليعظم فى أعين قرائه ومستمعيه ونقاده بمقدار ما يوفق إليه من معان جيدة مبتكرة بالإضافة إلى الأناقة فى التعبير والإبداع فى التصوير .

. . . . .

ومن يقرأ شعر المتنبى يحس أن الشاعر كان يبحث عن صيغ جديدة للتعبير ، فكما أكثر من الألفاظ الغريبة نجده يكثر من الأساليب العويصة والمعانى غير المألوفة . و الأمر العجيب أن المتنبى قد عمم هذا فى شعره ولم يقف به عند حد

(١) انظر : الأسلوب ، تأليف الأستاذ أحمد الشايب ص ١٦٤ وما بعدها . ملتزم النشر والطبع مكتبة النهضة المصرية ، الطبعة السابعة ١٣٩٦ هـ ١٩٧٦ م .
(٢) راجع : أصول النقد الأدبى ، تأليف الأستاذ أحمد الشايب ص ٢٤٤ .

موضوع معين ، فنحن نرى الأساليب الغريبة تتسرب عنده من المديح إلى الموضوعات الشعرية الأخرى ، وكأنها لون جديد يعمد الشاعر إلى استعماله ، ويرغب فى أن يطرز بها قصائده .

وفى رأيى أن ذلك راجع إلى إغراب المتنبى فى التفكير ، فليس ثمة شك فى أنه نقل كثيرا من أفكاره الفلسفية الطويلة إلى شعره ، وكثيرا ما استقرت هذه الأفكار فى صياغة شعره ، بل واستوعبت مجهودا واسعا فى تفكيره وتصويره .

ومن غير المعقول أن نطالب المتنبى بأن يخرج على هذه الطريقة وما كان يعجبه من الإغراب فى التفكير ومن ثم فى التعبير ؛ فما كان له وقد تثقف ثقافة عقلية واسعة ، ووقف على كل ما عرف لعصره من معارف وآراء ، وامتزج فى ثقافته اللغة والتشيع والتصوف والفلسفة إلا أن يذهب فى أسلوبه هذا المذهب ، وألا يترك مظهرا من مظاهر ثقافته إلا ويجمعها فى أساليبه ويسلكها فى عباراته، وإن كان لم يحول كثيرا من هذه الأفكار والعبارات الفلسفية التى نقلها إلى الشعر عن حقيقتها ، فأنت تحس أنه لم يحلها عن حقيقتها الفلسفية ، ولم يستخدمها استخداما فنيا فى شعره كما كان الحال عند أبى تمام مثلا .

* * *

أسباب لجوء المتنبى إلى الإغراب فى التعبير :

على أن التجاء المتنبى إلى الإغراب فى التعبير يمكن أن يعلل بأمور كثيرة منها :

عصره عصر ثقافة وتصنع :

فالعصر الذى عاش فيه وهو القرن الرابع عصر ثقافة واسعة ، وهو عصر تصنع أيضا ، وقد حذق بعض الأدباء والنقاد الثقافة الفلسفية واللغوية ، وقد شاع فى هذا الجو وبخاصة فى بيئة الأدباء والنقاد الدعوة إلى الغلو والمبالغة . ولذلك فمن الصعب

على أى شاعر أن نطالبه فى مثل هذه الظروف أن يخرج على ذوق معاصريه وما كان يشيع عندهم من إغراب ، وبخاصة إذا علمنا أن الإغراب كان يعد آية مهارتهم وبراعتهم . غير أن أحدا من الشعراء لم يبلغ فى ذلك ما بلغه المتنبى ، فكل قصائده لم تعبر فقط عن خواطر وجدانية ، ولكنها تعبر أيضا عن كل الثقافات التى فاض بها عصره .

فقد حاول أكثر من غيره أن يجارى العصر وبيئاته فى الأفكار والأساليب . يقول الدكتور شوقى ضيف : " فربما كان المتنبى خير الشعراء الذين جاءوا بعد أبى تمام فى استغلال الثقافات استغلالا فنيا ، فقد استطاع أن ينقل جانبا من حكم ارسططاليس يفسِّر الحياة ومشاكلها وخاصة ما اتصل بالناس وطبائعهم ، مما أعطى لشعره مسحة من الروعة ، وهو كذلك حين ينقل عن التصوف أو التشيع كان يريد أن يحول هذه التعبيرات المذهبية إلى تعبيرات فنية ، وكأنى به كان يريد أن يستوعب فى شعره كل ثقافة وكل فلسفة " (١) .

ثم يقول : " والحق أن المتنبى خير شاعر فى القرن الرابع نهض بأعباء التصنع الثقافى ، إذ كان يوازن بينه وبين التعبير الفنى ، فلم يسقط عنده الشعر العربى ، بل استمر له كثير من الروعة " (٢) .

ثقافته النحوية الواسعة :

ويمكن أن يعلل لإغراب المتنبى فى التعبير من جانب آخر وهو أنه كان مثقفا ثقافة نحوية واسعة . يقول البديعى فى كتابه الصبح المنبى : " وكان من المكثرين من نقل اللغة والمطلعين على غريبها ، ولا يسأل عن شئ إلا استشهد بكلام العرب من النظم والنثر ، حتى قيل إن الشيخ أبا على الفارس قال له يوما : كم لنا من الجموع على وزن فِعْلَى ؟ فقال له فى الحال حِجْلَى وظِرْبَى . قال الشيخ أبو على الفارس :

---

(١) الفن ومذاهبه فى الشعر العربى : ٣٥٠ .
(٢) المصدر السابق : الصفحة نفسها .

فطالعت كتب اللغة ثلاث ليال على أن أجد لها ثالثا فلم أجد » (١) .

وهذا يفيد أن المتنبى كان معنيا بالغريب ، وهو كعالم نحوى كان يغرم إغراما بالتراكيب الغريبة ، وكان يعتمدها فى صنع قصائده ، وقد يتصنعها حتى يستولى على إعجاب المثقفين من حوله ويجعلهم يتجادلون فيها ويختصمون . وقد جاء فى قصائده بكثير من التراكيب الكوفية الشاذة التى خالف بها المذهبُ الكوفى المذهب البصرى ، بل إنه كان يعمد إلى هذه الشواذ عمدا . ولعله من المعروف أن هذه التراكيب عدت من الشواذ ؛ لأن الناس آنذاك كانوا يشايعون المذهب البصرى ، وكانوا ينصرفون عن المذهب الكوفى ، ويعدون ما يأتى به شاذا ،وقلما يأخذون بشذوذات الكوفة ومسوغاتها فى التعبير .

ومثال ذلك ما رواه البصريون من أنّ أنْ المخففة من الثقيلة يجوز أن ينصب بها الفعل المضارع مذكورة أم محذوفة ، وذلك بعد عاطف تقدم عليه اسم خالص (أى غير مقصود به معنى الفعل) ، فإن كان الاسم غير صريح (أى مقصودا به معنى الفعل) لم يجز النصب ، وما ورد من ذلك فهو شاذ لا يقاس عليه (٢) ، إلا أن الكوفيين قد أجازوا النصب بإضمار أن .

وقد جاء المتنبى بصيغة نحوية شاذة فى بيت شعرى يقول فيه (٣) :

وتَـوَقَّـدَتْ أنفاسُنـا حتـى لقـدْ ... أشْفَقْـتُ تختـرقَ العـواذلُ بَيْننـا

أراد أن تخترق ، فحذف أن وبقى الفعل منصوبا .

ولم يقف المتنبى عند الشذوذ الكوفى فى النحو ، ولكنه تخطاه إلى شذوذ نحوى آخر أوسع منه ، وكأنه مغرم بكل شذوذ لغوى . انظر إليه تراه يأتى بألف الإثنين مع الفعل الرافع للظاهر ، على أن يكون ما بعد الفعل مرفوعا به ، وما

---

(١) ص ١٢٣ . وانظر كذلك معاهد التنصيص : ١ / ٣٠ .
(٢) انظر شرح ابن عقيل : ٢ / ٣٥٧ - ٣٦٢ .
(٣) الديوان : ٤ / ١٩٦ .

اتصل بالفعل من الألف إنما هو حرف يدل على تثنية الفاعل ، بل على أن يكون الاسم الظاهر مبتدأ مؤخرا والفعل المتقدم وما اتصل به فى موضع رفع به والجملة فى محل رفع خبر عن الاسم المتأخر ، وهذه لغة غريبة ونادرة وقد عبر عنها النحويون بلغة " أكلونى البراغيث " (١) .

يقول المتنبى فى مدح له (٢) :

نَفديـك مـن سَيْـلٍ إذا سُئـلَ النَّـدى ... هَـولٍ إذا اخْتَلَطـا دَمٌ ومَسيـحُ

وما ذكرناه قليل من كثير أورده ابن الأنبارى فى كتابه الإنصاف ، وقد أورد الدكتور شوقى ضيف(٣)مجموعة من تراكيب المتنبى الشاذة والتى ذكرها ابن الأنبارى فى كتابه .

تصنعه للفلسفة فى شعره :

ويمكن كذلك أن نعزى لجوء المتنبى إلى الإغراب فى التعبير أنه كان ينشد الفلسفة ، وكان يتصنعها ، فقد لزم أبا الفضل الكوفى ،وكان من المتفلسفة ، ودرس عليه الفلسفة ، وقد نعم كذلك بالفلاسفة الذين جذبهم سيف الدولة أمثال الفارابى ، ولا نشك أن المتنبى قد أفاد من محاضراته فى الفلسفة .

وكم كان المتنبى يود أن يسير على الدرب الذى مهده أبو تمام ، فيستخدم الفلسفة استخداما فنيا خاصا ،ويخرج من ثم شعره يعتمد اعتمادا كليا على العقل المتفلسف والصياغة الفلسفية ، لكنه وقد خانه ذلك فى التفكير نراه يرغب أن يحققه بصورة كبيرة فى الأسلوب والصياغة ، فأخذ يتأثر بالقوالب الفلسفية ، وراح يقلد الفلاسفة فى أساليبهم الملتوية ، وينقل تعابيرهم إلى قصائده ونماذجه ، كى يقال إنه ترك الصيغ الثابتة إلى صيغ أخرى جيدة ، ولم يقف عند هذا الحد ، بل أخذ يقترض

---

(١) انظر شرح ابن عقيل : ١ / ٤٦٧ - ٤٧٣ .

(٢) الديوان : ١/ ٢٥٣ .

(٣) انظر الفن ومذاهبه فى الشعر العربى : ٣٣٧ ، ٣٣٨ .

الأفكار التى تحملها قوالبهم وراح يصوغها فى عبارات لا عهد للعربية بها قبل إلا فيما ندر وقل ، عبارات فيها من الخلل واللف والدوران ، وتداخل الأفكار ما يجعلها غريبة .

وقد أودع المتنبى كل هذا جانبا من سر تفوقه وبراعته ، ولذلك قال عن شعره مخاطبا سيف الدولة (١) :

وما الدهرُ إلا من رُوَاةِ قلائدى .·. إذا قُلتُ شعراً أصبح الدهر مُنْشِدا

أجِزْنى إذا أُنْشِدْتَ شعراً فإنما .·. بشعرى أتاكَ المادحون مُرَدَّدَا

وَدَعْ كُلَّ صَوْتٍ غيرَ صوتى فإننى .·. أنا الصائحُ المحكىُّ والآخَرُ الصَّدَى

فالمتنبى يحتال احتيالا شديدا على الأسلوب الفلسفى . انظر إليه يمدح سيف الدولة ويذكر العقبات التى حالت دون غزوه خَرْشَنَة (٢) :

فَتَى يشتَهى طول البلاد وَوَقْتُهُ .·. تضيقُ به أوقاتُهُ والمقاصِدُ

فأنت حين تقرأ البيت تظن لأول وهلة أن به غرابة وتعقيدا ، والحقيقة أنه ليس كذلك وإن كان ما به يشبه الغرابة والتعقيد ، فهو يقول إن الأوقات تضيق بوقت ممدوحه عما يريد من الأمور ، ومقاصده فى البلاد تضيق عن حيله ، إنها لغرابة يسوقها المتنبى باستعماله للتعبير الفلسفى الذى ساقه ، لأنه يجعل جزء الشئ أكبر منه ، وكأنه يتمنى أن تكون البلاد أوسع مما هى فيه ، وأن يكون الزمان أطول وأوسع، لأن الأوقات تضيق بوقت صاحبه .

ويقول من قصيدة يمدح بها أبا على هارون بن عبد العزيز الأوارجى الكاتب ، وكان يذهب مذهب التصوف (٣) :

وَلجُدْتَ حتى كِدْتَ تبخَلُ حائلا .·. للمُنْتَهَى ومن السرور بُكاء

---

(١) الديوان : ١ / ٢٩٠ ، ٢٩١ .

(٢) الديوان : ١ / ٢٧٥ .

(٣) الديوان : ١ / ٢٩ .

فهو يريد أن ممدوحه قد بلغ فى الجود منتهاه ، غير أنه طلب شيئا آخر وراءه فلم يجد فكاد يتحول ويرجع عن آخره إلى ما انتهى فيه ، إذ ليس من شأنه أن يقف فى الكرم عند غاية ، بمعنى أن الإنسان إذا تناهى فى الجود كاد أن يعود إلى البخل، وأكد هذا بقوله : (ومن السرور بكاء) .

ثم يقول فى نفس القصيدة (١) :

ولكَ الزمانُ من الزمان وَقايةٌ ... ولكَ الحِمامُ من الحمام فِداءُ

فهو يجعل الزمان يقى من الزمان ، ويجعل كذلك الحمام يفدى من الحمام ، فما هو الزمان الأول وما هو الزمان الثانى حتى يجعل أحدهما يقى من الآخر ، وما هو كذلك الحمام الأول ، وما هو الحمام الثانى حتى يكون أحدهما فدى من الآخر ، وكأنه يتمنى أن يهلك الزمان دون أن يهلك ممدوحه ، وأن يموت الحمام دون موت ممدوحه ، وهذا من المبالغة فى الدعاء .

إنها فكرة فيها دوران ولف كما يقول الفلاسفة ،وعلى هذا النمط نرى كثيرا من أساليب المتنبى ، فهى تسلك مسلك الفلسفة فتتشابك وتتداخل ، إن هذا أمر يدل على أثر الثقافة الفلسفية التى تثقفها المتنبى ، وهو الفارق الذى بينه وبين غيره من شعراء عصره ممن لم يتثقفوا هذه الثقافة .

وهنا نقطة لا محيد من الإشارة إليها وهى أن المتنبى وإن جاء فى شعره بهذه الصيغ الفلسفية لكنه اقتصر على ظاهرها ، ولم يستطع أن يستخدمها استخداما فنيا ، ولم يحدث بها طرافة على نحو ما فعل شاعرنا أبو تمام ، وإنما انصب تأثيره على الجانب الشكلى فحسب ،جانب العبارات والتراكيب ، ويندر أن تصادف هذه العبارات الفلسفية تفاعلا مع تفكيره ، بل إن أفكاره ومعانيه ماتزال تمت إلى القديم ولم تنفصل عنه .

---

(١)الديوان : ١ / ٣١ .

ولننظر إلى جملة أبيات من مدحه لأبى على الأوارجى لنرى من هذه الأبيات أن الشاعر حريص كل الحرص على ألا يدع المذهب القديم الذى ألفه الشعراء ، ولكنه مع احتفاظه بالمذهب القديم وبالشكل التقليدى نراه يغير الأسلوب ، فيحمل ألفاظه أعباء ثقالا ، ويسرف فيها إسرافا شديدا ، ولسنا فى حاجة إلى أن نعلل مسلك الشاعر إلا بتعمده اصطناع مذاهب الصوفية واستعارته لألفاظهم ومعانيهم .

يقول (١) :

لَعَمَمْتَ حتى المُدْنُ منك مِلاءُ ∴ ولَفُتَّ حتى ذا الثناء لَفاءُ
وجُدْتَ حتى كِدْتَ تبخل حائلا ∴ للمنتهى ومن السرور بكاء
أبْدَأْتَ شيئا منك يُعْرفُ بَدْؤُهُ ∴ وأعَدْتَ حتى أنكر الإبْداءُ
فالفخر عن تقصيره بك ناكبٌ ∴ والمجد من أن تُسْتَزَادَ براءُ
فإذا سُئلت فلا لأنك مُحْوجٌ ∴ وإذا كُتِمْتَ وشت بك الآلاء
وإذا مُدِحْتَ فلا لتكسب رفعة ∴ للشاكرين على الإله ثناء
وإذا مطرت فلا لأنك مجدب ∴ يُسْقَى الخصيبُ وتمطرُ الدأماء
لم تحك نائلَكَ السحابُ وإنما ∴ حُمَّتْ به فصبيبُها الرُّحضاء
لم تلق هذا الوجه شمسُ نهارنا ∴ إلا بوجه ليس فيه حياء
فبأيما قدمٍ سعيت إلى العلا ∴ أُدُمُ الهلال لأخمَصَيْك حِذاءُ
ولك الزمان من الزمان وقاية ∴ ولكِ الحمام من الحمام فداء
لو لم تكن من ذا الورى اللّذْ منك هو ∴ عَقِمَتْ بمولد نسْلها حواءُ

---

(١) الديوان : ١ / ٢٩ - ٣١ .

ولعل أظهر جانب من جوانب شعر المتنبى التى كان يعتمد فيها على الأفكار والعبارات الفلسفية هو شعر الحكمة ، فلم يكن يصدر هذا الشعر عند المتنبى عن تجاربه الخاصة ولكنه كان يقوم فى كثير من أمره على عقل المتنبى المتفلسف ، وعلى صياغته الفلسفية ، وعلى تمثله للفلسفة اليونانية . هذا بالإضافة إلى استخدامه ضروبا من الأقيسة المنطقية التى كثيرا ما كان يغرم بها لما تحدثه فى الشعر من دوى وضجيج [١] .

وجدير بنا أن نقول إنه ليس هناك أدنى تعارض بين ما قررناه قبل من أن المتنبى كان يلح على العبارات الفلسفية الغريبة وبين قوله فى شعر له [٢] :

أنا الذى نظر الأعمى إلى أدبى ∴ وأسمَعتْ كلماتى مَنْ به صَمَمُ
أنامُ مِلْء جفُونى عن شَوَارِدِها ∴ ويسْهَرُ الخلقُ جَرَّاها ويختَصِمُ

فأغلب الظن أن المتنبى كان يتباهى أمام معاصريه من الأدباء والنقاد ، ولعله - وقد شغل الناس ، وملأ شعره الدنيا - لم يكن لينام وقد تمنى أن يكون أكبر شعراء العربية ، كما كان يحلم أن يستخدم الفلسفة استخداما فنيا ،وكيف ينام وقد قال عن نفسه يشتكى قلة النوم [٣] :

كأن الجُفُون على مُقْلَتِى ∴ ثِيابٌ شُقِقْنَ على ثاكِلِ

ولعل المتنبى كان يخاصم النوم لانشغاله عنه بالبحث عن الألفاظ والتراكيب الغريبة ، وبالسمات الفلسفية التى كان يتعلمها فى تفكيره وصياغته ، حتى يتخلص من الصيغ الفنية الثابتة ومن القوالب العتيقة ، وإلا فما الذى كان يشغله عن النوم ؟ وقد عرفنا أن كل همه كان ينصب على البحث عن صيغ جديدة للتعبير ، بل إن طموحه لم يقف عند هذا الحد ،ولكنه راح يستعير صيغ الفلاسفة ويحاول أن يجعل ذلك وسيلة رائعة من وسائل الزينة فى صناعته ، كى يحقق لنفسه ما يريد من الجديد .

(١) انظر الفن ومذاهبه فى الشعر العربى د. شوقى ضيف : ٣٢٥ - ٣٢٨ .
(٢) الديوان : ٣ / ٣٦٧ .
(٣) الديوان : ٣ / ٢٣ .

ومن يقرأ ديوانه يحس إحساسا واضحا أن شعر الحكم والأمثال الذى برع فيه المتنبى وتميز به ، وسبق أمثاله ، لم يكن يعتمد على تجارب الشاعر الخاصة ،ولكنه كان يعتمد فى جانب كبير منه على الفلسفة ، إذ كان المتنبى يأخذ أفكار المتفلسفة وآراءهم ويصوغها شعرا ، كما كان يأخذ أمثال الفلسفة اليونانية وحكم اليونانيين ،وينقل ذلك كله إلى الشعر العربى ، و قد تنبه إلى هذا الحاتمى فكتب رسالة وتناول فيها هذا الوجه بالتحليل والشرح ، بل إن العكبرى فى شرحه لديوان المتنبى كثيرا ماكان يقول هذه العبارة : " إنه يشير بذلك إلى قول المتفلسفة " .

يضاف إلى ذلك أنه كان يعنى بأقيسة المنطق ، وكان يكثر منها فى شعره ، وكثيرا ما كان يضيف إلى شعر الحكمة ضروبا من المقاييس المنطقية الدقيقة كى يكسبها الدوى والضجيج اللذين يريدهما ؛ لأن مثل هذه المقاييس تكسب الشعر ضربا من القوة فى التعبير والدقة فى التفكير .

ولنستمع إليه يقول متعشقا للدنيا عاتبا عليها (١) :

أرَى كُلَّنـا يَبْغـى الحيـاةَ لنفســه ... حريصـاً عليهـا مُسْتَهامـا بها صَبًّا
فحُـبُّ الجبـانِ النفـس أوْرَدَهُ التُّقَـى ... وحُبُّ الشجـاعِ النفس أوردَهُ الحَرْبـا

ونحن الآن نجد أنفسنا أمام سؤال لا محيد من الإجابة عليه وهو : هل كان المتنبى فيلسوفا ؟

وفى الإجابة عن ذلك نقول إنه ليس معنى أن المتنبى كان مغرما بأفكار المتفلسفةوآرائهم ، وكان يعمد إلى ذكر طائفة من الصيغ الفلسفية فى شعره ، ليس معنى ذلك أنه كان فيلسوفا ينتمى إلى عقيدة أو مذهب فلسفى .. كلا فهو لا يخرج عن كونه شاعرا ، وكل ماله بالفلسفة من صلة أنه تثقف ثقافتها ، وذهب يتصنع الأفكار الفلسفية ويحاول استيعابها ، كما حاول أن يتصنع العبارات الفلسفية ، وأن

---

(١) الديوان : ١ / ٦٥ .

ينقل كثيرا منها إلى الشعر ، وعلى هذا فمن الخطأ أن نبحث عن مذهب فلسفى ينتمى إليه المتنبى بحجة أنه تسربت إليه الثقافة الفلسفية ، وقد نقل أفكار الفلاسفة وآراءهم ، ومن الخطأ كذلك أن نقوم عقيدته على أساس من هذه الأفكار التى جاء بها فى أبياته ، لأنه لم يتخذ هذه الأفكار مذهبا وإنما كل ما فى الأمر أنه كان يتصنعها فى شعره ، وإلا فمن السهل على كل باحث أن يسمى أولئك الشعراء الذين عاصروا المتنبى أو كانوا قبله فلاسفة .

أثر التصوف والتشيع فى شعره :

ومرة نرى المتنبى – وقد حاول البحث عن وسائل جديدة فى التعبير – يستفيد من اتصاله بالشيعة والمتصوفة، فيحاول أن يعتمد على كثير من ألفاظهما وأساليبهما كما كان يعتمد على أفكارهما، وهذه الألفاظ وتلك التراكيب التى اقترضها المتنبى من كل أولئك لا عهد للشعر ولا للفن بها ، وليست مما تلائم طبيعته .

وفى رأيى أن التجاء المتنبى إلى هذه الألوان من الأساليب قد بعث فى أسلوبه حالة من الغلو والمبالغة وبخاصة حين يمدح أصحابه ، فأنت إذا قرأت قصيدة من قصائده التى يمدح بها أصحابه يخيل إليك أنه – لإغرابه وإفراطه فى المدح ، ولسلوكه مسلك المتشيعة فى المبالغة – لكأنما يمدح قطبا من أقطاب الشيعة أو إماما من أئمتهم .

فهذه أبيات من قصيدة يمدح فيها محمد بن رزيق الطرسوسى، يقول فيها (١):

لَوْ كانَ ذو القَرْنَيْنِ أعملَ رأيَهُ ∴ لمَّا أتى الظُّلُماتِ صِرْنَ شُمُوسا
أو كانَ صادفَ رأسَ عازَرَ سَيْفُهُ ∴ فى يومِ معركةٍ لأعْيا عيسى
أو كانَ لُجُّ البحرِ مِثْلَ يمينِهِ ∴ ما انشَقَّ حتى جازَ فيه موسى
أو كانَ للنيرانِ ضَوْءُ جبينِهِ ∴ عُبِدَتْ ، فصارَ العالمُونَ مَجُوسا

---

(١) الديوان : ٢ / ١٩٨ ، ١٩٩ .

ونحن إن لم نذكر اسم صاحب المتنبى الذى قيلت فيه هذه الأبيات لظن القارئ أن هذه الأبيات إنما قيلت فى إمام من أئمة الشيعة أو فى نقيب من نقبائهم .

ولعل المتنبى كان يطلع على كثير من الملل والنحل ، يشير إلى ذلك بيته الذى يقول فيه (١) :

تَمَتَّعْ مِنْ سُهادٍ أوْرُقادٍ .·. ولا تَأمَلْ كَرىً تحتَ الرِّجامِ
فإنَّ لثالثِ الحالَيْن مَعْنى .·. سِوى مَعْنَى انتباهِكَ والمنامِ

ولا شك أن المتنبى كان قد اطلع على علوم التصوف ، وكان قد درس التصوف على الأوارجيّ ، ولذلك كان ينزع فى شعره منزعا صوفيا يحاول أن يجدد به فنه ، لدرجة جعلت الدكتور شوقى ضيف يقول : " إن المتنبى هو خير شاعر يصور لنا أساليب المتصوفة فى القرن الرابع ، وأنه يبلغ من ذلك مالا يبلغه الحلاّج والشِّبْلى والجنيد وغيرهم من متصوفة هذا القرن " (٢) .

وهذا لأن المتنبى كان يحكى بعباراته كل صنيعهم ، ويصور فى أساليبه كل صورهم ، حتى ليحار الشخص ويظن أن المتنبى كان صوفيا ، والحقيقة أنه لم يكن متصوفا وإنما كان متصنعا لهذا التصوف ، فلو أنه كان متصوفا لما بالغ فى هذا التقليد ، ولما بلغ هذا المبلغ فى محاكاتهم ، لقد بلغ فى ذلك مالم يبلغه المتصوفة الأصليون .

ولاشك أن المتنبى بصنيعه هذا يكون قد أسلم شعره إلى صعوبات فى التركيب، وهى صعوبات كانت تميز أساليب المتصوفة فى هذا العصر ، لأن اللغة لم تكن قد اتسعت بعد لتساير أفكارهم ومعانيهم .

---

(١) الديوان : ٤ / ١٤٩ .
(٢) الفن ومذاهبه فى الشعر العربى : ٣٢١ ، ٣٢٢ .

وله قصيدة بعنوان " الأوارجى " وهذه القصيدة هى النموذج الأمثل لشعر المتنبى الذى سلك فيه مسلك المتصوفة والمتشيعة فى اللجوء إلى الرمز والإيماء من أجل إرضاء ممدوحه الصوفى . وهى من ناحية أخرى تكشف لنا عن تأثره بالمتصوفة والباطنية فى صرف الألفاظ على غير ظاهرها ، واستخراج معانى أخرى لم تكن لتفهم من ظاهر اللفظ .. هذا إلى إكثاره فى القصيدة من الضمائر وأسماء الإشارة ، وحروف النداء ، والتصغير (١) ، وغير ذلك من الأشياء التى تضفى على تعبيرات المتصوفة الانحرافات والالتواءات . وقد جاء البديعى فى كتابه الصبح المنبى بعيب للمتنبى فى التعبير وهو يدعى " الاستكثار من ذا " واستعرض مجموعة أبيات شعرية له ثم قال يعقب على استكثار الشاعر من ذا : " فهو كما تراه سخافة وضعف ، ولو تصفحت شعره لوجدت فيه أضعاف ماذكرناه من هذه الإشارة ، وأنت لا تجد منها فى عدة دواوين جاهلية حرفا " (٢) .

ومن الإنصاف أن نقول إنه كان للتصوف أثر أوسع فى شعره من أثر التشيع ، ففى كل مكان من الديوان نجد أثرا لأفكار الصوفية ومعانيهم ، فهل دعواه السقم والنحول التى تقابلنا كثيرا فى شعره إلا أثر من آثار هذه الصوفية ، وأنه يستطيع أن يقترض من الصوفية أفكارهم وأساليبهم الخاصة ، ليس هذا فحسب بل إننا لنجده يتحدث حديث المشعوذين من المتصوفة (٣) .

وفى أشعاره أبيات أخرجها إخراجا صوفيا ، فهو يبالغ مبالغة المتصوفة الذين يذهبون إلى أنه ليس فى الوجود إلا الله سبحانه وتعالى وأن ماعداه خيال لا حقيقة. يقول (٤) :

كَبُـرَ العيـانُ علـىَّ حـتى إنـه .·. صـار اليقيـنُ مـن العيـان تَوَهُّـما

(١) انظر ص ١٤٩ من " الظواهر اللغوية والنحوية فى شعر أبى الطيب المتنبى " رسالة ماجستير ، محمد عزت عبد الموجود . مكتبة جامعة القاهرة ١٩٦٢ ، ١٩٦٣ م .
(٢) الصبح المنبى ص ٣٧٤ ، ٣٧٥ .
(٣) انظر الفن ومذاهبه فى الشعر العربى د. شوقى ضيف ٣١٤ .
(٤) الديوان : ٣٢/٤ .

نزعته التشاؤمية :

هذا إلى جانب أن المتنبى قد بدت فيه منذ حداثته نزعة شديدة إلى التشاؤم والثورة على الدهر والناس ، وهذا أمر يبدو واضحا فى ديوانه وبخاصة فى قصائده التى توجه بها إلى كافور مدحا أو هجاء .

وهذه النزعة جعلته يثور ثورة شديدة على الدنيا وعلى الناس ، كما جعلته يرفع نفسه على من حوله من الناس ، بل ويزدريهم ويحقد عليهم حقدا شديدا ، بل إنه ليحقد على الزمن ويستعمل المبالغة فى ذلك ، وغالبا ما تكون مبالغاته للتحقير.

وقد يمزج شكواه الخاصة بنفسه ،وبأفكاره عن المجتمع وأخلاق الناس بنزعته التشاؤمية . استمع إليه يقول (١) :

رَمانى الدهرُ بالأرزاءِ حتى .·. فؤادى فى غشاءٍ مِنْ نبالِ
فصِرْتُ إذا أصابتنى سِهامٌ .·. تكسّرتِ النِّصالُ على النصالِ

وانظر إلى تطيره الذى فرض نفسه عليه حتى جعله يستفتح فى مدحه لكافور بذكر الداء والموت والمنايا . يقول (٢) :

كَفَى بكَ داءً أن ترى الموت شافيا .·. وحَسْبُ المنايا أنْ يَكُنَّ أمانيا

وهذا الجانب من التشاؤم هو الذى جعله يقول عن الدهر (٣) :

وما الدهرُ أهلٌ أن تُؤَمَّلَ عندهُ .·. حياةٌ وأن يُشْتَاقَ فيه إلى النَّسْلِ

ولعل نزعته التشاؤمية ، وازدراءه للناس وللأشياء وتحقيرها ، لعل ذلك كله هو السبب فى كثرة استعماله للتصغير فى أبياته الشعرية ، فهو يصغر حبيبته وكأنه

---

(١) الديوان : ٣ / ٩ .
(٢) الديوان : ٤ / ٢٨١ .
(٣) الديوان : ٣ / ٥٢ .

يقربها من قلبه فيقول (١) :

إذا عَـذَلـوا فيهـا أجَبْـت بأنَّـةٍ .·. حُبَيِّبتـا قلبـا فـؤادا هيـا جُمْـلُ

بل إنه أتى فى أشعاره بأمثلة كثيرة لشواذ التصغير ، إذ نراه يصغر فعل التعجب فيقول (٢) :

أيـا مـا أحَيْسنها مُقْـلةً .·. ولـولا الملاحَـة لـم أعْجَـبِ

تعميمه المبالغة فى شعره :

ويمكن أن يضاف إلى ذلك أن ما شاع عند المتنبى من مبالغة وغلو ينطوى فيه جانب آخر يمكن أن يعلل لإغراب المتنبى فى التعبير ، ذلك أن المتنبى قد عمم المبالغة فى شعره ، وتسربت إلى جميع موضوعاته وأخذ يفرط فى ذلك حتى أصيب بالسقوط أحيانا فى بعض الأساليب ،وهبطت أساليبه إلى مستوى دون المستوى الطبيعى ، فالشئ دائما إذا زاد عن الاعتدال وخرج عن حدوده لا يكون إلا صناعيا.

التكرار :

ومن إغراب المتنبى فى التعبير أن تركيبه قد يشتمل أحيانا على التكرار وتتابع الإضافات وهذا التركيب مع فصاحته إلا أن التكرار الذى فيه من شأنه أن يسئ إلى جمال النظم ورشاقة إنشائه . فما رأيك فى تتابع حروف الجر والضمائر فى قوله (٣) :

وتُسْعِدُنى فى غَمْرةٍ بعدَ غمـرة .·. سَبُـوحٌ لهـا منهـا عليهـا شَـوَاهِدُ

والمتنبى يريد أن فرسه الكريم يعينه على شدائد الحرب ، ويشهد بكرمه شواهد يراها الناظر إليها فيعرف بها أنه كريم الأصل . وليس يخفى أن تكرار حروف الصلات

---

(١) الديوان : ٣ / ١٨٢ .
(٢) الديوان : ١ / ١٤٧ .
(٣) الديوان : ١ / ٢٧٠ .

والرباطات فى موضع واحد أفضى إلى ثقل الكلام على اللسان .

يقول أبو هلال العسكرى : " ولا أعرف أحدا كان يتبع العيوب فيأتيها غير مكترث إلا المتنبى ، فإنه ضمن شعره جميع عيوب الكلام ما أعدمه شيئا منها حتى تخطى إلى هذا النوع فقال ، وذكر البيت " (١) .

عدم خصوصية التعبير :

ومن إغرابه عدم خصوصية التعبير ، إذ تتغلب الكلمات الرقيقة فى موطن يقتضى الجزالة والعكس ، وتتغلب ألفاظ المديح فى موطن الرثاء ، وكذا باقى الأغراض ، والشاعر البارع هو الذى يحسن استخدام ألفاظه ، فيضع الكلمة المناسبة فى المكان المناسب ، وهو الذى تكون ألفاظه صدى لما فى نفسه ، فإذا كانت نفسه ثائرة هائجة وجب عليه اختيار ألفاظ فخمة جزلة ، وإن كانت نفسه هادئة وجب تخير اللفظ الرقيق ، فاللفظ الجزل إذا وضع فى غير موضعه استحال جافا واستحالت الجزالة المستحسنة عيبا بغيضا ، وكذلك اللفظ الرقيق .

ولذلك فإن من إغراب المتنبى فى التعبير هو عجزه عن وضع التعبير المناسب فى الموضع المناسب ، ومن ذلك قوله (٢) :

أغـارُ مـن الزجـاجـة وَهْـيَ تجـرى ∴ عـلى شَفَـةِ الأمـير أبـى الحسيـن

فهو يغار من لمس الزجاجة لشفة الأمير ، وهذا كلام فى غير موضعه ، والشاعر غير دقيق فى هذا التعبير ، والسبب فى ذلك هو عدم الدقة فى اختيار ألفاظه ، وعدم التوفيق فى وضع الكلمة المناسبة فى المكان المناسب ، وتلك ظاهرة نفتقدها فى كثير من أشعار المتنبى .

---

(١) الصناعتين : ١٦٦ .
(٢) الديوان : ٤ / ١٩٣ .

إغرامه بالبديع :

ومن إغرابه فى التعبير إغرامه بالبديع ليظهر براعته اللفظية ومهارته فى النظم وقد وصل فى ذلك درجة كلفت سامعه وقارئه شططا . ومن يقرأ قصيدة المتنبى التى يمدح فيها عبيد الله بن فراسان الطرابلسى يقف بنفسه على ما تكلفه المتنبى من ألوان الجهد وفنون العناء ، وكأنه ليس لديه هم إلا نظم الألفاظ .

يقول (١) :

دانٍ بعيـدٍ محـب مبغـض بهـج ∴ أغـرّ حُلـوٍ مُمِـرٌ ليّـنٍ شـرسِ
نـدٍ أبـيّ غـرٍ واف أخـى ثقـةٍ ∴ جَعْـدٍ سَرِى نـهٍ نَدْبٍ رضىّ نَدُسِ

فالشاعر يأتى بالبديع متكلفا لكى يجمع لممدوحه كل هذه الأوصاف ، فالممدوح قريب من قاصديه ، بعيد عمن ينازعونه ، وهو محب للخير وأهله ومبغض للشر وأهله إلى آخر ما هنالك من الأوصاف التى يشتمل عليها البيتان .

ومن إغرابه فى التعبير أن أسلوبه أحيانا لا يأتى على نمط واحد ، أو على نظم متناسب ، فهو كما ذكر النقاد يجمع بين البديع النادر والضعيف الساقط ، وكعهدنا بالثعالبى يمدنا بالحكم العام على المتنبى فى كل مأخذ من مآخذه عليه ، ويمدنا أيضا بالشواهد الوافية التى بنى حكمه العام على أساس منها (٢) ، وإن اقتصر حين عرضه للشواهد على أبيات متفرقة فى ثنايا القصيدة من القصائد ، ورأى أن المتنبى فيها قد خانه التوفيق ، ولم يستطع أن يخرج بها متحدة النسج متجانسة السبك ، ولكننا بتتبع الثعالبى فى معرض التطبيق نجده يترك هذه القضية ويأخذ فى مناقشة بعض ألفاظ المتنبى وكلماته مما يجعلنا نقول إن الأمر فى حاجة إلى مناقشة وإلى إعادة نظر (٣) .

---

(١) الديوان : ٢ / ١٨٩ ، ١٩٠ .
(٢) انظر يتيمة الدهر : ١ / ٦٩ .
(٣) انظر المتنبى بين ناقديه فى القديم والحديث . الدكتور / محمد عبد الرحمن شعيب ص١٠٨ - ١١٣ .

الفصل الخامس
الإغراب في المعنى

تمهيد :

الواقع أن صناعة الكلام - نظما أو نثرا - إنما هي في الألفاظ لا في المعاني ، وإنما المعاني تبع لها وهي أصل ، فالمعنى لا يتجسم ولا يبرز بنفسه وإنما يبرز في قوالب من الألفاظ تمده بالتأثير وتحدد معالمه ، وهو - شريفا كان أم خسيسا - يستمد تأثيره من حسن الصياغة وأناقة التأليف .

وبقدر تمكن الشاعر وبراعته في الأداء ، وتملكه زمام التعبير يكون كشفه عن المعاني بإبرازها ناصعة جلية تقع من نفس السامع والقارئ موقعها من نفس المتكلم ، إذ إن التعبير ليس إلا أداة لنقل الصور المعنوية من نفس صاحبها إلى نفس القارئ أو السامع ، وعلى قدر استقامة الأداة وقوتها يكون نجاحها في أداء مهمتها ، وما مهمتها إلا نقل المعاني كاملة صحيحة من نفس إلى نفس ، فبقدر استقامة اللفظ تكون درجة المعنى .

يقول أبو هلال العسكري : " إن الكلام ألفاظ تشتمل على معان تدل عليها ويعبر عنها ، فيحتاج صاحب البلاغة إلى إصابة المعنى كحاجته إلى تحسين اللفظ ، لأن المدار بعد على إصابة المعنى ، ولأن المعاني تحل من الكلام محل الأبدان ، والألفاظ تجرى معها مجرى الكسوة ، ومرتبة إحداهما على الأخرى معروفة " [١] .

والابتكار في المعاني الشعرية ليس من قبيل الأسرار التي تقتضي دقة نظر وجهدا في فهمها ، وإنما هي معان بديعة وليس فيها ما يقتضي الخفاء [٢] ، وإلا لخفي كثير من معاني الشعراء المتقدمين ممن سبقوا إلى ابتكار المعاني مع أنه يندر أن نجد في أشعارهم ما غاص في الإبهام وحسرت من دونه الأفهام كما هو الحال في بعض شعر المتنبي .

---

(١) الصناعتين : ٧٥ .

(٢) انظر : النقد الأدبي ، تأليف الأستاذ أحمد أمين : ١ / ٤٦ وما بعدها . طبع ونشر مكتبة النهضة المصرية ، الطبعة الرابعة ١٩٧٢ م .

خفاء معانى المتنبى على فحول الأئمة والعلماء :

وقد أجاد المتنبى فى المعانى أحيانا ، ورصد من محاسنها ما يريده الأدباء والنقاد .. وهو مع ذلك قد أساء إليها أحيانا أخرى ،وقد أسرف فى الإساءة حتى إننا لنظن أنه قد تعمد الخروج على كل ما استحسنه الأدباء والنقاد ، ونصب نفسه بسبب ذلك هدفا لهم ولحملاتهم ،وقد خفى شعره حتى على رواته من الأدباء والعلماء ، ومايزال الناس يختلفون فى بعض معانيه إلى اليوم ، فأى شعر هذا الذى تخفى معانيه على الأدباء ، ويقف أمامه الناس حيارى مختلفين ، وما ظنتا بشعر حار فى فهمه الإمام الكبير ابن جنى مع ما اشتهر به من إسهام فى خدمة اللغة والأدب ، ومع ما عرف به من تمكن فى العربية وآدابها وبراعة فى إدراك معانيها وتفهم أسرارها .

يقول إبراهيم بن الشيخ ناصيف اليازجى : " والعجب أن كثيرا من خاصة الناس فضلا عن عامتهم ممن يذهبون إلى تفضيل المتنبى على سائر الشعراء يرون أنه إنما نال هذه المنزلة وانفرد بالمزية على غيره لخفاء معانيه ، وبعد مأتاها ، وكثرة ما يحتمل كلامه من وجوه التفسير وضروب التأويل ، وأنه بهذا فضل الشعراء ، وأشير إليه من بينهم بالتبريز والسبق ، حتى إن الواحدى رحمه الله مع وفرة فضله وطول باعه فى صناعة الأدب وسعة علمه بمذاهب الشعر يقول فى خطبة شرحه فى الكلام على المتنبى ما نصه على أنه كان صاحب معان مخترعة بديعة ، ولطائف أبكار منها لم يسبق إليها أنيقه ، ولهذا خفيت معانيه على أكثر من روى شعره من أكابر الفضلاء والأئمة والعلماء حتى الفحول منهم والنجباء كالقاضى أبى الحسن الجرجانى ، وأبى الفتح عثمان بن جنى ، وأبى العلاء المعرى ، وأبى على بن فورجه البروجردى رحمهم الله تعالى ، وهؤلاء كانوا من فحول العلماء ، وتكلموا فى معانى الشعر مما اخترعه وانفرد بالإعراب فيه وأبدعه ، وأصابوا فى كثير من ذلك وخفى عليهم بعضه ، فلم يبن لهم غرضه المقصود لبعد مرماه وامتداد مداه ، إلى آخر ما ذكره فى هذا المعنى وأشبع القول فيه وما أرى هذا الكلام منه إلا صدى للمشهور وحكاية للمتداول ، وإنما سبق السماع فيه الاختبار ، وغلب التقليد على صادق الاعتبار ، وإلا فليس ما ذكره من دقة معانيه واختراعها هو العلة فى خفاء تلك المعانى بدليل أنك متى شرحت معنى البيت بما هو من لفظه وبعبارة أخرى ، متى صورته باللفظ الذى حقه أن يصور

به ذهب خفاؤه مهما كان دقيقا ، وأشربه الفهم على غير كلفة ولا عناء .. " (١) .

وغير خاف أن للمتنبى أبياتا تشتمل على معان غزيرة ، ترضى العقل ، وتشبع النفس (٢) ، ومع ذلك فإن له كثيرا من أبياته تشتمل على معان لا تفهم بيسر وسهولة ، ولا يتبين القارئ معانيها للوهلة الأولى ؛ وفى رأيى أن ذلك يرجع فى المقام الأول إلى ما يعتور ألفاظه وصياغته من إغراب ، الأمر الذى جعل معانيه أحيانا تتجرد من باهر روعتها وبالغ تأثيرها ، وتستحيل إلى معنى مبتذل مهين لا تقبل عليه النفس ، ولا ترى فيه حسنا ، لأنه ليس تحت مثل هذه الصياغة كبير معنى ، فالمعنى الرائع تزول عنه روعته إذا فقد حسن الصياغة وجميل التعبير ، ونحن لا نجد معنى يختل لشاعرنا غالبا إلا من جهة اللفظ والصياغة وجريه فيهما على غير الواجب .

والمحمود من الشعر ما دل لفظه على معناه دلالة ظاهرة ، ولم يكن خافيا مستغلقا كتلك المعانى التى وردت فى شعر أبى الطيب المتنبى ،فمعانيه جملة تعد مثلا فى التعقيد والغموض ، ولذلك كثرت التآليف فى تفسير أبياته ، والشروح عليها ، وجلاء غوامضها ، وقصر كثير من أهل الأدب همهم على كشف ما التبس من معانيه ، والبحث عن غوامضه وخوافيه . والمتنبى بهذا كأنه قد خفى عليه أن الغرض من الشعر إنما هو ترجمة الخواطر ، والإبانة عما فى النفس ، وكأنه قد خفى عليه أيضا أن هذا الذى سبق لا يتحقق فى الشعر إلا بفهم معناه ووضوح دلالته .

على أن تحقق الشرط السابق وحده لا يكفى ، بل لابد معه من شروط أخرى تكفل للشعر التمكن فى النفوس ، والتغلغل فى أعماقها ، وأن يكون قوى التأثير فى نفوس القراء والسامعين على السواء ، ومن هذه الشروط مناسبة المعنى للغرض، وطرافته واستقامته ، ووفاؤه بما يراد منه ، وترك التصنع ، وبراعة الخيال كى يكون قادرا على أن يخلق من الصور الحسية المفردة ، ومن المناظر المبعثرة صورا مركبة لا

---

(١) العرف الطيب فى شرح ديوان أبى الطيب المتنبى للشيخ ناصيف اليازجى : ٢ / ٢٥٣ ، ٢٥٤ .
(٢) انظر الديوان بأجزائه الأربعة .

تقع صورة منها تحت الحس ، وهذا من شأنه يزيد المعنى جمالا ، ويكسبه قوة وروعة تأثير (١) .

وجملة القول أن الدعامة الكبرى فى المعانى وهى الوضوح تكاد تكون مفقودة فى شعر المتنبى ، فمعانيه كألفاظه ، وكسائر خصائصه الشعرية ، بل إن غموضه يكاد يكون طبعا فيه أو ما يشبه الطبع ، وديوانه فى مختلف نواحيه خير شاهد على ذلك .

ومن الطبيعى أن تكون أول عناصر الشعر الأفكار التى يتضمنها ، فالقصيدة تؤدى معنى كليا ، وكل بيت فيها يؤدى فكرة جزئية تتجمع مع غيرها لتؤدى إلى المعنى الكلى . ولكن المعنى فى الشعر لا يمكن أن يكون تقريريا مجردا شأن الفكرة الفلسفية أو العلمية ، بل هو يبرز من خلال وجدان الشاعر وينطبع بنظرته وتأثره النفسى .

وقد انفرد المتنبى بمعنى تصنع فيه حتى أخرجه عن المعتاد ، يقول (٢) :

مـــا بِـــهِ قَتْـــلُ أعاديـــه ولكـــن .·. يتَّقـــى إخـــلافَ ما ترجـو الذئـــابُ

فالشاعر يزعم أن ممدوحه لا يقتل أعداءه لشهوة فى القتل نفسه ،وهذا معنى حسن ، ولكنه تفلسف فأفسد المعنى حين أراد أن ينسب لممدوحه فضيلة أخرى ، وهى الوفاء ، فممدوحه بلغ فى رقة الحس درجة تجعله يخاف أن يخلف عادته مع الذئاب التى تتجمع على جثث قتلاه ، كما يتجمع الضيوف على وليمة ! وليس فى هذا المعنى أصالة بل هو تكلف سخيف .

فإذا كنا نقول إن الشاعر لا يُطلب منه أن يكون فيلسوفا ، فنحن أيضا لا نقبل منه أن يتلاعب بالمعانى والأخيلة ، وإنما المطلوب منه هو صدق التعبير عما

---

(١) انظر النقد الأدبى ، تأليف الأستاذ أحمد أمين : ١ / ٤٦ وما بعدها .

(٢) الديوان : ١ / ١٣٤ .

يشعر به .. هذه هى أصالة الشاعر ، بمعنى أن الشاعر إذا صدق فى التعبير عن مشاعره جاءت معانيه - لا محالة - متمايزة تحمل طابعه الشخصى .

والحق أن الشعراء لا يتمايزون فى أصول المعانى بل فى تفاصيلها ، وإنما يقع للشاعر من تفصيل المعنى ما يثير إعجابنا إذا كان المعنى صادرا عن تجربة ومعاناة ، فهنا تصبح للمعنى خصوصية .

التكلف الفنى :

وللمتنبى قصيدة همزية [١] مدح بها أبا على هارون بن عبد العزيز الأوارجى الكاتب الذى كان يذهب - كما تقول أبيات القصيدة - مذهب التصوف . وأكبر الظن أن لهذه القصيدة مكانة خاصة من شعر المتنبى ، فهى من جهة تعد على رأس القصائد التى يعمد الشاعر فيها إلى المذهب الرمزى ليرضى ممدوحه الذى كان يذهب مذهب التصوف ، وهى من هذه الجهة ذات قيمة ، لأنها تبين عن علم المتنبى بمذاهب المتصوفة فى الكلام ، ومنهجهم فى الرمز والإيماء ، ولأنها تظهر لنا مدى تقدم ملكة المتنبى الفنية نحو النضج ، وامتلاكه لناصية الفن ، وتمكنه من أن يصرف الفن كما يشاء ويهوى دون أن يجد منه مقاومة وامتناعا ، ثم إنها بعد هذا وذاك تكشف لنا عن براعة المتنبى فى هذا النحو من التكلف الفنى الذى كان مألوفا فى ذلك العصر ، والذى كان يعتمد قبل كل شئ على أوجه البديع ، كما تكشف لنا عن براعته فى تكلف آخر لم يكن مألوفا إلا عند المتصوفة الذين يقصدون بالألفاظ والمعانى غير ما يفهم منها أصحاب الظاهر من عامة الناس وخاصتهم .

وهذه القصيدة تنبئنا بأن الشاعر قد تكلف شيئا غير قليل من الجهد : جهد الفن ، وجهد العقل . وأنت إذا قرأت غزل هذه القصيدة ستقف على براعة الشاعر وقدرته على الملاءمة بين هذين الجهدين :

أمِـن ازديادك فى الـدجى الرُّقبـاء ... إذ حيث أنت مـن الظـلام ضيـاءُ

---

(١) انظرها فى الديوان : ١/ ١٢ - ٣١ .

قلقُ المليحــة وَهْـىَ مسك هتكهـا .·. ومسيرهـا فــى الليـل وهـى ذكـاء
أسفــى عـلى أسفــى الـذى دلَّهْتِنى .·. عــن علمـه فبـه عــلىَّ خفَـاء
وشكيَّتـى فقــد السقـــام لأنـــه .·. قــد كـان لمـا كـان لى أعضــاء

ولولا عدم الحاجة إلى الإطالة لاستقصيت أبيات هذه القصيدة من شعر المتنبى، ولدرستها بيتا بيتا ، ولحاولت أن أستنبط من هذا الاستقصاء وتلك الدراسة مدى ما لدى شاعرنا من تكلف فنى ، كى نتعرف على أصول فن المتنبى فى شئ من التفصيل والوضوح ، وأنه مضطر بحكم ما أخذ نفسه به من جهد إلى مثل هذا التكلف ، بل إنه سيمضى فيه ويستجيزه وإن أحس من الناس شيئا من الإنكار .

وينبغى أن نقول إن الذى يغفر للمتنبى إتيانه بمثل هذا التكلف أنه لم يفسد عليه شعره فى هذه القصيدة ، وإنما أضاف إليه جمالا قد لا نجده فى شعره العادى ، ومصدر هذا الجمال هو ما حاوله المتنبى من إيجاد تلاؤم بين طاقته العقلية وطاقته الفنية . فمع أننا نتكلف شيئا من الجهد فى فهم أبيات القصيدة وفى استنباط معانيها ، إلا أننا بعد كل هذا التعب نجد المعنى ظاهرا ، كل ما فى الأمر أن الشاعر رأى أنه تعب فى استنباط المعنى وأدائه فمن حقه أن يكلف القارئ والسامع شيئا من التعب فى فهم المعنى والوصول إليه . هذا إذا عرفنا أن الشاعر يقدم هذه القصيدة بين يدى ممدوحه الذى هو رجل من المتصوفة ، فلابد وأن يصطنع له مذهب المتصوفة فى الكلام والتفكير ، وأن يكون بارعا وقادرا على العبث بالألفاظ ، وعلى أن يلويها عن أساليبها الطبيعية الظاهرة .

كما أن له قصيدة ميمية (١) تعد من جياد قصائده ، وقد مدح بهذه القصيدة الأمير الإخشيدى الشاب ، وفضلا عن ذلك فالقصيدة تصور لنا فى الوقت نفسه تردد المتنبى بين مصر والشام تصويرا إن يكن بعيدا فهو مع ذلك واضح جلى .

والقصيدة كما نراها تنقسم إلى ثلاثة أقسام :

---

(١) انظرها فى الديوان : ٤ / ١١٠ - ١١٧ .

يبدأ الشاعر القسم الأول منها بنسيب مصنوع متكلف ، والتكلف ظاهر لا فى معناه فحسب بل فى معناه ولفظه أيضا . وأنت واجد هذا التكلف فى مطلع الأبيات(١):

أنا لائمى إن كُنْتُ وقت اللوائم .·. علمت بما بى بين تلك المعالم

فأنت واجد فيه طبيعة المتنبى كلها التى سيصورها شعره من تكلف لفظا ومعنى، ثم ما رأيك فى هذا الحذف الذى اصطنعه الشاعر بين المضاف والمضاف إليه فى آخر الشطر الأول من البيت،ثم ما رأيك فى هذه الملاءمة اللفظية بين " لائم " و " اللوائم"، وبين "علمت "و " المعالم "؟..إننا لانرى أن هذه الملاءمة قد أحدثت المطلوب منها كما هو الحال عند شاعر العربية أبى تمام ، والمتنبى مع تكلفه لهذه الملاءمة إلا أنه يفتقد أيضا العذوبة اللفظية التى تحبب إلى السامع والقارئ هذا الفن البديع .

وما أريد أن أمضى على هذا النحو فى تحليل القصيدة كلها ، ولكنى أدع لك قراءة ما يلى المطلع من الأبيات حتى تقف بنفسك على ما فيها من ذوق غليظ يصنع الحب والغرام صنعا ، ويريد أن يكره أذواق الناس على قبول ما يصنع .

يقول (٢) :

حسان التثنى ينقشُ الوشىُ مثلَه .·. إذا مِسْنَ فى أجسامهن النواعم

ويبسِمْنَ عن در تقلدن مثله .·. كأن التراقى وُشِّحت بالمباسم

ومن يدرى ! لعل المتنبى وبعض المعجبين بشعره كانوا يجدون فى مثل هذا التصرف ، وفى مثل تلك التشبيهات الغريبة جمالا وظرفا ، أما أنا فلا أرى فى تشبيهه هذا إلا إغرابا ينتهى إلى السماجة .

ومن إغرابه فى المعانى ذلك التصنع الذى يجعلنا نحس أن المعنى ليس عفو الخاطر ،ولكنه جاء نتيجة لكد الذهن وإرهاقه .

---

(١) الديوان : ٤ : ١١٠ .
(٢) الديوان : ٤ / ١١١ .

فحين أنشد سيف الدولة قصيدته التي أولها (١) :

وَفَاؤُكُمَا كالرَّبْعِ أَشْجَاهُ طَاسِمُهْ ∴ بأنْ تُسْعِدَا والدَّمْعُ أشْفَاهُ ساجِمُهْ

نجده يقول مبالغا (٢) :

لَهُ عَسْكَرَا خيلٍ وطيرٍ إذا رمى ∴ بها عسكرا لم يَبْقَ إلا جَمَاجِمُهْ

أجِلَّتُها من كل طاغٍ ثيابُهُ ∴ وموطئها من كل باغٍ ملاغمُهْ (٣)

فَقَدْ مَلَّ ضوءُ الصبحِ مما تُغيرُهُ ∴ ومَلَّ سوادُ الليلِ مما تُزَاحِمُهْ

وَمَلَّ القنا مما تَدُقُّ صُدورَهُ ∴ ومَلَّ حديدُ الهِنْدِ مما تُلاطِمُهْ

سَحابٌ من العِقبانِ يزْحَفُ تحتها ∴ سَحابٌ إذا استَسْقَتْ سَقَتْها صَوَارِمُهْ

فهو يقول إن لسيف الدولة عسكرين ، أما العسكر الأول فهو الخيل ، وأما العسكر الثانى فقد ادعى أنه الطير التى تصحب عسكره الأول عادة لتقع على قتلى أعدائه ، وتأكل من لحومهم ، كما أنه يسلب ثياب الطغاة والمخالفين من الروم ، ويجعل أجلة خيله من هذه الثياب ، كما أنه يجعل موطئ حوافر خيله وجه كل من بغى منهم ، وهذه فيما نرى غاية فى المبالغة ، إذ كيف يتم له ذلك إلا بعد الإمعان فى قتلهم ، وبلوغ الغاية من الظهور عليهم .

ويستطرد المتنبى فيقول إن الصبح قد ملّ وسئم من كثرة مباغتتك لأعدائك فيه ، ومل أيضا الليل مزاحمتك له ، ومن بلوغك كل موضع يبلغه ، وكذلك الحال مع الرماح والسيوف ، فرماح الأعداء قد ضجرت من دقك أعاليها ، وسيوفك قد ملت مما تلاطمه ، ثم يجعل العقبان التى تطير فوق عسكر سيف الدولة سحابا ، ويجعل الجيش لما فيه من بريق الأسلحة وصب الدماء سحابا آخر من تحتها ، وإغرابا فى

---

(١) الديوان : ٣ / ٣٢٥ .

(٢) الديوان ٣ / ٣٣٦ - ٣٣٨

(٣) الأجلة : جمع جُلّ . والملاغم : ما حول الفم ، والواحد مَلْغَم ، وملغمت المرأة : إذا تطيبت حول الفم.

الصنعة نراه يجعل سحاب جيشه يسقى سحاب العقبان دماء القتلى مع أن السحاب لا يسقى ما فوقه عادة ، ثم إن الجيش ليس سحابا حقيقة ، وإنما أقيم مقام السحاب ، فكيف يصح له أن يسقى ما فوقه ، علما بأن الطير لا تصيب من القتلى ما تصيبه وهى فى الجو ، وإذا كانت تهبط إلى الأرض لتأكل من لحوم القتلى فالسحاب الذى يسقى يكون فوقها لا تحتها .

فأجزاء المعنى الذى أراده المتنبى فيها تفكك كما أن فيها تعارضا وتناقضا ، والمناسبة بين المعانى المتصلة بالصورة فى الأبيات واهية ضعيفة . وفى رأيى أن المتنبى وقد نقل بيته الأخير من قول حبيب [١] :

وقد ظُلِّلَتْ عقبانُ أعلامه ضُحىً ∴ بعقبان طيرٍ فى الدماء نَواهلِ
أقامتْ مع الراياتِ حتى كأنها ∴ من الجيش إلا أنها لم تقاتلِ

إنما أخذ المعنى الذى عرض له وجعله فى بيته ، وأسرف فيه من غير حاجة ، فلا تفصيل ، ولا تعليل ، ولا تحليل ، ولا ربط ، ولا تناسب ، وكان من الممكن أن يجعل هذا المعنى الذى نقله شيئا جديدا أو كالجديد ، وأن يعرضه علينا عرضا طريفا مستساغا ، لكن حظه فى ذلك كحظه فى ألفاظه وتراكيبه .

إغرابه فى المعنى بقصد التفخيم والمبالغة :

ومما يتصل بعيوبه المعنوية إغرابه فى المعنى بقصد التفخيم والمبالغة ، حتى ولو جعله ذلك يتجاوز حد الاعتدال ، وينتقل إلى حيز المحال .

يقول مادحا سيف الدولة بحضرة الجيش [٢] :

وإنّا إذا ما الموتُ صرّحَ فى الوَغَى ∴ لبِسْنا إلى حاجاتنا الضَّرْبَ والطَّعنا
قَصَدْنا له قَصْدَ الحبيبِ لِقاؤُهُ ∴ إلينا ، وقُلْنا للسيوف هَلُمِّنَا

---

(١) ديوان المتنبى : ٣ / ٣٣٩ . هذا وقد جاء البديعى فى كتابه " الصبح المنبى " بأبيات المتنبى السابقة الذكر ، وذكر أن بيته الأخير مأخوذ من قول أبى تمام وذكر بيتى حبيب المذكورين (الصبح المنبى ص ٧٦) .

(٢) الديوان : ٤ / ١٦٦ .

فهو يقول إذا صار الموت صريحا خالصا فى الحرب ، بارزا ليس دونه قناع ، توسلنا إلى ما نطلب ونريد من الحوائج ، فنلبس الضرب والطعن ، لنضرب بالسيوف ونطعن بالرماح ، ولنتقى بهما الأعداء كما يتقيها غيرنا بالدروع .

ومن ضمّ الميم فى (هلمنا) : بمعنى هلمى إلينا ، يكون قد أخرج ما لا يعقل مخرج من يعقل للمبالغة ، وليس ذلك جائزا لأنه خاطب السيوف مخاطبة من يعقل .

والحقيقة أن للمتنبى من هذه المبالغات نصيبا وافرا لا يكاد يجاريه فيها أحد ، وقد يكون له بعض العذر فى ذلك ، فهو يتكسب بشعره غالبا ، ويتخذه وسيلة لتحقيق مآربه وطموحاته التى لا تقف عند حد والتى فاق بها أقرانه ، وليس بدعا أن يفوقهم كذلك فى المبالغة ، فهى الوسيلة الناجعة لاستنزاف العطايا والهبات .

ومن مبالغات المتنبى ما قاله يرثى به نفرا من أقرباء سيف الدولة وخاصته . ولم يكن بد للمتنبى من أن يقول فى ذلك شعرا ، نهوضا بما يجب أن ينهض به شاعر الأمير من العزاء والرثاء ، ووفاء بما يجب أن يفى به الصديق للصديق من حقوق المودة والحب والإخاء ، فقد رثى المتنبى أم سيف الدولة ، وابنه ، وأختيه ، وابن عمه، وخادمه التركى .

وقد ماتت أم سيف الدولة فى السنة التى اتصل فيها المتنبى بسيف الدولة ، فرثاها المتنبى بقصيدة لامية مطلعها (١) :

نُعِدُّ المَشْرَفيةَ و العوالى .·. وتقتُلُنا المَنُون بلا قتال

ومن مبالغات الشاعر فى هذه القصيدة قوله (٢) :

ولو كان النساء كمن فقدنا .·. لفضلت النساء على الرجال

وما التأنيث لاسم الشمس عيب .·. ولا التذكير فخر للهلال

---

(١) الديوان : ٣ / ٨ .

(٢) الديوان : ٣ / ١٨ .

ففي معنى هذين البيتين تكلف وتأنق جعلا الشاعر يقدم في رثائه لأم سيف الدولة دعواه ، ويخرج التفكير عن طوره في وقت ينبغي أن تسترسل فيه النفس مع الحزن ، وألا تشغل عنه بوضع الدعاوى وإقامة الأدلة عليها . ولعل المتنبي وهو ينظم هذا الرثاء كان يظن أنه سينتهي إلى فكرة ذات قيمة ، ولكن رثاءه خرج رثاء عاديا ، وخير ما فيه جمال اللفظ ليس غير .

وماأراني بحاجة إلى أن أتعمق في درس مبالغات المتنبي التي جاء بها في شعره الذي رثى به أقرباء سيف الدولة وخاصته ، وحسبي أنني وقفت عند بعض هذا الشعر لا لشئ إلا لأبين المذهب الفني الذي اصطنعه المتنبي في هذا الرثاء ، ولنلاحظ قبل كل شئ ظواهر نجدها في هذا الرثاء ، هي التي كانت وراء مبالغات المتنبي فيه ، ونحن نختار منها ظاهرتين :

الظاهرة الأولى :

هي أن المتنبي كان يصدر في هذا الرثاء عن فنه وعقله الفلسفي أكثر مما يصدر فيه عن قلبه وشعوره . ومن هنا نحن نحس في هذا الرثاء كثيرا من الفتور، لا نكاد نستثني منه إلا القصيدة التي رثى فيها خولة أخت سيف الدولة ، بعد أن طال فراقه للأمير ، واشتد حنينه إليه ، وألمت به وبالأمير خطوب جعلت كل واحد منهما في حاجة إلى صاحبه . ولعل تقدم سن المتنبي وطول تفكيره في الحياة والأحياء ، ولعل التجارب التي امتحن بها بعد فراقه لسيف الدولة ، لعل ذلك كله كان وراء جودة هذه القصيدة وروعتها ، وقد أثر فيها فأشاع فيها حزنا أيسر ما يوصف به أنه كان عميقا .

والظاهرة الثانية :

هي أن المتنبي كان يتخذ الرثاء وسيلة لمدح سيف الدولة ، وهذه الظاهرة تجعل رثاء الشاعر رثاء واجبا لم يصدر فيه عن حزن ولا عن ألم ، وكان يضيق بأداء هذا الواجب أحيانا ، الأمر الذي جعله يعتمد فيه على فنه أكثر مما يعتمد على أي شئ آخر .

وبما قاله المتنبى مغربا فيه معنى قوله (١) :

كفى بجسمى نحولا أننى رجل ∴ لولا مخاطبتى إياك لم ترنى

فهو يبالغ فى نحوله فيقول إننى بلغت فى النحول الغاية ، ولولا كلامى معك لما وقع ناظرك على !

وعيب عليه كذلك استكراه اللفظ وتعقيد المعنى فى قوله يصف ناقته وقد كلفها من الجهد والعناء ما يلائم حالته النفسية (٢) :

شيم الليالى أن تشكك ناقتى ∴ صدرى بها أفضى أم البيداء
فتبيت تسئد مسئدا فى نيها ∴ إسآدها فى المهمه الإنضاء (٣)

وأنت ترى من هذين البيتين أن الشاعر حريص كل الحرص على أن يشرك ناقته معه فى همومه البعيدة وفى آماله العريضة . ولا شك أن الشاعر بعيد الهم ، واسع الصدر ، عريض الأمل ، جاد فيما يبتغى ، وإذا كانت الليالى مخيبة لآماله فإنها لن تحد من نشاطه وجده .

والشاعر من جهته يكلف ناقته من الجهد والعناء ما يلائم تلك الخصومة المتصلة بينه وبين الزمان ، ومن ثم اشتدت المحنة بناقته ، وشق الأمر عليها وعظم الخطب ، وهى مع ذلك ماضية فى قطع البيد واجتيابها مضى الهزال فى أثناء شحمها ، كما أنها تتساءل فى كثير من الشك : أيهما أفضى بها : هذه البيداء الواسعة ، أم صدر صاحبها هذا الذى لا يعرف لهمومه حدا ينتهى إليه .

وأنت ترى أن الشاعر قد وقف عند كلمة (الإسآد) وتعمد تكرارها مرة بلفظ الفعل المضارع ، ومرة بصيغة اسم الفاعل ، ومرة أخرى بلفظ المصدر ، وما ذلك إلا

---

(١) الديوان : ٤ / ١٨٦
(٢) الديوان : ١ / ١٦ / ١٧
(٣) الإسآد : إسراع السير في الليل خاصة والنيّ: الشحم والسمن . والمهمه : الأرض الواسعة البعيدة . والإنضاء : مصدر أنضاه ينضيه إذا هزله .

لتعمد الإغراب والالتواء بالمعنى من جهة ، وليلائم بين لفظه ومعناه وبين مقامه من ممدوحه الذى كان يذهب مذهب التصوف من جهة أخرى .

وعلى الجملة فالشاعر يريد أن يقول إن ناقته تبيت تسير سائرا فى جسدها الهزال سيرها فى المهمه . فهل هذا شعر مفهوم ؟ وهل فيه من صفات الجودة المعنوية شئ ؟!

وما أريد أن أقول فى البيتين أكثر مما قلت ، ولكنى أدع لك قراءة هذه الأبيات التى يخلص فيها إلى ممدوحيه هذا الخلوص العجيب ، والتى يقول فيها إن بينه وبين الأوارجى جبالا تشبهه فى الارتفاع والاستقرار ، وفى الصعوبة والامتناع (١) :

بينى وبين أبى علىِّ مثلُهُ .·. شُمُّ الجبال ومثلُهُنَّ رجاءُ
وعقابُ لبنانٍ وكيف بقَطْعها .·. وهو الشتاء وصيفُهُن شتاء
لَبَسَ الثلوج بها علىَّ مسالكى .·. فكأنها ببياضها سوداء
وكذا الكريم إذا أقام ببلدة .·. سال النُّضارُ بها وقام الماء

ومصطلح الإصابة فى الوصف مصطلح يقصد به إصابة الشعر للغرض ، وإصابة الشعر للغرض معناها أن يصوغ الشاعر من المعانى ، ويأتى من الصفات ما يحقق الغرض الشعرى تحققا قويا ، وأن يعتمد فى تصوير الشئ على ما هو جوهرى أو حقيقى من صفاته ، لا ما هو عرضى أو زائل من تلك الصفات (٢) .

وعلى هذا فإن الغزل المصيب هو الذى يرسم الشاعر فيه صورة مثلى لمحبوبته ، والمدح المصيب هو الذى يبلغ فيه الشاعر أقصى غاية ، والشاعر المصيب هو الذى يمكنه بفطنته وذكائه أن ينفذ إلى تلك الماهية فيصورها، والشعر الذى يتسم

---

(١) الديوان : ١ / ١٨ ، ١٩ .
(٢) انظر شرح ديوان الحماسة ، للمرزوقى ، تحقيق أحمد أمين وعبد السلام هارون : ١ / ١٦ . لجنة التأليف والترجمة والنشر ، الطبعة الأولى ١٣٧١ هـ .

بالإصابة هو الذى يكون صورة مثلى لتحقق تلك الماهية .. ومن هذا المنطلق كثر حديث النقاد عن أنسب بيت ، وأمدح بيت ، وأهجى بيت .. وهكذا (١) .

إتيانه بمعان لا تناسب الغرض الشعرى أحيانا :

ومن إغراب المتنبى فى المعنى أنه يأتى به لا يناسب الغرض أحيانا ، فلا يستعمل مثلا معانى المدح فيما وضعت له ، وفيما كثرت فيه بين خاصة أهل العصر، وهكذا بقية الموضوعات .. وكان من نتائج ذلك ظهور الوهن فى كثير من قصائده ، وبرود عاطفته أيضا ، وأنت تحس كأن الشاعر ليس له من هم إلا أن يقذف بالأوصاف قذفا ، ولا يبالى ما إذا كانت الأوصاف سائغة مقبولة أم غير سائغة ، ولعل السبب فى مجئ كثير من قصائده فى المدح مشوهة الألفاظ والمعانى هو أنه كان يلح على هذا الموضوع إلحاحا أكثر من غيره ، حتى خرجت الأوصاف فيه غير معتدلة ، تتشابه فى المواقف المختلفة ، وخرجت المعانى أيضا مبتذلة ضيقة ومحصورة مجملة لا تخصيص فيها ولا تفصيل ؛ وهذا بعينه هو الذى يفسر لنا ما جاء به البديعى فى كتابه " الصبح المنبى " (٢) ، فقد أتى بفصل وأسماه " ما انتقده الحاتمى على المتنبى " وجاء بمجموعة من الأبيات الشعرية فى مختلف فنون الشعر التى أراد الحاتمى أن يسأل المتنبى عنها وأن يراجعه فيها .

وكيف بالمتنبى يحل المعنى محلا لم يخصص له فى قوله (٣) :

أغـار مـن الزجـاجـة وهـى تجـرى ∴ عـلـى شفـة الأمـير أبـى الحسيـن

فهو يستخدم معانى الغزل فى المدح ،وليس له فى هذا البيت من فضل سوى أنه وضع الكلام فى غير موضعه ! وماذا وراء هذا البيت من المعاناة غير أنه يغار من مر الزجاجة على شفة الأمير ؟! وهذه كما سبق من الغيرة الباردة التى لامعنى لها ،

---

(١) انظر العمدة لابن رشيق ، تحقيق محمد محى الدين : ٢ / ١٢٠ ، ١٣٩ ، ١٤٠ ، ١٧٥ .
دار الجيل بيروت ١٩٨١ م .
(٢) انظره ص ١٣٠ وما بعدها .
(٣) الديوان ٤/ ١٩٣ .

فالشاعر أفسد الوضع وأساء الاختيار ،ولم يحكم القول إحكاما يصيب به الهدف ، ويوصل إلى وضع المعانى فى وضعها اللائق بها .

وهل يليق بالمتنبى فى موضع المدح أن يقول لكافور (١) :

ويُغْنيك عما يَنْسُبُ الناسُ أنّهُ .·. إليكَ تَناهَى المَكْرُماتُ و تُنْسَبُ

فهو يريد أن يقول إنك وإن لم يكن لك نسب فى العرب فإنه ليغنيك عن ذلك أنك أصل المكارم ، وأن المكرمات انتهت إليك ونسبت لك .

قال الخطيب : " ليس هذا مما يمدح به ولا سيما الملوك ، لأنه أشبه بنفى النسب عنه ، ثم أتى بقول لا يصح معناه ، يقول : أىّ قبيل يستحق أن تنسب إليه وأنت فوق كل أحد " (٢) .

ومثل ذلك قوله فى الغزل (٣) :

حاشَىَ لِمِثْلِكِ أن تكونَ بخيلةً .·. ولِمِثْلِ وَجْهِكِ أن يكون عبُوسا

فهو يقول لها إنه حاشا لوجهك على تكامل حسنه أن يكون عبوسا لمن ينظر إليه وإلى محاسنه . ومَنْ يستسيغ أن يقال فى مدح المرأة إنها كريمة وإنها مشرقة متهللة الوجه مع كل من ينظر إليها من الناس ؟!

وهل يسوغ كذلك أن يقول المتنبى فى موقف الرثاء : طابت النفس بموتك الذى يتمناه من بقى من النساء ، ومن مضى منهن ، فقد أدركت خير الدنيا والآخرة ، وهذا هو الذى يسلينا عنك . يقول يرثى والدة سيف الدولة (٤) :

أطابَ النفسَ أنّكِ مِتّ مَوتًا .·. تَمَنّتْهُ البَواقِى والخَوالِى

(١) الديوان : ١ / ١٨٦ .
(٢) الديوان : ١ / ١٨٦ .
(٣) الديوان : ٢ / ١٩٤ .
(٤) الديوان : ٣ / ١٣ .

وفى كثير من مدائح المتنبى وَهْنٌ بسبب وضع الكلام فى غير موضعه ، فهو يأتى بالوصف ولا يبالى ما إذا كان سائغا أم غير سائغ ! وقد يضطرب فى مقام المدح فيسوق من حيث لا يدرى الذم فى مقام المدح .

كقوله فى مدح على بن إبراهيم التنوخى (١) :

يَغُضُّ الطَّرْفَ مِن مَكْرٍ وَدَهْيٍ ... كأنَّ بِهِ - وليس به - خُشُوعا

فأين المدح فى هذا البيت الذى يقول إن الممدوح يغض طرفه وهو يخفى مكره ، أى أنه يغض طرفه مكرا ودهاء .

تكلفه فى المعانى كوسيلة لاستنباط معنى خطير :

وقد يتكلف المتنبى فى المعنى، ويحسب أنه بتكلفه هذا قد استنبط معنى خطيراً .ويكفى أن تقرأ قصيدة له فى صباه قالها فى مدح أبى المنتصر : شجاع بن محمد بن أوس بن الرضاء الأزدى ومطلعها (٢) :

أرقٌ على أرق ومثلىَ يأرقُ ... وجوىً يزيد وعبرةٌ تترقرقُ

ثم انظر إلى قوله :

جَرَّبْتُ من نار الهوى ما تنطفى ... نارُ الغَضَى وتكِلُّ عما تُحرِقُ

فسترى فيه التكلف فى اللفظ ، كما ستراه فى الأسلوب والمعنى ، فالشاعر يريد أن يقول إنه جرب من نار الهوى نارا تكل نار الغضى عما تحرقه وتنطفئ عنه فلا تحرقه ، فالشاعر يلقى من نار الهوى ما تعجز نار الغضى عن إحراقه ! .

والشاعر يمعن فى تكلفه فيقول :

وعذلتُ أهلَ العشق حتى ذُقْتُهُ ... فعجبت كيف يموت من لا يعشَقُ

---

(١) الديوان ٢ / ٢٥٣ .

(٢) الديوان : ٢ / ٣٣٢ .

وعـذرتهـم وعرفـت ذنبـى أننـى .·. عيَّرتُهـم فلقيـتُ فيـه مـا لقـوا

وأكبر الظن أن الشاعر يتكلف فى مدحه لبنى أوس تكلفا ساقه إلى المبالغة الفاحشة حين خلص إلى محمد بن أوس ممدوحه فوصفه ببيت يقول فيه :

لـم يخلـق الرحمـنُ مثـل محمـد .·. أبـدا وظنـى أنـه لا يَخْلُـقُ

ومن يقرأ هذا البيت يرى التكلف فى أبشع صوره ، والتعمل فى أشنع مظاهره، فالشاعر قد تجاوز المبالغة الحسنة التى يستسيغها الذوق والتى لا تتخطى المعقول ، ووصل فى تكلفه هذا إلى حد السخف . والمعنى : يقول : لا تطلب مثله ، فظنى أنه لا يخلق الله مثل محمد ، وصدق إن أراد الاسم لا الصورة ، لأن الله تعالى لم يخلق فى الأول ولا فى الآخر مثل محمد صلى الله عليه وسلم " (١) .

إتيانه بإشارات وأحداث تاريخية :

وقد يتسرب الغموض إلى معانى المتنبى من قبل إشارات وأحداث تاريخية ، قد تخفى على غيره ، فيذهب هذا الخفاء بكل ما للمعنى من مزايا .

وهذه أبيات له من قصيدة يمدح بها أبا القاسم طاهر بن الحسين العلوى ، يقول (٢) :

وأبْهَـرُ آيـات التِّهامـىِّ أنَّـهُ .·. أبـوك وأجْـدَى مـا لكـمْ مـنْ مَنَاقِبِ

إذا لـم تكـنْ نَفْـسُ النسيـبِ كأصْلـهِ .·. فمـاذا الـذى يُغْنـى كـرامَ المناصـبِ

ومـا قَرُبَـتْ أشبـاهُ قـومٍ أبـاعـدٍ .·. ولا بَعُـدَتْ أشبـاهُ قـومٍ أقـارِبِ

فهذا نموذج من قصيدة للمتنبى فى المدح ، وليس من شك فى أنه نموذج غير مفهوم المعنى ، وليس فيه من صفات الجودة المعنوية شئ ، وما رأيك فى شعر لا

---

(١) الديوان : ٢ / ٣٣٩ .
(٢) الديوان : ١ / ١٥٤ - ١٥٦ .
(٣) الديوان : ١ / ١٥٤ - ١٥٦ .

يفهمه الشراح ، وقد تحير أئمة واللغة والأدب فى فهم معانيه وإشاراته ،وقالوا فيه ما قالوا .

وفى الأبيات إشارة تاريخية لا يكشف المعنى إلا بكشفها ، ولا يتضح إلا لعارفها . وقد كتب شارح الديوان فى تعليقه على البيت الأول يقول : " قال أبو الفتح : قد أكثر الناس القول فى هذا البيت ، وهو فى الجملة شنيع الظاهر فأضربت عن ذكره ، وقد كان يتعسف فى الاحتجاج له والاعتذار بما لست أراه مقنعا ،ومع هذا فليست الاعتقادات والآراء فى الدين مما يقدح فى جودة الشعر ورداءته " .

ثم يذكر شرحا للبيت فيقول : " وأما معناه : فإن قريشا أعداء النبى صلى الله عليه وسلم يقولون: إن محمدا أبتر ، فإذا مات استرحنا منه ، فأنزل الله تعالى :(إنا أعطيناك الكوثر) أى العدد الكثير ، ولست بالأبتر الذى قالوه (إن شانئك هو الأبتر) فقال المتنبى أنتم من معجزات النبى صلى الله عليه وسلم ، وآية لتصديقه ، وتحقيق لقول الله تعالى " (١) . وهذا معنى طيب ، غير أنه يزيد من الغموض فيه تلك الإشارات التاريخية التى يتوقف فهم المعنى على فهمها .

وينقل شارح الديوان أيضا عن البيت الثالث فيقول قال الواحدى : " لم أجد فى هذا البيت بيانا شافيا ، ولا تفسيرا مقنعا ، وكل تفسير لا يساعده لفظ البيت لم يكن تفسيرا للبيت ، والذى يصح فى تفسيره أنه يقول : الأشباه من الأباعد لا يقرب بعضهم من بعض ، لأن الشبه لا يحصل القرب فى النسب ، والأشباه من الأقارب لا يبعد بعضهم من بعض ، لأن الشبه يؤكد قرب النسب . هذا إذا جعلنا الأشباه الذين يشبه بعضهم بعضا ، كقوله :

النَّاسُ ما لم يَرَوْكَ أشْباهُ

فإن جعلنا الأشباه جمع الشبه ، من قولهم بينهما شبه ، فمعنى البيت لم يقرب

---

(١) الديوان : ١ / ١٥٤ . ١٥٥

شبه قوم أباعد أى لا يتقاربون فى الشبه ، ولا يشبه بعضهم بعضا ، ولا يبعد شبه قوم أقارب ، يريد أنهم إذا تقاربوا فى النسب تقاربوا فى الشبه (١) .

وقد تكون هذه الإشارات أو تلك الحكايات غير معروفة لعامة الناس ، ويتوقف فهم المعنى على فهم مرامى هذه الإشارات والحكايات ، وقل من يفهمها .

يقول مادحا (٢) :

كـلٌ يُريـدُ رجـالَهُ لحيـاتِـهِ ... يـا مَـنْ يُـريدُ حياتَهُ لرجـالِـهِ

يريد أن غيرك من الملوك يطلبون جنودهم وعساكرهم للدفاع عنهم ، وأنت تريد رجالك لا ليدافعوا عنك ، ولكن لتدافع أنت عنهم . وهذا البيت مبنى على حكاية تذكر عن سيف الدولة مع الإخشيد ، وذلك أنه جمع جيشا عظيما حين أراد أن يغلب على هذه البلاد ، و أتى إلى سيف الدولة ليتغلب ، فوجه إليه سيف الدولة بكلام يقول فيه : قد جمعت هذا الجيش ، وجئت إلى بلادى ، ابرز إلىّ ولا تقتل الناس بينى وبينك ، فأينا غلب أخذ البلاد وملك أهلها ، فوجه الإخشيد إلى سيف الدولة يقول : ما رأيت أعجب منك ! إنما جمعت هذا الجيش العظيم لأقى به نفسى ، أفتريد أن أبارزك ؟ إن هذا لجهل " (٣) .

إلحاحه على المعانى الشائعة التى تخلو من الطرافة :

والمعانى الرائعة هى التى تكون فيها طرافة ، بمعنى ألا تكون شائعة بين العامة ومن إليهم كى لا تزول بهجتها ، ولا تنصرف النفس عن الشعر الذى يضمها ؛ ولذلك فإن الإغراب قد يكون فى شعر المتنبى نظرا لما فى معناه من سطحية وابتذال ، وإسراف فى الألفاظ من غير حاجة .

---

(١) الديوان : ١ / ١٥٦ .
(٢) الديوان : ٣ / ٦٤ .
(٣) انظر الديوان : ٣ / ٦٤ .

ومن أمثلة ذلك قوله يعزى سيف الدولة عن عبده التركى [١] :

وإنى وإنْ كان الدَّفِينُ حبيبَهُ .·. حبيبٌ إلى قلبى حبيبُ حبيبى

والأمر العجيب أن للمتنبى قصائد كاملة تعرف بامتهانها ، وأنها من البدائية الأولى ، وإن أردت نموذجا لذلك فانظر قصيدته التى يمدح بها أبا على هارون بن عبد العزيز الأوارجىّ الكاتب ، والتى مطلعها [٢] :

أمِنَ ازْدِيارِكِ فى الدُّجَى الرُّقَباءُ .·. إذْ حيثُ كُنْتِ مِنَ الظلامِ ضياءُ

ولعل كثرة قصائد المتنبى فى المديح هو السبب الأساسى فى أنه ضاقت أمامه ساحات المعانى ، وقصرت ذخائره عن إمداده بالطرائف لكثرة ما استنفد منها ، ولكثرة المداحين فى عصره وقبل عصره ممن لم يتركوا معنى جديدا إلا اختطفوه ، فأنى له المعنى الطريف الذى يبتكره هو فى مواقفه الكثيرة ، أو لم ينتزعه سواه من المداحين !

ونستطيع أن نخلص من كل هذا أن شعر الشاعر لا يقوم على المعانى والأفكار فقط ، ولا على الصور والتراكيب فحسب ، وإنما مظهر الفنية هو الإجادة فى المعانى، والإبداع فى التعبير عنها ، ونتاج عبقرية الشاعر إنما يظهر فى تأليف المعانى الممتازة ، وفى إجادة التعبير عنها ، ولا خلاف مطلقا بين النقاد فى ذلك ، و إنما الخلاف بينهم فى مدى الجهد الذى يبذله الشاعر فى البحث عن مظاهر الفنية والإبداع .

وقد يكون إغرابه فى المعنى نتيجة من نتائج ضعف عقيدته كقوله [٣] :

يتَرَشَّفْنَ مِنْ فَمِى رَشَفاتٍ .·. هُنَّ فيه أحْلَى من التَّوْحيد

---

(١) الديوان : ١ / ٤٩ .
(٢) الديوان : ١ / ١٢ .
(٣) الديوان : ١ / ٣١٥ .

فكأن المعانى أعيته حتى التجأ إلى مثل هذا التجاوز و الإفراط ! ومن عجيب أمره أن إسرافه فى التغزل بالحسن المادى ، والجمال الحسى ، والاقتصار على ذلك كأن لم يكن هناك غير هذه الطريقة ، جعل غزله صناعيا ، تقليديا ، مبتذلا ، و أنساه المواضع التى تليق والتى لا تليق ، حتى وقع فى هذا التجاوز الذى ما بعده تجاوز .

والمتنبى وإن أثم فى البيت السابق لذكره حلاوة التوحيد فى لهجة السافر المستهزئ نجده فى القصيدة نفسها يشبه نفسه بنبى الله صالح فيقول (١) :

أنا تِربُ الندى ، ورب القوافى ∴ وسمامُ العدا ، وغيظُ الحسود
أنا فى أمة تداركها الله ∴ غريب كصالح فى ثمود

ويتجاوز ذلك كله فيقول (٢) :

أى محلّ أرتقى ؟ ∴ أى عظيم أتقى ؟
وكل ما قد خلق الله وما لم يخلق
محتقر فى همتى ∴ كشعرة فى مفرقى

ومن يراجع لامية المتنبى التى قالها فى مدح بدر بن عمار ، ويذكر الأسد وما كان بين بدر وبينه من صراع انتصر فيه بدر على الأسد - من يراجع هذه القصيدة يقف بنفسه على الصنعة الثقيلة وعلى التكلف البغيض .

ومع أن هذه القصيدة تعد من آيات المتنبى ، إلا أننى لا أشك فى أنه قد تجاوز فيها القصد ، وأتى فيها بالسخف ، وخرج فيها عن المألوف ، وقد دفعه إلى ذلك نشدانه المبالغة ليزيد فى تملق الممدوح ، وليزيد من ثم حظه من العطاء والجائزة .. هذا بالإضافة إلى أن الشاعر فى هذه المبالغات ليس ينشد فنا من فنون الجمال ، أو لونا

---

(١) الديوان : ١ / ٣٢٣ ، ٣٢٤ .
(٢) الديوان : ٢ / ٣٤١ .

من ألوان التفكير ، أو رأيا من آراء الفلسفة ، وكل ما كان ينشده هو أن يبهر ممدوحه وينال رضاه .

يقول [١] :

لو كان علمُك بالإله مقسّماً .٠. فى الناس ما بعث الإله رسولا
لو كان لفظك فيهمُ ما أنزل القرآن والتوارة والإنجيلا

فأى تكلف هذا ؟ وأى إفراط وتجاوز يصل إلى هذه الدرجة ؟!

ومن إغرابه فى المعنى أيضا إلحاحه - من غير تصرف أو ابتكار أو توليد محمود - فى أغراضه الشعرية على المعانى التى تناولها الشعراء فى عصره وقبل عصره ، والتى لاتزال تجرى على ألسنة الشعراء وغيرهم حتى يومنا [٢] ، كما فى قولهم : الحبيبة مشرقة الوجه ، والممدوح كريم البحر ، والميت متفرد بالمحاسن ، وغير هذا وذاك من النعوت الشائعة المرددة .

وقد نلتمس له بعض العذر فى مثل ذلك أحيانا ، فربما أنه يعجز عن أن يجد فى التشبيه أكمل وأنسب من هذه فى موضوعها ، ومع ذلك فنحن لم نعفه من تهمة التقصير إعفاء تاما ، فقد كانت أمامه الفرصة للتوليد والتجديد والتصرف الحسن كالذى فعله أبو تمام وابن الرومى وأمثالهما ، لكنه لم ينتهز هذه الفرص إلا فى القليل النادر .

ختام ورأى :

وغرابة المتنبى فى معانيه جعلت البيت الشعرى فى الكثير الغالب لا يفهم بيسر وسهولة ، كما جعلته يتحمل أكثر من معنى ، لدرجة جعلت من يقرأ شعره يسأل عن معناه ، وإذا لم يسأل لابد وأن يفكر فى فهمه ؛ ولعل هذا هو السبب فى

---

(١) الديوان : ٣ / ٢٤٤ .
(٢) انظر : المتنبى وشوقى وإمارة الشعر ، عباس حسن ص ٢٦٣ وما بعدها .

كثرة شراح أشعاره كثرة لم يعهدها التاريخ الأدبى لشاعر ما [(١)] .

وقد نقل ابن خلكان عن أحد مشايخه قوله : " وقفت على أكثر من أربعين شرحا ما بين مطولات ومختصرات ، ولم يفعل هذا بديوان غيره " [(٢)] . ولاشك أن هذه الشروح قد بلغت فيما بعد أضعاف ذلك العدد الذى ذكره ابن خلكان ، ومن المعروف أنه قد كثرت التآليف فى أبيات المعانى والشروح عليها ، ومن يراجع مقدمة خزانة الأدب للبغدادى يقف بنفسه على العلماء الذين ألفوا فى أبيات المعانى ،وكان حظ المتنبى من هذه الأبيات أكثر من حظ غيره من الشعراء ، إذ ألفت فى أبيات معانيه وشروحها وجلاء غوامضها كتب كثيرة .

ومن أبياته التى تتحمل أكثر من وجه قوله [(٣)] :

كاثَـرَتْ نائِـلَ الأمـير مـن المـا .·. ل بمـا نَـوَّلَـتْ مِـنَ الإيْـرَاقِ

والبيت من قصيدة لأبى الطيب يمدح فيها أبا العشائر (الحسين بن على بن الحسين بن حمدان) . والإيراق هنا يحتمل وجهين : أحدهما أن يكون من قولهم أورق الصائد إذا لم يصد شيئا ، وأورق الغازى إذا لم يغنم شيئا ، وأورق صاحب الحاجة إذا لم يصل إليها ، فيكون المعنى أن المذكورة كاثرت نائل الأمير ببخلها ، فهى بخيلة وهو جواد ، وعطاؤها لايتوصل إليه بينما الأمير عطاؤه نعم . والآخر: أن يكون من قولهم أرق الرجل وأرَّقه غيره إذا أسهره ، فيكون المعنى أن إيراقها الناس ومنعها إياهم من النَوم أمر ثابت وكثير جدا يكاثر به نائل الأمير .

يقول الواحدى : " الناس يحملون " الإيراق " فى هذا البيت على الإفعال من

---

(١) انظر مقدمة تفسير أبيات المعانى من شعر أبى الطيب المتنبى ، اختصار أبى المرشد سليمان بن على المعرى ، تحقيق د. مجاهد محمد محمود الصواف ، د. محسن غياض عجيل . دار المأمون للتراث ١٣٩٩ هـ ١٩٧٩ م .

(٢) وفيات الأعيان : ١ / ١٠٣ .

(٣) الديوان : ٢ / ٣٦٤ .

الأرَق ، وكان الخوارزمى يقول فى تفسيره : هى تطلب بإسهادها إيانا الغاية ، طلب الأمير بإنالته النهاية ، فكأنها تكاثره نوالا ، لكن نوالُها الأرَق ، ونواله الوَرِق ، فإن كان أبو الطيب أراد " بالإيراق " هذا ، فقد أخطأ ، لأنه لا يبنى الإيراق من الأرق ، وإنما يقال : أرِقَ يأرَق أرَقاً ، وأرَّقهُ تأريقا . والأولى أن يحمل الإيراق على منع الوصل . يقول : هى فى منعها وصلها فى النهاية ، كما أن الأمير فى بذله نائله قد بلغ النهاية ، فكأنها تكاثرُه فى عطائه لينظر أيهما أكثر " (١) .

ومثل ذلك قوله فى صباه :

وعَـذَلْتُ أهـلَ العِشْـقِ حـتى ذُقْتُـهُ ... فعَجِبْتُ كيْـفَ يَمُـوتُ مَـنْ لا يعشَـقُ

قال ابن فُورَّجَه : " وقد كثر كلام الناس فى هذا البيت، وادُّعِى عليه قلب الكلام واحتجوا باحتجاجات ، وزعموا أنه أراد كيف لا يموت من يعشق ، وليس الأمر عندى على ما زعموا ولو قال ذلك أو أراده لكان معنى رذلا متداولا خلقا ، والذى أراده أبو الطيب معنى حسن صحيح اللفظ والمعنى ، أحسن مما ذهبوا إليه ، وإنما يقول عجبت كيف يكون الموت من غير هذا الذى هو أعظم الأدواء ، والخطب الذى هو أشد الخطوب ، لأنه لاستعظامه العشق يتعجب كيف يكون موت من غيره "(٢) .

ويقول الواحدى : " ذهب قوم فى هذا البيت إلى أنه من المقلوب ، على تقدير : كيف لايموت من يعشق . يريد : أن العشق يوجب الموت لشدّته ، وأنه يتعجب ممن يعشق كيف لا يموت ، وإنما يحمل على القلب ما لا يظهر المعنى دونه ، وهذا ظاهر المعنى عن غير قلب ، وهو أنه يعظِّم أمر العشق ، ويجعله غاية فى الشدة ، يقول : كيف يكون موت من غير عشق ، أى من لا يعشق يجب أن لا يموت ، لأنه لا يُقاسى ما يوجب الموت ، وإنما يوجبه العشق " (٣) .

---

(١) الديوان : ٢ / ٣٦٤ .
(٢) تفسير أبيات المعانى من شعر أبى الطيب المتنبى . اختصار أبى المرشد سليمان بن على المعرى ص ١٦١ .
(٣) الديوان : ٢ / ٣٣٣ .

ومن ذلك قوله مادحا سيف الدولة وقد عزم على الرحيل عن أنطاكية (١) :

وكُلُّ شَوَاةِ غِطْرِيفٍ تَمَنَّى ... لِسَيْرِكَ أنَّ مَفْرِقَها السبيلُ (٢)

قال الأحسائي : " هذا البيت يحتمل كثيرا من الوجوه ، فمنها أن كل غطريف ، وهو السيد من أولئك يود لموضع الشفقة عليك والمحبة أن تسير على مفرقه محمولا على قوله (ليت أنا إذا ارتحلت لك الخيل وأنا إذا نزلت الخيام) ، ومنها أنهم يحسدون الطريق التى تسلكها على القرب منك ، فيودون أن مفارقهم طرق لك ، لتأمن من سطوتك كما تأمن الطرق إذا سرت فيها ، ومنها أنهم لشدة ما يقاسون من خوفك يتمنون أنهم لم يخلقوا ، وأنهم ترابٌ بَعدُ فى الأرض يوطأ عليه ، لأن أصل الخلق من الطين ، ومنها أن الطريق يُقال له : مفرق ، والمفرق من الرأس متفرق الشعر، فيقول : إن مفرق الرأس لما وافق الطريق فى اللفظ قالوا ليته وافقه فى المعنى على الوجوه التى ذكرناها " (٣) .

ومن ذلك ما قاله مادحا فى قصيدته التى أولها " أفاضِل الناس أغراضٌ لذا الزمن " (٤) :

حَولى بكل مكانٍ منهم خِلَقٌ ... تُخْطى إذا جئتَ فى استفهامها بمَنِ

فهو يقول : إن حوله من هؤلاء الناس جماعة كالبهائم ، ويخطئ من يخاطبهم بمَن ، لأنه يكون قد خاطب ما لا يعقل بما يخاطب به من يعقل . على أن تخفيف همزة (تخطى) يجعل المعنى يحتمل وجهين : أحدهما أن يكون فاعل تخطى ضميرا يعود على الخلق ،ويكون المعنى آنذاك أنهم إذا قيل للرجل منهم من أنت ؟ لم يستطع الجواب ، وهذه مبالغة فى الصفة بالجهل وعدم البيان . والوجه الآخر أن يكون المعنى أنك تخطى أيها الرجل إذا قلت لأحد منهم من أنت ؟ لأن من إنما تكون لمن

---

(١) الديوان : ٣ / ٥ .
(٢) الشَّوَاة : جلدة الرأس . والغطريف : السيد الكريم فى قومه .
(٣) تفسير أبيات المعانى من شعر أبى الطيب المتنبى للمعرى : ١٧٠ .
(٤) الديوان : ٤ / ٢١٠ .

يعقل ، وهذه الخلق ليس لها عقول .

ومن ذلك قوله (١) :

أحـــادٌ أم سُـداسٌ فـي أحـــادِ .·. لُيَيْلَتُنـا المَنُـوطـةُ بالتَّنـــادِ

قال الواحدى : " قد أكثروا فى معنى هذا البيت ، ولم يأتوا ببيان مفيد ، ولو حكيتُ ما قالوا فيه لطال الكلام ، ولكن أذكر ما وافق اللفظ من المعنى ، وهو أنه أراد : واحدة أم ست فى واحدة وست فى واحدة : إذ جعلتها فيها كالشئ فى الظرف ، ولم يرد الضرب الحسابى وخص هذا العدد لأنه أراد ليالى الأسبوع ، وجعلها اسما لليالى الدهر كلها ، لأن كل أسبوع بعد أسبوع آخر إلى الدهر ،فكأنه يقول : هذه الليلة واحدة ، أم ليالى الدهر كلها جمعت فى هذه الليلة الواحدة ، حتى طالت فامتدت إلى يوم القيامة " (٢) .

ومن ناحية أخرى فإن المتنبى كغيره من الجمهرة الغالبة من شعراء العربية – مع تفاوت فيما بينهم – كان يتناول المعانى بقدر ، وكان يتعمد ألا تكون معانيه واسعة سعة تتضمن التفصيل والتفريع ، فلا تشتمل على الدلائل المطلوبة عقلية كانت أم وجدانية ، وأكبر الظن أن شعره فى الوصف قد خلا من رسم دقائق المنظر الذى يصفه ، وكأن صاحبنا ليست لديه قدرة على ملاحظة دقائق الأشياء وتصويرها تصويرا بارعا . وكل معانيه من هذا القبيل ، لكنه فى وصف الحرب (٣) وفى الهجاء قد يستوعب الموضوع إلى حد ما .

أين استيفاء المعانى فى قوله مادحا (٤) :

النـــاسُ مـــا لـــم يَـــرَوْكَ أشْبــاهُ .·. والـدهْـــرُ لفْـظٌ وأنـــت مَعْنــاهُ

---

(١) الديوان : ١ / ٣٥٣ .
(٢) الديوان : ١ / ٣٥٣ .
(٣) انظر الحرب في شعر المتنبى بجزئيه للدكتور محمود حسن أبو ناجى .
(٤) الديوان : ٤ / ٢٦٣ ، ٢٦٤ .

والجُـودُ عَيـنٌ وأنـتَ نـاظِـرُهـا .. والبَـاسُ بـاعٌ وأنـتَ يُمْنـاهُ

وأى توفية محمودة فى هذين البيتين ؟ إن نصيبه منها سطحى ضئيل ، وكان يمكن للشاعر أن يعمد إلى المناحى المنطقية السائغة ، ولكنه عرض المعنى عرضا مجملا ، وأهمل التحليل السائغ والتعليل الحميد ، كما أهمل فى هذا الموقف الدلائل العقلية التى ترضى الفكر .

والحقيقة أن أكثر معانى المتنبى قد ظهر عليها أثر الصنعة ، وتجاذبها التكلف والتعقد ، وقد فات المتنبى أن المعانى الشعرية ليست من قبيل الأسرار الصوفية أو القضايا التعليمية التى تقتضى دقة نظر وجهد ذهن فى تفهمها ، وإنما هى معان طبيعية تدركها البداهة بأدنى رمز ، والاختراع من حيث هو لا يقتضى الخفاء وإلا لخفى أكثر شعر المتقدمين ممن سبقوا إلى ابتكار المعانى مع أنك لا تكاد ترى فى كلامهم ما غاص فى الإبهام وحسرت من دونه الأفهام إلى الحد الذى تراه فى بعض شعر المتنبى ، بل متى كان الكلام مفرغا فى قوالب من الوضع لا يخرج عنها جاريا على سنة من التعبير لا يتعداها ،وكانت تلك القوالب وهذه السنة معروفة عند السامع فقلما يتخلف المعنى عن اللفظ إلا بمقدار ما تحيط به الروية ويتناوله الذهن ..ولكن ماذكر للمتنبى من خفاء المعانى وغموضها وارد على الغالب من قبيل الإبهام فى اللفظ ، والتعمية فى صور التراكيب ، وإلباس المعنى غير ثوبه الذى تظهر به تقاطيعه ، وإنزاله فى غير منزله الذى يقرع عليه بابه وهى طريقة له اختطها لنفسه وأكثر من التعمل لها والنزوع إليها .. " (١)

* * *

هكذا نلاحظ أن فهم شعر الشاعر يتطلب منا أن ننفذ من خلال معانيه إلى نفسية صاحبه . وبعض النقاد لا يرون هذا النفاذ ضروريا لفهم الأدب فحسب ، بل

(١) العرف الطيب فى شرح ديوان أبى الطيب المتنبى للشيخ ناصيف اليازجى : ٢ / ٦٥٤ .

يرونه الغرض الحقيقى من فهم الأدب . ومن ثم فنحن لا نطلب من الشاعر أن يكون فيلسوفا ، وإنما نطلب منه أن يكون صادقا فى التعبير عما يشعر به .. هذه هى الأصالة التى تجعل الشعراء يتمايزون فى معانيهم الجزئية .

ولا شك أن المتنبى شاعر العربية أصيل فى معظم قصائده ،بل إنه من أعظم شعراء العربية أصالة ، هو شاعر أصيل حين أجاد فى التعبير عن طموحه الذى لا يكاد يعرف حدودا ، وإحساسه المفرط بكرامته ، واعتزازه بعروبته ،وسوء ظنه بأهل زمانه . هو شاعر مثالى عاش فى عصر انهارت فيه المثل ، وتصاغرت فيه الهمم فلاذ بكبريائه يستعديها على الزمان ، وهو فى داخل نفسه إنسان رقيق العواطف ، يتمنى السلام، وينشد الحب والأمان .

إنه شاعر أصيل حيث يقول (١) :

كم تطلبون لنا عيبا فيُعجزكم ∴ ويكره المجد ما تأتونَ والكَرَمُ ؟

ما أبعَدَ العيبَ والنقصانَ عن شرفى ∴ أنا الثريا وذانِ الشيبُ والهَرَمُ

وهو شاعر أصيل حيث يقول ، وقد طاف به طائف من التشاؤم وسوء الظن بالناس (٢) :

ومن عرف الأيام معرفتى بها ∴ وبالناس رَوَّى رُمحَهُ غيرَ راحم

وهو شاعر أصيل حين يدعو إلى السلام والوئام ، وينعى على الإنسان ميله إلى الشرِ ، يقول (٣) :

كلما أنبتَ الزمانُ قناةً ∴ ركب المرءُ فى القناة سنانا

ومراد النفوس أصغر من أن ∴ نتعادى فيه وأن نتفانى

(١) الديوان : ٣ / ٣٧١ .

(٢) الديوان : ٤ / ١١٢ .

(٣) الديوان : ٤ / ٢٤٠ ، ٢٤١ .

وهو شاعر أصيل حين يتغنى بجمال الطبيعة فى شعب بوان [1] :

يقـول بشعْـبِ بَـوَّانٍ حِصـانى : ... أعَـنْ هـذا يُسـارُ إلى الطِّعـانِ ؟
أبـوكُـمْ آدمٌ سَـنَّ المعـاصـى ... وعلَّمَـكـم مفارقـةَ الجنـانِ

ونحن لانطلب من الشاعر أن يكون فيلسوفا ، وإنما نطلب منه صدق التعبير عما يشعر به .. هذه هى الأصالة التى بها يتمايز الشعراء فى معانيهم الجزئية ، وليست الأصالة فى تلاعب الشاعر بالمعانى والأخيلة .

إننا نعرف أصالة الشاعر حين نقرأ شعره فنجد نظرة إلى الحياة تتغلغل فى كل ما ينظم ، وتدل على روح وراء الأبيات والكلمات ، والاستعارات والتشبيهات والمعانى والأفكار ،ولو لم يكن فى أشعاره بعد ولا غرابة ، وحتى لو وقع فيها اختلاف ، إذ لا يلزم أن تكون كل رؤى الشاعر للوجود كاملة ، بل قد يكون فيها بعض النقص أو التناقض .

إننا لا نطلب من الشاعر حلا لمشكلات العصر والوجود ، ولكننا نطلب منه أن يكون تعبيره صادقا عن انفعالات نحسها نحن فى المواقف المختلفة ، ومن الطبيعى أن تختلف هذه الانفعالات فيما بينها اختلافا بعيدا أو قريبا . ولاشك أن الشاعر الذى تتسع رؤيته لتشمل الحياة الإنسانية بكل جوانبها ، وتسمو حتى تحتضن كل ما يبدو فيها من تدافع واضطراب ، أعظم من ذلك الذى يراها رؤية ناقصة أو منحرفة ، إذا كان قادرا على أن يحدث لدى قارئه " اللذة الفنية " ، بمعنى أنه ينبه انفعالاته ، ويضعها موضع التأمل ، ويهيئه لأن يستقبل الحياة وهو أحسن معرفة بنوازعه ، وأقوى سيطرة عليها .. هذه اللذة الفنية هى الوظيفة الأساسية للشعر وللعمل الأدبى جملة لدى منشئه وقارئه ، وهى كافية لتبرير وجوده وإثبات ضرورته للحياة الصالحة .

* * *

---

(١) الديوان : ٤ / ٢٥٥ ، ٢٥٦ .

ومجمل القول فى هذا الفصل أن المتنبى شاعر واسع الثقافة ، وهو وإن وقعت أنظاره على الثقافات اليونانية المترجمة إلى العربية ، وألم ببعض اتجاهاتها ، لم يكن – فيما نعتقد – يعتنق فى شعره مذهبا فلسفيا بالمعنى الدقيق ، وإنما كان صانعا لأبيات متناثرة فى ثنايا قصائده ، تصطبغ فى كثير من الأحيان بالصبغة الفلسفية ..

على أن ذلك كله لا يجعلنا نجرد الشاعر من جميع المعانى الفلسفية تجريدا تاما ، فليس هناك مانع أن يكون المتنبى – وهو الميال إلى كل غريب ، المسارع إلى كل ابتكار جديد – قد تأثر بها فى الأفكار ، كما هو ظاهر من الأمثلة الكثيرة التى أوردناها فى هذه الدراسة .

الفصل السادس
الإغراب فى التصوير والموسيقى

أولا : الإغراب فى التصوير :

الصورة جانب أساسى من الشعر (١) ، بل لعلها أهم أركان البناء الشعرى ، فوظيفة العين فى الشعر هى التقاط المرئيات ، وعين الشاعر إنما تمثل العدسة المصورة ، وبذلك يحاول كل شاعر أن يكتسب صفة المصور وبخاصة حين تحكى كلماته صورة الطبيعة ، أو تكون ذات صفة حسية .

وقد قال الجمحى : " وللشعر صناعة وثقافة يعرفها أهل العلم كسائر أصناف العلم والصناعات : منها ما تثقفه العين ، ومنها ما تثقفه الأذن ، ومنها ما تثقفه اليد ، ومنها ما يثقفه اللسان " (٢) .

ويقول الجاحظ : " إن الشعر ضرب من النسج وجنس من التصوير " (٣) .

وفى تحديد أغراض الشعر يقول على بن عيسى الرمانى : " أكثر ما تجرى عليه أغراض الشعر خمسة : النسيب ، المدح ، الفخر ، الوصف ، ويدخل التشبيه والاستعارة فى باب الوصف " (٤) .

ويقول غير واحد من العلماء عن الشعر: " إنه ما اشتمل على المثل السائر والاستعارة الرائعة ، والتشبيه الواقع ... " (٥) .

ويحدد المرزوقى فى مقدمته لشرح حماسة أبى تمام (٦) عمود الشعر العربى فى أمور سبعة وهى :

١- شرف المعنى وصحته .

---

(١) انظر أصول النقد الأدبى ، للأستاذ أحمد الشايب ص ٢٤٢ وما بعدها .

(٢) العمدة لابن رشيق : ١ / ١١٨ . دار الجيل ، الطبعة الرابعة ١٩٧٢ م .

(٣) الحيوان : ٣ / ١٣١ . تحقيق مصطفى الجمالى ، الحلبى ١٩٣٨ م .

(٤) العمدة : ١ / ١٢٠ .

(٥) العمدة : ١ / ١٢٢ .

(٦) حماسة أبى تمام : ١ / ٩ نشر أحمد أمين وعبد السلام هارون ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، الطبعة الثانية ١٣٨٧ هـ ١٩٦٧ م .

٢- جزالة اللفظ واستقامته .
٣- الإصابة فى الوصف .
٤- المقارنة فى التشبيه .
٥- التحام أجزاء النظم والتئامها على تخيّر من لذيذ الوزن .
٦- مناسبة المستعار منه للمستعار له .
٧- مشاكلة اللفظ للمعنى وشدة اقتضائهما للقافية حتى لا منافرة بينهما .

وقد فسر الآمدى هذه الأمور السبعة حين قال : " وليس الشعر عند أهل العلم إلا حسن التأتى وقرب المأخذ ، واختيار الكلام ، ووضع الألفاظ فى مواضعها ، وأن يورد المعنى باللفظ المعتاد فيه المستعمل فى مثله ، وأن تكون الاستعارات والتمثيلات لائقة بما استعيرت له وغير منافرة لمعناه .. " (١) .

ومن جملة الآراء السابقة يتضح لنا أن الصورة يعبر عنها بسائر وجوه البيان والمجاز من تشبيه واستعارة وكناية .

وهناك من يمثل المعنى بالصورة واللفظ بالكسوة ، فإن لم تقابل الصورة الحسناء بما يشاكلها ويليق بها من اللباس فقد بخست حقها وتضاءلت فى عين مبصرها (٢) ، وعلى ذلك فاللفظة فى السمع كالصورة فى البصر .

ويفصل ابن الأثير أنواع التشبيه فى كتابه " المثل السائر " فيقول : " تشبيه معنى بمعنى ، وصورة بصورة ، ومعنى بصورة ، وصورة بمعنى (٣) .. وعلى ذلك فإن الصورة هنا دالة على المعانى الحسية ، والمعنى هنا دال على المعانى المجردة .

والإغراب فى التصوير يقوم على ما يخالف المنطق (٤) من :

---

(١) عن أدونيس : مقدمة للشعر العربى ص ٤٤ . دار العودة بيروت ، الطبعة الأولى ١٩٧١ م .
(٢) العمدة لابن رشيق : ١ / ١٢٧ .
(٣) المثل السائر لابن الأثير ص ١٥٣ . مطبعة حجازى ، القاهرة .
(٤) انظر : فى النقد الأدبى ، للدكتور شوقى ضيف ص ١٧٣ . دار المعارف بمصر ، الطبعة الثالثة .

- التناقض فى المعنى .
- الإحالة .
- الغلو .
- مخالفة العرف .
- عدم التلاؤم بين المعانى .

والتشبيه يجمع بين أمرين لعلاقة المشابهة بينهما ، إنه فعل مقاربة ومشاكلةبين أمرين أو طرفين لهما صفة أو صفات مشتركة تسمى وجه الشبه ، وأبلغ التشبيه وأجوده ما أوضح الغامض وقرب البعيد ، والبراعة فى التشبيه قد تكون سببا جوهريا فى الإشادة بشعر الشاعر وفى تقديم الشاعر على أقرانه كما هو واضح فى موقف النقاد من الشاعر الجاهلى امرئ القيس ومن الشاعر الإسلامى ذى الرمة ، فكل من الشاعرين قد اشتهر فى نظر النقاد بالإكثار من التشبيه والإجادة فيه .

ويكفى أن نشير إلى قول أبى عمرو بن العلاء : " افتتح الشعر بامرئ القيس، وختم بذى الرمة (١) . وحسبنا أن نشير إلى قول ابن سلام عن امرئ القيس : " أحسن طبقته تشبيها ، وأحسن الإسلاميين تشبيها ذو الرمة " (٢) .

ويقدر ماتكون العلاقة بين طرفى التشبيه غامضة بقدر ما يجئ التشبيه معقدا غامضا ، يكاد أن يكون مستحيلا أو غريبا مفاجئا متناقضا ، وقد يصل التشبيه فى بعض الأحيان إلى درجة من الخصب والامتلاء والعمق إلى جانب الأصالة والابتداع بحيث يمثل الصورة ويؤدى دورها .. " (٣) .

والحقيقة أن للمتنبى تشبيهات متوالية ومحكمة قوية ، وكانت براعته فى أنه

---

(١) البيان والتبيين للجاحظ : ٤ / ٨٤ .
(٢) طبقات فحول الشعراء : ١ / ٥٥ .
(٣) الشعر العربى المعاصر قضاياه وظواهره الفنية والمعنوية د. عز الدين اسماعيل ص ١٤٣ القاهرة ، دار الكاتب العربى للطباعة والنشر ١٩٧١ م .

استطاع أن يعرض على أذهاننا هذه الصور فى سهولة ويسر وبغير تكلف ولا عناء .
وله قصائد تكشف عن موهبته فى الجمع بين الوصف وسرد مزايا الموصوف سردا شائقا يأتلف مع الفن ولا يجافيه .

وتصوير الليل أمر مألوف فى الشعر العربى ، ونحن نعرف كيف كانت صورته فى الشعر الجاهلى ، وكيف كان حديث امرئ القيس معه . أما المتنبى فإنه حين عمد إلى تصوير الليل نراه يصوره صورة تتسم بالغموض .

يقول (١) :

لَقِيتُ بِدَرْبِ القُلَّةِ الفَجْرَ لَقْيَةً .'. شَفَتْ كَمَدِى والليلُ فيه قتيلُ

فهو يقول مخاطبا سيف الدولة إنك لقيت الفجر بهذا الموضع الذى ببلاد الروم لقية على حال من البهجة والسرور شفت حزنى بتطاول الليل ، وأظهرتنى عليه بالخروج من تحت قبضته حتى ظهر كالقتيل الذى جاءت نهايته ، وانفض الخوف بذلك عمن يحاذره .

وإذا عرفنا أن الممدوح هنا هو سيف الدولة ، وأنه يمدحه لماقام به من غارات ناجحة فى بلاد الروم ، ولما أحرزه من انتصارات ضدهم ، إذا عرفنا ذلك أمكننا أن نفسر صورة الليل القتيل ،إنها تبشر بانتصارات سيف الدولة التى هى مقصد الشاعر فى القصيدة ، ومقتل الليل هنا يوحى أيضا بتغلب الشاعر على همومه التى كثيرا ما كانت تشغله فى الليل ، وقد أظهر ذلك حين قال فى مقدمة هذه القصيدة (٢) :

لَيالِىَّ بعد الظَّاعِنِين شُكُولُ .'. طِوالٌ ولَيْلُ العاشقين طويلُ

ويخاطب فى قصيدته الميمية التى يمدح فيها سيف الدولة اللذين عاهداه على أن يسعداه عند ربع الأحبة بالبكاء فيقول فى مفتتح القصيدة (٣) :

(١) الديوان : ٣ / ٩٨ .
(٢) الديوان : ٣ / ٩٥ .
(٣) الديوان : ٣ / ٣٢٥ .

وفــاؤكمــا كالرَّبْــع أشْجـاه طاسِمـهْ ... بأن تُسْعدا والدمع أشفاه ساجمه (١)

فهو يقول لهذين إن وفاءكما لى بإسعادى على البكاء كهذا الربع ، ثم أخذ يذكر وجه الشبه فقال : " أشجاه طاسمه " أى أشجى الربع دارسه ، فكلما تقادم عهده كان أدعى لإثارة الحزن عند زائره ، وأشفى الدمع للحزن سائله الجارى .

ولعلنا نلاحظ أن طريقة التعبير عن المعنى الذى أراد المتنبى أن يعبر عنه لم تكن مرسلة على طبعها ، وإنما وقع الشاعر وهو بسبيل ذلك فى التكلف والالتواء والتعقيد وكأنه يتطلع إلى الإتيان بشئ جديد لم يسمعه الناس قبل .

فما المقصود بتشبيه وفاء الأصدقاء بربع الأحبة ؟

وفى التعليق على هذا البيت يقول الدكتورطه حسين فى كتابه تاريخ الأدب العربى (٢) :
" من ذا الذى يستطيع أن يزعم أن المتنبى أراد أن يعبر عما فى نفسه فلم يجد وسيلة إلى هذاالتعبير إلا هذاالبيت الذى اشتد فيه الالتواء والتعقيد ؟!

ولنلاحظ أن المعنى الذى قصد إليه متكلف فى نفسه ، لم يصدر عن نفس سمحة مرسلة مع طبعها ، وإنما صدر عن شاعر يريد أن يأتى بشئ جديد لم يتعود الناس والمثقفون منهم خاصة أن يسمعوه : يريد أن يفاجئ سامعيه ويأتيهم بشئ لا عهد لهم به . فمتى سمع الناس تشبيه وفاء الأصدقاء بربع الأحباء ؟ وأى علاقة بين هذين الطرفين من التشبيه ؟ وإذن فهذا المعنى الغريب محتاج إلى تعبير غريب ، ولابد للشاعر من أن يتأنق فى لفظه كما تأنق فى معناه ،ولابد من أن تكون الغرابة مظهر هذا التأنق اللفظى، كما كانت الغرابة مظهر ذلك التأنق المعنوى . ومادام قد شبه الوفاء بالربع فليفسر هذا التشبيه بما يزيده غرابة وطرافة وإمعانا فى البعد

---

(١) أشجاه : أحزنه ، والطاسم : الدارس ، والساجم : السائل .
(٢) (العصر العباسى الثانى) ص ١٨٢ ، ١٨٣ .

عن المألوف . فكما أن الربع يكون أشجى للنفس وأبلغ فى إثارة الحزن كلما أمعن فى الدروس وإمحاء الآثار والدنو من البلى ، فوفاء صاحبه أشد إثارة للحزن كلما ضعف وقل وتضاءلت آثاره ، والمتنبى يؤدى هذا المعنى الغريب فى تقليد قد قصد إليه وتكلفه ، فهو كان يريد أن يقول : وفاؤكما بمساعدتى كالربع أشجاه طاسمه فأخر الجار والمجرور عمدا ، وأخبر عن المبتدأ قبل أن يتم وصفه بهذا الجار والمجرور ، ثم لماذا اصطنع كلمة الطاسم وعدل عن الكلمة الشائعة المألوفة وهى الطامس ؟ أتراه فعل ذلك لأن القافية أعيته وهو لم يأخذ بعدٍ فى القصيدة ؟ كلا هو أقدر على اللفظ والقافية من ذلك ، ولكنه تعمد الإغراب ،وتعمد أن يثير حاجة النحويين إلى الاستطلاع والبحث ، وأن ينبئهم بأنهم إن كانوا ريحا فقد لاقوا إعصارا ، وأنهم سيجدونه حين يذكرون الغريب ويخوضون فى حل المشكلات النحوية واللغوية ..." .

ولننظر فى القصيدة نفسها إلى البيت الذى يلى البيت السابق وهو قوله [1] :

ومـا أنـا إلا عـاشـقٌ كـل عـاشـق .·. أعـقُّ خليلَيْـه الصفيَّيْـن لائمُـهْ

ونحن نلاحظ أن الشاعر قصد الإغراب قصدا وكأنه يتعمد أن يثير معاصريه من النحويين والبلاغيين على نحو سواء ، فأى تصوير ذلك الذى أتى به : كل عاشق أعق خليليه الصفيين لائمه " ؟

ولننظر أيضا إلى ما جاء به الشاعر فى البيت التالى من تصوير رائع لا يخلو من إغراب ومفاجأة ، فهو يدعو على نفسه بأنه سيبلى بلى الأطلال الدارسة والرسوم العافية إن لم يقف بديار أحبته معتنيا بها متوجعا لها وقوفا كوقوف الشحيح الذى ضاع خاتمه فى الترب . يقول [2] :

بَلِيتُ بِـلى الأطلال إن لـم أقف بهـا .·. وُقوفَ شحيحٍ ضاع فى التُرْبِ خاتمه

ومن إغرابه فى التصوير ذلك التناقض الذى نراه يلجأ إليه أحيانا حين يريد

---

(١) الديوان : ٣ / ٣٢٧ .
(٢) الديوان : ٣ / ٣٢٨ .

التشبيه . فقد يصور الصور المفجعة بالصور الوادعة ، وصوره حينئذ تبدو فى ظاهرها تشبيهات مجردة عن نظرة الشاعر الشخصية إلى الأشياء . يقول (١) :

وأصبحت بقرى هنزيط جائلة . . ترعى الظبا فى خصيب نبته اللحم (٢)

والمعنى أن الخيل أصبحت بهذه المواضع تجول للغارة والقتل ، والسيوف ترعى فى مكان خصيب من رؤوسهم ، وهو بهذا يمزج بين الظبا تقطع الرؤوس وبين الحيوانات ترعى العشب . ومثله قوله (٣) :

لقد وردوا وِرْدَ القطا شَفَراتها . . ومروا عليها زَرْدَقاً بعد زردقِ (٤)

فهو يمزج بين عملية القتل ومنظر القطا ترد الماء ، والمعنى لقد وردوا شفرات سيوفك كورود القطا المناهل ، ومروا على سيوفك صفا بعد صف كمرور القطا على المناهل .

ويقول (٥) :

نثرتهُمُ فوق الأُحَيْدِبِ نثرةً (٦) . . كما نُثِرَتْ فوق العروسِ الدراهمُ

فهو هنا يقابل بين صورة القتل وصورة العروس فيقول إنك فرقتهم قتلى على ظهر هذا الجبل ، ونثرتهم نثر الدراهم على العروس . والأصل فى النثر أن يكون فى أجسام وأشياء صغيرة كالحبوب والجواهر والدراهم والدنانير ونحوها .. فهذه لها صفة خاصة وهيئة معينة فى النثر والتفريق لا يمكن أن تتأتى وتحصل فى الأجسام والأجساد ، ثم إن القصد من النثر فى الأصل أن تجتمع هذه الأشياء المذكورة قبل من

---

(١) الديوان : ٤ / ٢ .
(٢) هنزيط : من بلاد الروم . والظبا جمع ظبة وهى ظبة السيف .
(٣) الديوان : ٢ / ٣١٤
(٤) الزردق : الصف من الناس
(٥) الديوان : ٣ / ٣٨٨
(٦) الأحيدب : جبل

دراهم ودنانير وجواهر فى كف إنسان أو فى وعاء مثلا ثم يحدث لها التفرق والنثر دفعة واحدة .

والحقيقة أن الأجسام والأجساد لا يمكن أن يتحقق فيها ذلك ، إلا أنه لما اتفق أن المنهزمين فى الحرب يتساقطون ويتقهقرون على غير نظام ولا ترتيب كما هو الحال فى الشئ المنثور .. رأى الشاعر لنفسه أن يعبر عن هذا التساقط بالنثر ، وأخذ ينسب ذلك إلى ممدوحه ، فهو فاعل هذا الانتشار ومسببه .

ويقول عن خيل سيف الدولة (١) :

ولا تَـرِدَ الغُـدْرانَ إلا ومـاؤُهـا .·. مـن الـدم كالرَّيحـان تحت الشقائـق

فهو يقول إن كثرة القتلى جعلت دماء الأعداء تجرى إلى الغدران حتى غلبت حمرة الدم على خضرة الماء ، والماء يلوح من خلال الدم ، وشبه خضرة الماء وحمرة الدم بالريحان تحت الشقائق .

ويقول عن قتلى الأعداء (٢) :

وَجَـرى عـلى الـوَرَقِ النَّجيـعُ القانـى .·. فكأنـه النارَنْـجُ فـى الأغصـان

فهو يقول إنهم لما قتلوا وتمزقت شعورهم على شجر الجبال اسودت ، وصار شجر الجبال الذى جرت على أوراقه الدماء الحمراء صار لحمرته كالنارنج فى الأغصان . فصور (الريحان تحت الشقائق) و (النارنج فى الأغصان) صور محببة وادعة إلى الحياة بصورتها المحببة الهادئة ، هذه الصور مزجها الشاعر بصور القتل والدماء .

فنحن نلحظ أن الشاعر قد مزج هذه الصور الوادعة المحببة الهادئة بأعنف ما فى

---

(١) الديوان : ٢ / ٣٣٠ .
(٢) الديوان : ٤ / ١٨٤ .
(٣) النجيع : الدم الطرى .

الحياة وهى صور القتلى وسفك الدماء . وهذه صور غريبة مهولة ؛ وربما أن المتنبى كان يعمد إلى هذا التضاد ليثير الانتباه إلى هول هذه الصور ، ولربما أنه يرى فى القتل وسفك الدماء تلك الصور الوادعة المحببة ، كما تبدو الحرب فى أشعاره وكأنها وسيلة من وسائل الحياة أو لكأنها قيمة أساسية من قيم الحياة .

وفى الأمثلة السابقة نرى الشاعر يصور الحياة لتجاور صور الموت ، فهو ينظر من خلال الذين تقتلهم الظبا إلى الظبا تحيا ، كما ينظر إلى القطا ترد الماء من خلال قتل الشفرات للأعداء ، وينظر إلى صورة العرس من خلال صورة القتلى ..وهكذا .

وربما يمكن القول إن هذا لا يمثل تناقضا ، فصورة القتل وسفك الدماء قد لا ترتبط فى ذهن الشاعر بصورة الكراهية ولابسمة الرهبة والفزع ، وإنما ترتبط بالجانب المحبب والمفضل من الحياة ، كما حدث له حين ربط بين الغزل والحرب ، وساق ألفاظ الغزل فى حديثه عن الحرب ؛ فإلحاحه على مجئ ألفاظ الغزل بين أبيات الحرب لا يعنى أن هذا استخدام لها فى غير مجالاتها ، فالحرب ليست شيئا كريها لديه كما سبق القول ، وإنما هى شئ نبيل يكفل للإنسان كيانه فوق الأرض ويحقق له ذاته ، وليس أمام الشخص إلا الحرب إذا ما قوبل بالحقد وبالعداء من الآخرين ، والحرب كذلك ليست شرا ولكنها حزم يدفع الشر ، ومن هنا يبدو التآلف العجيب بين الحب والحرب ، ويبرز بوضوح استعمال المتنبى لألفاظ الغزل فى الحرب (١) .

وأيا ما كان الأمر فإننا يمكننا أن نقول إنه على الرغم من المشابهة الشكلية التى تبدو بين كل هذه الأشياء التى ساقها المتنبى ، وكون المتنبى - شأنه شأن الشعراء العرب - قد اهتم بالمظهر المادى الخارجى للأشياء الحسية فى معظم تشبيهاته .. على الرغم من ذلك فإن شاعرنا كان من دأبه أن يعمد إلى التناقض والتضاد فى صوره ؛ ولعل الذى كان يسوقه إلى ذلك هو رغبته اللا محدودة فى إثارة الانتباه ، وإظهار التفوق والامتياز ، وارتفاع شأنه الفنى .

---

(١) انظر المتنبى بين ناقديه فى القديم والحديث د. محمد عبد الرحمن شعيب ص ١٠١ . دار المعارف بمصر ١٩٦٤ م .

لنستمع إليه يقول يعرض بخصومه . ويصف نفسه الطامحة وأمله البعيد وجده فى تحقيق هذا الأمل (١)

عِشْ عزيزا أو مُتْ وأنت كريم ... بين طعن القنا وخَفْق البُنُود
فرؤوسُ الرماحِ أذهب للغيظ ... وأشفى لغلِّ صدر الحقود
لا كما قد حييتَ غير حميدٍ ... وإذا مُتَّ مت غير فقيد
فاطلب العز فى لظىً وذر الذل ... ولو كان فى جنان الخلود
يُقتل العاجز الجبانُ وقد يعجز ... عن قطع بُخْنُقِ المولود
ويُوقَى الفتى المِخَشُّ وقد خوَّ ... ض فى ماء لَبَّة الصنديد
لا بقومى شرُفت بل شرفوا بى ... وبنفسى فخرت لا بجدودى
وبهم فخر كل من نطق الضا ... د وعَوْذُ الجانى وغوث الطريد
إن أكن معجبا فعُجْبُ عجيبٍ ... لم يجد فوق نفسه من مزيد
أنا تِرْبُ الندى وربُّ القوافى ... وسمام العدا وغيظُ الحسود
أنا فى أمة تداركها الله ... غريب كصالح فى ثمود

وليس هناك من شك فى أن المتنبى قد أثم فى هذه القصيدة التى منها هذه الأبيات من وجوه : فهو يذكرحلاوة التوحيد على هذه الصورة الساخرة وهو يصف الحسان الكوفيات :

يترشفن من فمى رشفات ... هن فيه أحلى من التوحيد

وكما شبه نفسه فى البيت الأخير من الأبيات المذكورة بنبى الله صالح ، نجده فى بيت سابق يشبه نفسه بالمسيح ،ويشبه المسلمين الذين كان يعيش بينهم باليهود:

ما مقامى بأرض نخلة إلا ... كمقام المسيح بين اليهود

ثم لا يقف المتنبى فى شعره عند هذا الحد من التجاوز ، بل راح يعلن الثورة

---

(١) الديوان ١ / ٣٢١ - ٣٢٤

والخروج على النظام ، وذلك كما فى قصيدته الميمية [١] ، تلك التى جهر فيها بالقرمطية الصريحة التى تجحد الصلوات الخمس ، وتستحل دم الحجاج فى الحرم .

وأحب أن أذكر هنا أنه إذا اتفق القدماء أو اختلفوا فى ثورة المتنبى، وفى طبيعة هذه الثورة ، وفى مداها ، فإنى لا أتردد فى قبول ما قيل من أنه قد غاضب الناس جميعا ، وألّب الدولة الإسلامية كلها على نفسه ، ولذلك كان لا يكاد يستقر فى مكان حتى يثير فيه الثورات وألوان الخصومات ، ولذلك هرب من حلب مغاضبا لسيف الدولة ، وهرب من كافور ، وتعرض فى بغداد لسخط رجال السياسة والأدب ،ولم تخل إقامته عند عضد الدولة من خوف وإشفاق ، ثم لم يكد يصدر عن عضد الدولة حتى قتل فى طريقه .

ولابد أن نشير هنا إلى أن صور المتنبى هذه تختلف تمام الاختلاف عما يعرف فى البلاغة بالتهكم ، كما فى مثل قول الله تعالى : " فبشرهم بعذاب أليم " . وذلك لأن التهكم يعتمد على استخدام اللفظ فى حالة مخالفة له تماما استثارة للسخرية .

والمتنبى لا يتحرج عن استعمال اللفظ الذى يريد ، فهو يقول [٢] :

أيَفْطِمُهُ التَّوْرَابُ قبلَ فِطامِهِ .٠. ويأكُلُهُ قبلَ البلوغِ إلى الأكْلِ [٣]

فهو حين استعمل صيغة التوراب يصورها بصورة كائن شرس قاس يفطم الطفل هذا الفطام البشع ثم يأكله ، وهذه صورة بشعة غريبة ، كما أن لفظة " التوراب " تمثل نشازا بين ألفاظ البيت المألوفة البسيطة .

ومن الصور الغريبة عند المتنبى ما ابتدعه من عكس الكلام حين يريد المبالغة فى التصوير ، كقوله مادحا [٤] :

---

(١) انظرها فى الديوان : ٤ / ٣٤ - ٤٤ .
(٢) الديوان : ٣ / ٥٠ .
(٣) التوراب : لغة فى التراب .
(٤) الديوان : ٤ / ٧٠ .

أرانِـبُ غيـر أنهُـمُ مُلـوكٌ .·. مُفَتَّحَـةٌ عُيُونُهُـمُ نِيـامُ

يقول أبو الفتح : " المعهود فى مثل هذا أن يقال : هم ملوك ، إلا أنهم فى صورة الأرانب . فتزايد وعكس الكلام مبالغة فجعل الأرانب حقيقة لهم ، والملوك مستعارا فيهم . وهذه عادة له يختص بها ، ثم قال : هم وإن تفتحت عيونهم نيام من حيث الغفلة ، كالأرانب نيام مفتحة الأعين ، كما قال :

وأنت إذا استيقظت أيضا فنائم

وكقول أبى تمام :

أيْقَظْـتَ نائِمَهُـمْ ، وهـل يُغْنِيهِـمُ .·. سَهَـرُ النـواظِـر والعيـونُ نِيـامُ

انتهى كلام أبى الفتح (١) .

ومن إغرابه فى التصوير أنه قد يصور الشئ بشئ آخر لم يقع له على شبه لا قريب ولا بعيد . ومن ذلك قوله (٢) :

لـم تَحْـكِ نائلَـك السحـابُ وإنمـا .·. حُمَّـتْ بـه فَصَبيبُهـا الرُّحَضَـاءُ

وقوله (٣) :

إلاَّ يَشِـب فلقـد شابَـت لـهُ كَبِـدٌ .·. شَيْبـا إذا خَضَّبَتْـهُ سَلْـوةٌ نَصَـلا

فهو يتكلف تلك الصور فى شعره تكلفا أدى به إلى استخدامها استخداما غير فنى ، إذ يجعل للسحاب حمى ، وللكبد شيبا ،وهذا تصوير لم يجر على شبه لا قريب ولا بعيد ، ولذلك عابوا عليه قبح الاستعارة فى قوله (٤) :

شَـرَفٌ ينطَـحُ النجـومَ بـرَوْقَيْـــ ـــه وعِـزٌّ يُـقَلْـقِـلُ الأجْبـالا

(١) الديوان : ٤ / ٧٠ .
(٢) الديوان : ١ / ٣٠ .
(٣) الديوان : ٣ / ١٦٤ .
(٤) الديوان : ٣ / ١٣٤ .

وفى قوله (١) :

مَسَرَّةٌ فى قلوب الطيب مَفْرِقُها .·. وحسرةٌ فى قلوب البَيْض واليَلَبِ (٢)

وفى قوله (٣) :

تجمَّعت فى فؤاده هممٌ .·. ملءُ فؤاد الزمان إحداها

ففى البيت الأول نراه يسرف فى تجسيد المجردات فيجعل للشرف قرنا ،وهذه استعارة غير مستحسنة ، وليس للشاعر عذر فى مثل هذا الاستخدام ، وفى البيت الثانى نراه كذلك يجعل للطيب والبيض واليلب قلوبا تتحسر ، وفى البيت الثالث يقول إنه تجمعت فى فؤاد ممدوحه همم إحداها تملأ الزمان ، إذ المعلوم أنه لا شئ أوسع من الزمان ،وحين ذكر فؤاد ممدوحه ذهب فاستعار للزمان فؤادا .ومثل هذه الاستعارة لم تكن موضع إعجاب لما فيها من غرابة فى التصور ومن خروج عن حد الاستعمال والعادة ، فقد جعل للزمان فؤادا ومثل هذا لم يجر على شبه قريب ولا بعيد ، والواقع أن الاستعارة إنما تصح وتحسن على وجه من المناسبة وطرف من الشبه والمقارنة .

هذا وقد يكون للمتنبى ما يشبه العذر المقبول حين تأتى صوره خالية من الإتقان والطرافة، فثقافته ، ووسائل عيشه ، وماكان عليه عصره من حضارة قد لا تفسح له فى هذا الميدان بمثل ما أفسحت لغيره من الشعراء الذين أدركوا من واسع الثقافة وناضر العيش وزاهر الحضارة ما لا يقاس إليه نصيب المتنبى .

ومن أغرب استعارات المتنبى وأبعدها وجها قوله من قصيدة له يمدح فيها سيف الدولة (٤) :

إذا كان بعض الناس سيفا لدولة .·. ففى الناس بُوقاتٌ لها وطُبُولُ

---

(١) الديوان : ١ / ٩٠ .

(٢) اليلب : الدروع اليمانية تتخذ من الجلود يخرز بعضها إلى بعض .

(٣) الديوان : ٤ / ٢٧٧ .

(٤) الديوان : ٣ / ١٠٨ .

والمعنى : أنك إذا كنت سيفا للدولة، فغيرك من الملوك بالإضافة إليك بمنزلة البوق والطبل ، أى لا يغنون غناءك ولا يقومون مقامك .

وقال أبوالفضل العروضى : " أراد بالبوق والطبل : الشعراء الذين يشيعون ذكره ، ويذكرون فى أشعارهم غزواته ، فينتشر بهم ذكره فى الناس كالبوق والطبل اللذين هما لإعلام الناس بما يحدث " (١) .

وقريب من هذا البيت قوله (٢) :

مَنْ رآهـا بعيْنِهـا شاقـه القُطْـا نُ فيهـا كمـا تشُـوقُ الحُمُـولُ

المعنى : قال أبو الفتح : من رأى الدنيا بالعين التى يجب أن ينظر بها إليها فإنها تراها رؤية فالعين فى هذا الوجه للإنسان ، ويجوز أن يكون للدنيا ، من قولهم: هذا عين الشئ ،أى حقيقته ، أى من عرف الدنيا حق معرفتها تيقن أن أهلها راحلون لا محالة ، فلم يجد بين القاطن والراحل فرقا ، فهذا يشوقه و هذا يشوقه ، لأن الرحيل قد شملها . والمعنى : من رأى الدنيا بعينها ، وتوسمها بحقيقتها شاقه القاطن فيها لقلة مقامه ، كما يشوقه الظاعن عنها لسرعة زوالها " (٣) .

والذى أراه أن ماأراده المتنبى قد عدل الشارح عنه إلى التأويل ، فالمتنبى يجعل للدنيا عينا ترى بها ، وهذا غريب ، لأنه نزل الدنيا منزلة المبصر ؛ وهذا هو المتبادر من لفظ البيت .

ولنتأمل معا قول المتنبى يعبر عن حزنه لفراق أحبابه (٤) :

فى الخد أن عـزم الخليـطُ رحيـلا ∴ مطـرٌ يزيـدُ بـه الخُـدودُ محـولا

---

(١) الديوان : ٣ / ١٠٨ .
(٢) الديوان : ٣ / ١٥٠ .
(٣) الديوان : ٣ / ١٥٠ .
(٤) الديوان : ٣ / ٢٣٢ .

إننا سنجد الخيال في البيت مصنوعا كاذبا ، بعيدا عن الصدق الفنى لانفصاله عن الإدراك الوجدانى أو الإحساس العطفى ، ثم إن الشاعر قد تدخل فى توجيه الخيال وصناعته ، فهو يريد المبالغة فى التعبير عن حزنه لفراق أحبابه وبكائه فى هذا الموقف ، فجعل دموعه مطرا ، ولم يكتف بذلك ، بل راح يساير تخيله المصنوع فسلب المطر حقه فى الإمراع والإخصاب ، وجعله مصدر إمحال وجفاف للخدود لأنها سوف تتقرح بالدموع .

. . . . .

والحقيقة أن هاهنا شيئا لابد من تقديره فيما أظن ، وهو أن المتنبى قد تعمد هذا الإغراب تعمدا ، وقصد إليه مع سبق الإصرار ، لا لشئ إلا ليصدم سامعيه ، ويفرض عليهم نفسه ، ويضطرهم على الاعتراف بأن هذا الشاعر الجديد ليس كأى شاعر، وإنما هو شاعر يعرف كيف يقول البيت من الشعر ، فيكلف سامعيه وقارئيه كثيرا من الجهد والعناء ليفهموه ثم ليتذوقوه .

ومهما يكن من شئ فإن المتنبى قد استعد لمقامه هذا بين يدى سيف الدولة ، واصطنع لهذا المقام الخطير ما يلائمه من فخامة الوزن ، وجزالة اللفظ ، ودقة المعنى . وأنت واجد هذا كله فى قصيدته الميمية (١) التى حرص على أن تكون قصيدته الأولى بين يدى سيف الدولة ، وأن تكون خليقة بمقامه الأول بين يدى الأمير ، على أن يقرأ أصحاب الأمير وندماؤه هذه القصيدة أو يسمعوها ، فإذا هم مضطرون إلى أن يقدروها ويحسبوا لصاحبها حسابا ، ويعترفوا بأن الشاعر وشعره خليقان حقا بالعناية والتفكير .

وفى الكناية جانب مما فى التشبيه والاستعارة ، فحين يقول المتنبى (٢) :

فى كل أرض وطِئْتَها أمم .. تُرْعَى بعَبْدٍ كأنهم غَنَمُ

(١) الديوان : ٣ / ٣٢٥ .
(٢) الديوان : ٤ / ٥٩ .

يستخشِنُ الخزَّ حين يَلْبَسُهُ .. وكان يُبرَى بظُفره القلمُ

إن الشاعر يريد أن يقول أن العبيد الذين كانوا يؤمَّرون على الناس من الأتراك وغيرهم الذين كانوا أمراء ، صاروا يتكبرون ويستخشنون الخز ، مع أنهم كانوا يلبسون قبل الصوف ، وكان الواحد منهم يسير حافيا طويل الأظفار ....

والمعروف أن الكناية هى أن يريد المتكلم إثبات معنى من المعانى فلا يذكره باللفظ الموضوع له فى اللغة ، ولكن يجئ إلى معنى هو تاليه ومرادفه فى الوجود ، فيومئ به إليه ،ويجعله دليلا عليه (١) .

والكناية أبلغ من التصريح ، بمعنى أنك لما كنيت عن المعنى الذى تريده زدت فى ذاته وفى إثباته ، وجعلته أبلغ وآكد ، وأوجبته إيجابا ؛ لأن إثبات الصفة بإثبات دليلها وإيجابها بما هو شاهد فى وجودها ، أبلغ فى الدعوى من أن تجئ إليها فتثبتها صريحة (٢) .

والكناية التى جاء بها المتنبى فى الشطر الثانى من البيت الأخير قد أدت دورها فى تجسيد البشاعة والخشونة بشكل لا يمكن بأى حال من الأحوال أن يقوم به التعبير المجرد المباشر ، لقد أراد الشاعر أن يبالغ فى وصفهم بالخشونة ، والمعنى هنا إنما يختلف كثيرا عن المعنى الذى جاء به الشاعر فى الشطر الأول من البيت نفسه ، ومع ذلك فإن الكناية التى جاء بها المتنبى مما لا يتصور حمله على الحقيقة ،فلا يصح أن تراد فى معناها المباشر ولو لم تكن هناك قرينة مانعة من إرادة المعنى الظاهر ، لأن الموقف والسياق أقوى قرائن التعبير الفنى ،وليس المعنى الشعرى فى الحقيقة كامنا فى قرينة أو علاقة .

* * *

(١) انظر دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجانى ، وانظر مفتاح العلوم للسكاكى ، وانظر كذلك الإيضاح للخطيب القزوينى .

(٢) انظر دلائل الإعجاز للجرجانى ص ٥٦ ، ٥٧ ، تصحيح وتعليق السيد محمد رشيد رضا . دار المعرفة ، بيروت ١٣٩٨ هـ ١٩٧٨ م .

ثانيا : الإغراب فى الموسيقى :

الموسيقى إيقاع ، ولم تعد فى الشعر مجرد أصوات رنانة تروع الأذن ، بل أصبحت توقيعات نفسية تنفذ إلى صميم المتلقى لتهز أعماقه (١) ، وتظهر الموسيقى فى تآلف أصوات الحروف وفى تآلف الكلمات حين تنتظم فى التركيب ، وهذه هى الموسيقى الداخلية ، وبهذه الموسيقى يتفاضل الشعراء (٢) .

والوزن الشعرى كذلك هو صورة الإيقاع أى صورة تتابعه فى وحدات التفاعيل . وهو – أى الوزن – يثير الحيوية ، ويحرك العواطف ، وهو يساهم إلى أقصى حد فى قيمة الشعر الجمالية ، بل إن كثيرا من النقاد يعزون ماتجده فى الشعر من حيوية وسحر ، وما يحدثه فينا من تحريك عواطف إلى وزنه وموسيقاه .. هذه القيمة وتلك القوة الساحرة تهيئ لنا حالة من الاندماج فى العالم الخارجى وما فيه من تلازم حركى موقع .

وللوزن – على الرغم من شكليته – قيمة انفعالية تتعلق بتهيئة الحواس وخلق الأحاسيس الفطرية لدى الإنسان ، كما أنه يشد من أزر المعنى ويجعله ينفذ إلى القلوب ، وفوق ذلك له علاقة بالموضوع الشعرى ، فمن الموضوعات ما يناسب البحر الطويل ، ومنها ما يناسب البحر الخفيف .. وهكذا (٣) .

على أن الإنصاف يقتضينا أن نقول : إن تصنع المتنبى فى الشعر قد تناول توقيعاته كما تناول ألفاظه وتعبيراته ، فثمة ظاهرة نجدها عند جماعة من شعراء عصر المتنبى ومنهم شاعرنا وهى التصنع فى الموسيقى المنبعثة من الألفاظ ، المنسابة من الوزن والقافية ، وتكلف القوافى التى لا تخلو من عسر .

---

(١) الشعر العربى المعاصر قضاياه وظواهره الفنية والمعنوية د. عز الدين اسماعيل ص ٦٧ .
(٢) انظر فى النقد الأدبى ، للدكتور شوقى ضيف ص ٩٧ وما بعدها .
(٣) يلاحظ النقد الأدبى الحديث د. محمد غنيمى هلال ص ٤٦٣ وما بعدها ، دار النهضة العربية الطبعة الرابعة ١٩٦٩م .

وجدير بنا – ونحن نتكلم عن الإغراب فى الموسيقى عند المتنبى – أن نقول إن اعتماده على ثقافته النحوية ، ولجوءه إلى كثير من التراكيب الشاذة فى صنع قصائده ، وإلحاحه على كل غريب أو شاذ فى التعبير قد أحدث خللا فى موسيقى شعره وإيقاعاته .وهذا خروج عمد إليه المتنبى عمدا وقصده قصدا ؛ ولعل حجته فى ذلك أنه حاول البحث عن وسائل جديدة فى الإيقاع كما حاول ذلك قبل فى اللفظ والتركيب ، وهى وسائل لا تفصح إلا عن ثقافته ، وإن كان صنعه فى ذلك لا يتجاوز أن يكون إحداث نغمات شاذة تخالف نبرات الشعر المألوفة ونغماته المعتادة .

ونحن نراه فى أبيات له يتصنع فى تركيبه تصنعا يتناول الموسيقى والإيقاع ، وهذا التصنع قد أحدث نشازا وغرابة فى الموسيقى تماثل تلك الغرابة التى أحدثها فى التركيب .

يقول (١) :

قَلقٌ المليحةِ ، وَهْىَ مِسْكٌ هَتْكُهـا .·. وَمَسيرُهـا فـى الليـلِ وَهْى ذُكَـاءُ (٢)

وانظر إلى مطلع قصيدته الذى يقول فيه (٣) :

وَفاؤكُمـا كالرَّبْـعِ أشْجـاه طاسِمُـهْ .·. بـأنْ تُسْعِـداَ والدَّمْـع أشْفـاه ساجمـه

فأنت ترى أن ترتيب هذا البيت يتسبب فى إحداث انحرافات موسيقية ، ومع أن هذا المطلع من المطالع المستهجنة لما فيه من تعقيد وخفاء معنى ، مع هذا فقد أحدث الشاعر تقديما وتأخيرا فى التركيب تسبب فى إيجاد خلل موسيقى ، وهذا النوع من الموسيقى وإن كنا نحكم عليه بالشذوذ إلا أنه من النوع الذى يلائم الأذواق فى عصر شاعرنا .

---

(١) الديوان : ١ / ١٣ .
(٢) ذكاء : اسم للشمس .
(٣) الديوان : ٣ / ٣٢٥ .

والحقيقة أن المتنبى لم يستطع أن يضيف جديدا إلا هذا الذى جاء من التعقيد والإغراب فى الإيقاع ؛ لأنه حين حاول التجديد فى الموسيقى لم يلجأ فى ذلك إلى الوسائل الفنية الثابتة التى تقرها صناعة الشعر ، ولكنه طرح الأساليب الفنية هنا كما طرحها قبل فى الألفاظ والتراكيب ، وراح يعتمد على بينات اللغويين والنحويين والفلاسفة وغيرهم ، وأخذ يستمد من كل أولئك ألفاظا وصورا أحدثت هذا اللون الموسيقى الشاذ . وهو وإن جاءت أبياته تعتمد على الوسائل الفنية القديمة كالجناس والطباق والمشاكلة والاستعارة والتشبيه إلا أن ذلك كان نادرا ، بل إنه سرعان ما كان يحيل هذه الصور القديمة عن أصولها ، ويجعلها معقدة كتعقيد ألفاظه وتراكيبه .

كما أن له أبياتا خرج فيها على الوزن . يقول فى قصيدته التى يمدح فيها طاهر بن الحسين العلوى (١) :

تَفَكُّرُهُ عِلْمٌ ، ومَنْطِقُهُ حُكْمٌ .·. وباطِنُهُ دِينٌ ، وظاهِرُهُ ظَرْفُ

يقول البديعى معلقا على هذا البيت : " فقد خرج فيه على الوزن ، لأنه لم يأت عن العرب مفاعيلن فى عروض الطويل غير مصرّع ، وإنما جاء مفاعلن . يقول الصاحب : ونحن نحاكمه إلى كل شعر للقدماء والمحدثين على بحر الطويل فما نجد له على خطئه مساعدا " (٢) .

وقد عيب أيضا بقوله (٣) :

إنما بَدْرُ بْنُ عَمَّارٍ سَحابٌ .·. هَطِلٌ فيه ثَوابٌ وعِقابُ

لأنه أخرج الرمل على (فاعلاتن) وأجرى جميع القصيدة على ذلك فى الأبيات غير المصرعة ، وإنما جاء الشعر على (فاعلن) وإن كان أصله فى الدائرة فاعلاتن .

---

(١) الديوان ٢ / ٢٨٧ .
(٢) الصبح المنبى : ٣٦٦ .
(٣) الديوان : ١ / ١٣٣ .

ومن إغراب المتنبى فى الموسيقى أننا نراه فى أغلب موضوعاته يؤثر البحور المجلجلة ذات النغم الفخم والجرس القوى سواء أكانت مناسبة فى مكانها أم غير مناسبة ، مع أن الوزن الشعرى إذا لم يكن ملائما لموضوعه فقد موسيقاه المؤثرة المترجمة عن الشعور العميق واستحال صوتا منكرا ؛ لأن كلام الأديب - شعرا كان أم نثرا - إنما هو أصوات تبرز ما فى نفس المتكلم ، وتصور شعوره على الوجه الأكمل ، فإذا كانت النفس وادعة حالمة وجب حينئذ اختيار اللفظ الرقيق والوزن الشعرى الهادئ، وعلى العكس إذا كانت النفس ثائرة غاضبة وجب اختيار اللفظ القوى المجلجل والوزن الشعرى الأقوى ، كى يتناسب ذلك وما يترجم عنه من شعور قوى عميق ، وكى يستطيع أن يصور المشاعر أقرب ما تكون إلى الحقيقة .

وحال المتنبى هنا لا يختلف قليلا أو كثيرا عن حاله فى ألفاظه ؛ فقد يضع اللفظ الجزل فى غير موضعه ، وكذلك اللفظ الرقيق ، وكلاهما فى غير موضعه واهن ضعيف . والأوزان فيما نرى تختلف بحسب استعمالها ،ولكل وزن موضع يحسن استخدامه فيه ، فالوزن القوى يستعمل فى الحروب والتخويف والتهديد وأشباه ذلك، والوزن الشعرى الهادئ يستعمل فى الاستعطاف وفى وصف الأشواق ،وفى استجلاب المودات ، وذكر أيام البعد وأشباه ذلك .

وأنت لو تصفحت ديوان المتنبى وجدت البحور القوية الجرس ، الممدودة النغم - وبخاصة الكامل والوافر والطويل - التى لا تكاد تصلح إلا لمواقف الشدة والعنف ، نجدها تستحوذ على أكثر من نصف قصائده ، وهو يؤثرها على غيرها ، ثم تجدها تضرب فى نواح شتى من الأغراض المختلفة بين غزل وفخر ومديح وهجاء وحنين وأنين وغير ذلك ، والشاعر بهذا الصنع كأنه يفتقد الفنية الموسيقية التى تجعله يربط بين الموضوع والرنات، فيجمع بين قوة الموضوع أو لينه وقوة الوزن أو هدوئه ، ويعقد الصلة بين هذه وتلك ، وكان لهذه أثره فى ترجمة المعنى وفى تصوير الشعور .

وفوق ذلك فالشاعر لم يعط البحور الأخرى ، كتلك التى هى هادئة الجرس ، عذبة النغم ، خفيفة الوقع ، لم يعطها أدنى اهتمام ، ولم يحلها فى المحل الذى هى أليق به وأنسب ، ونحن نعزى ذلك كله حقيقة إلى طبيعة المتنبى الثائرة ، إذ كان بينه وبين الصحراء تلاؤما وتشابها ، وانعقدت بينه وبينها أواصر التآلف والتحالف .

أما كيف ينتهى البيت الشعرى عند المتنبى فهذا يدعونا إلى الحديث عن القافية ، ولاشك أن القافية مع الوزن هما عصب الشكل الشعرى (١) ، ولابد من توافرهما حتى يكون الكلام شعرا ، كما أنه لا يمكن للشعر أن يستغنى عن القافية، فهى النهاية الموسيقية التى ترتاح إليها النفس ، كما أنها تزيد فى موسيقى الشعر .

والحقيقة أن القافية القديمة ذات الروى الواحد المتكرر فى القصيدة هى نقطة الارتكاز الموسيقية عند المتنبى ، وهذه القافية هى قمة فى البناء الموسيقى واللغوى ، وكثيرا ما أحوجت بعض الشعراء الذين ينظمون قصائد مطولة إلى حصيلة لغوية واسعة ، وهذا بعينه هو الإشكال الذى عانى منه القدماء أنفسهم .

ومع أن المتنبى شاعر عبقرى فى اختيار قوافيه ، إذ أنه ينتقى القافية التى تجد مكانها فى القصيدة ، والتى تحكى بوقعها حالة الشاعر النفسية ، إلا أن هناك ظاهرة أخرى نجدها فى عصرالمتنبى عند جماعة من الشعراء ، ولم يسلم منها المتنبى نفسه ، هذه الظاهرة هى تكلف القوافى التى لا تخلو من عسر ، والتى لم يكن المطبوعون من الشعراء المتقدمين يتكلفونها ، هذا بالإضافة إلى أنه لا يتجنب الإتيان بالحروف التى لا تتلاءم والقافية ، فعنده فى قوافيه حروف ثقيلة على اللسان فى النطق ، وثقيلة أيضا على الآذان فى الأسماع .

ولنأخذ على سبيل المثال قصيدته الذالية التى مدح فيها مساور بن محمد الرومى (٢)، أو قصيدته الكافية التى مدح فيها عبيد الله بن يحيى البحترى (٣)، ونحن حين نقرأ قصيدة من هاتين القصيدتين نكاد نحس بتكلف القافية ، وأن الشاعر قد أخذ نفسه بشئ من الشدة ليظهر قدرا من البراعة فى اصطناع القوافى والقدرة على استذلالها . ولعل الذى وجهه إلى هذا التكلف هو طابعه المعروف عنه والذى اشتهر به ، ويحسه كل قارئ لأشعاره : فى الألفاظ والمعانى والأساليب .

---

(١) يلاحظ النقد الأدبى الحديث ، للدكتور محمد غنيمى هلال ص ٤٦٩ وما بعدها .
(٢) الديوان : ٢ / ٨٢ وما بعدها
(٣) الديوان : ٢ / ٣٧٧ وما بعدها .

ومطلع القصيدة الأولى :

أمســـاور أم قـــرن شمــس هـــذا ∴ أم ليــث غــاب يقــدمُ الأستـــاذا ؟

ومطلع القصيدة الثانية :

بكيت ياربـع حتى كـدت أبكيكـا ∴ وجُدْتُ بى وبدمعـى فـى مغانيكـا

ولنأخذ أيضا لاميته التى مدح بها سعيدا بن عبد الله (١) لنلتمس ما فيها من تكلف فى القافية ، ومدى ما وصل إليه المتنبى من تكلف وتعقيد رآهما وسيلة من وسائل الأداء الشعرى .

إنه يستهل هذه القصيدة بأبيات غزلية يقول فيها :

أحيـا وأيسَـرُ مـا قاسيـتُ ما قتَـلا ∴ والبَيـنُ جارَ علَى ضعفى وما عدلا

والوَجْدُ يقوى كما تقوى النوى أبدا ∴ والصبر يَنْحَلُ فى جسمى كما نحلا

لـولا مفارقـةُ الأحبـاب مـا وجـدت ∴ لهـا المنايـا إلـى أرواحنـا سُبُـلا

بِـا بجفنيـكِ مـن سـحرٍ صـلى دَنِفا ∴ يهـوى الحيـاة وأمَّا إن صـددت فـلا

إلَّا يَشِـبْ فلقـد شابـت لـه كبـد ∴ شَيْبـا إذا خضّبَتْـه سَـلوةٌ نصـلا

يُجَـنُّ شـوقـا فلـولا أن رائحـةً ∴ تـزورهُ فـى ريـاح الشـرق مـا عَقَلا

هـا فانظـرى أو فظنى بى ترى حُرَقا ∴ مـن لـم يـذق طرفـا منـها فقـدْ وألا

فما رأيك فى هذا الجهد العنيف الذى يتكلفه الشاعر فى القافية ، وما أرانى فى حاجة إلى أن أنبهك إلى أن الشاعر قد أكره القافية إكراها ، ولعله كان يحس من الناس شيئا من الإنكار فيأبى عليه عناده إلا أن يغيظ مخاصميه بالإلحاح فيما يكرهون ،وما يكاد يدع البيت من أبيات القصيدة حتى يعود إلى التكلف والجهد فى البيت الذى يليه ، ويأخذ ينتقل من التكلف إلى التعقيد ، ومن التعقيد الذى تفرضه الضرورة إلى التعقيد الذى يصبح مذهبا فى الشعر ، وفنا من فنون الأداء الشعرى .

---

(١) انظرها فى الديوان : ٣ / ١٦٢ - ١٧٢ .

ولست أطيل التعليق على ما في هذه القصيدة من تكلف في الأداء ، فأنت إذا قرأت أبيات القصيدة جميعها سترى أن الشاعر قد تكلف ما يتكلفه الشعراء ،وقد ظهر تكلفه في لفظه ، وأسلوبه ، ومعناه ، وموسيقاه ، والشاعر من جهته ممعن في تكلفه ، راض عن هذا التكلف ، لدرجة جعلته القوام الفني لشعره لا يعدل عنه ،ولا يكاد يعدل به أداة فنية أخرى .

فالمتنبي إذن ماض في تكلفه وصنعته ، وفي استعلائه على الخصوم ، لا يصطنع في ذلك رفقا ولا أناة ولا تواضعا . ومع ذلك كله فنحن حين نقرأ شعر المتنبي نحس بطبيعة شاعرة نامية ، كما نحس بملكة فنية ناضجة .

ومن قوافي المتنبي المستعصية الصعبة تلك التي جاء بها في قصيدته التي مدح فيها أبا بكر عليا بن صالح الكاتب [1]، فقد اختار حرف الزاي قافية لهذه القصيدة ، وهذا الاختيار قد كلف الشاعر شططا وجعله يصطنع ألفاظا عامية مبتذلة لا تمت إلى اللغة الشعرية في شيء .

وانظر إن شئت إلى بيته [2] :

حَمَلَتهُ حمائلُ الدهر حتى .·. هي محتاجة إلى خرّازِ

أو إلى بيته [3] :

شغلت قلبه حسانُ المعالي .·. عن حِسان الوجوه والإعجاز

أو إلى بيته [4] :

تَقْضَمُ الجمرَ والحديدَ الأعادي .·. دونه قضم سُكّرِ الأهوازِ

---

(١) انظرها في الديوان : ٢ / ١٧٣ - ١٨٤ .
(٢) الديوان : ٢ / ١٧٤ .
(٣) الديوان : ٢ / ١٧٩ .
(٤) الديوان : ٢ / ١٨٠ .

أو إلى بيته (١) :

سَلَّهُ الركضُ بعد وَهْنٍ بنجْدٍ ∴ فتصدَّى للغيث أهلُ الحجاز

أو إلى بيته (٢) :

ملكٌ منشدُ القريضِ لديه ∴ يضع الثوب فى يَدَىْ بزّاز

أو إلى بيته (٣) :

ويرى أنه البصير بهذا ∴ وهو فى العُمْىِ ضائع العكاز

فأنت ترى أنه لولا هذه القافية المستعصية النادرة لما اضطر الشاعر إلى اصطناع مثل هذه الألفاظ ، ولما فرضت عليه مثل هذه الكلمات المبتذلة . ولعلى أرى أن مثل هذه الأبيات التى أكره المتنبى القافية فيها إكراها إنما تدلنا على أن الشاعر كان متفرغا لصغائر الفن وسخفه ، كما كان مهتما ببعض التكاليف التى يخاطر بها الشعراء من أصحاب البديع ، لا لشئ إلا ليظهروا براعتهم اللفظية ومهارتهم فى النظم ، ولهذا كله كثيرا ما يكلف المتنبى قارئ شعره وسامعه شططا .

وما أرى إلا أنك تضيق مثلى بهذا التكلف الذى لا يطاق ، ومن تلك الصنعة التى تظهر فى الألفاظ ، ومن تحكم القافية فى أبيات القصيدة تحكما لا يطاق .

---

(١) الديوان : ٢ / ١٧٧ .
(٢) الديوان : ٢ / ١٨٣ .
(٣) الديوان : ٢ / ١٨٤ .

الفصل السابع
أبرز الأغراض الشعرية التي يظهر فيها الإغراب

لقد أشرنا فى الفصول السابقة إلى نوعية الإغراب فى شعر المتنبى ، ولكى تكون الصورة واضحة أمامنا فإننا سنعرض لأهم الأغراض الشعرية من مدح وهجاء وفخر ووصف وغير ذلك من الأغراض التى نلمس فيها ظاهرة الإغراب عند المتنبى ، إذ أن الإغراب عند شاعرنا لم يقتصر على غرض شعرى واحد ، ولكنه يظهر ويشيع فى كافة أغراض الشعر الأخرى .

وهناك أمر لا محيد من الإشارة إليه وهو أن الإغراب فى شعر المتنبى يختلف من غرض إلى آخر ، ولعل هذا هو السبب الذى يجعلنا نتحدث عن كل غرض من تلك الأغراض حديثا مفصلا :

أولا : المدح :

المدح أكثر الأغراض الشعرية وأشهرها وأشدها إغرابا ومبالغة فى شعر المتنبى، ففى العصر الذى عاشه المتنبى ران ضعف النفوس على أغلبية الشعراء فصاروا يتكسبون بشعرهم ويمدحون من يستحق ومن لا يستحق ، وبلغ التكسب بالشعر ذروته ، ولم نلبث أن رأينا صورا للمدح الذى وصلت المبالغة فيه إلى نهايتها ، بل إننا يمكننا أن نقول إن للمتنبى مبالغات فى مدائحه تجاوزت حدود المعقول والمشروع .

ومن إغرابه فى المديح ما قاله يمدح به أبا أحمد عبيد الله بن يحيى البحترى المنبجى ، يقول (١) :

بمن أضرب الأمثال أم من أقيسه .·. إليك وأهل الدهر دونك والدهر

ومن ذلك قوله فى سيف الدولة (٢) :

وأصبح ذكره فى كل أرض .·. تُدار على الغناء به العُقار
تخر له القبائل ساجدات .·. وتحمده الأسنة والشفار

(١) الديوان : ٢ / ١٢٧ .
(٢) الديوان : ٢ / ١١٠ .

كـأن شعـاع عـين الشمـس منـه .·. ففـى أبصارنـا عنـه انكسـار

وقوله من قصيدة يمدح بها محمدا بن زريق الطرسوسى (١) :

لـو كـان ذو القرنيـن أعمـل رأيـه .·. لمـا أتـى الظلمـات صـرن شموسـا
أو كـان صـادف رأس عـازر سيفُـه .·. فـى يـوم معركـة لأعيـا عيسـى
أو كـان لُـجُّ البحـر مثـل يمينـه .·. مـا انشق حتى جـاز فيـه موسـى
أو كـان للنيـران ضـوء جبينـه .·. عبـدت فصـار العالمـون مجوسـا
لمـا سمعـت بـه سمعـت بـواحـد .·. ورأيتـه فرأيـت منـه خميسـا
ولحظـت أنملـه فسلـن مواهبـا .·. ولمسـت منصلـه فسـال نفوسـا
يـا مـن نلـوذ مـن الزمـان بظلـه .·. حقـا ونطـرد باسمـه إبليسـا

وقوله يمدح سيف الدولة (٢) :

تجـاوزت مقـدار الشجاعـة والنهـى .·. إلـى قـول قـوم أنت بالغيـب عـالـم

.. تلك هى أمثلة من إغراب المتنبى فى المدح ، وهو إغراب ممقوت ، لم يقف أمام شاعرنا فى سبيله أى وازع من خلق أودين ، والحق أننا يطول بنا المقام لو أردنا أن نستقصى كل ما جاء فى مديح المتنبى من إغراب فمثل هذا يحتاج إلى كتاب مستقل .

ولعل الذى جعل المدح فى شعر المتنبى من أكثر الأغراض الشعرية وأشدها إغرابا أن المتنبى من بين الشعراء لا يفرد ممدوحيه وحدهم بما خلعه عليهم من ثناء ومدح ، ولكنه يدعى لنفسه مشاركتهم فى كل ما يخلعه عليهم ..

---

(١) الديوان : ٢ / ١٩٨ - ٢٠٠ .
(٢) الديوان : ٣ / ٣٨٧ .

يضاف إلى ذلك أن المتنبى كان يخاطب ممدوحيه من الملوك والأمراء بمثل خطاب الصديق و المحبوب ، وهذا مذهب اختاره لنفسه وتفرد به رفعا لشخصيته عن كل الشعراء .

والحقيقة أن هذه اللهجة فى الإغراب تدفعنا إلى التساؤل عن مديح المتنبى ومدى صدقه فيه .

وللإجابة عن هذا السؤال نقول إن المتنبى كغيره من الشعراء المداحين الذين أخذوا يتكسبون بشعرهم ويستجدون به الممدوحين ، ولهذا فلن تقف عاطفته حائلا دون الحصول على المال من أى ممدوح كان . وربما كان اعتداده بفنه وإخلاصه له إخلاصا صادقا ، من دواعى ترفعه حتى عن الملوك والأمراء ، وإدراكه لتفاهة العطاء الذى يعطونه له .. وهذا إن دل على شئ فإنما يدل على أن المتنبى كان مقدرا لفنه ، مدركا لقيمته وما له من أثر فى تخليد الذكر ونشر المآثر وبعد الصيت .

يعلق الدكتور سامى الدهان على تجاوز المتنبى حدود المعقول فى مدحه فيقول : " ولو جردت مدائحه من عنواناتها لضللنا السبيل إلى معرفة اسم الممدوح وطبقته من الأمراء والملوك والقواد ، لأنه كان يعتمد فى أقواله على المبالغة والتهويل، فيكبر الصغير ويصغر العظيم ، وهذا دليل على أنه كان يصدر فى ذلك عن لسانه لا عن جنانه ، فلم يكن يقوم على عاطفة وإنما على عقل ينصرف وفاق الغاية والهدف والطموح " (١) .

ومن مبالغاته فى الاعتزاز بشعره قوله (٢) :

أنا الذى نظر الأعمى إلى أدبى ... وأسمعت كلماتى من به صمم

---

(١) المديح (سلسلة فنون الأدب العربى) دار المعارف ص ٥٦ .
(٢) الديوان : ٣ / ٣٦٧ ، ٣٦٩ .

أنـام مـلء جفـونـى عن شواردهـا ∴ ويسهـر الخلـق جراهـا ويختصـم
فالخيـل والليـل والبيـداء تعرفنـى ∴ والضرب و الطعن والقرطاس والقلـم

ومن أغرب ما قال فى المدح عن سيف الدولة (١) :

إذا كـان بعض النـاس سيفـا لدولـة ∴ ففـى النـاس بوقـات لهـا وطبـول

وقوله عنه أيضا (٢) :

لـه عسكرا خيـل وطـير إذا رمـى ∴ بهـا عسكـرا لـم يبـق إلا جماجمـه
أجلتهـا مـن كـل طـاغ ثيابـه ∴ ومـوطنهـا مـن كـل بـاغ ملاغمـه
فقـد مـل ضـوء الصبـح ممـا تغيره ∴ ومـل سـواد الليـل ممـا تزاحمـه
ومـل القنـا ممـا تـدق صـدوره ∴ ومـل حديـد الهنـد ممـا تلاطمـه
سحـاب مـن العقبان يزحـف تحتـها ∴ سحاب إذا استسقت سقتهـا صوارمـه

وقوله يمدحه (٣) :

وإنـا إذا مـا الموت صرح فـى الوغـى ∴ لبسنا إلى حاجاتنا الضرب و الطعنا
قصدنـا لـه قصـد الحبيـب لقـاؤه ∴ إلينـا ، وقلنـا للسيـوف هلمنـا

ومن إغرابه فى المدح قوله (٤) :

أغـار مـن الزجاجـة وهـى تجـرى ∴ عـلى شفـة الأمـير أبـى الحسيـن

وقوله لكافور (٥) :

---

(١) الديوان ٣ / ١٠٨ .
(٢) الديوان : ٣ / ٣٣٦ - ٣٣٨ .
(٣) الديوان : ٤ / ١٦٦ .
(٤) الديوان : ٤ / ١٩٣ .
(٥) الديوان : ١ / ١٨٦ .

ويغنيك عما ينسب الناس أنه ∴ إليك تناهى المكرمات وتنسب

وقوله فى مدح على بن إبراهيم التنوخى (١) :

يغض الطرف من مكر ودهى ∴ كأن به - وليس به - خشوعا

وقوله فى مدح شجاع بن محمد الأزدى (٢) :

لم يخلق الرحمن مثل محمد ∴ أبدا وظنى أنه لا يخلق

وقوله يمدح بدر بن عمار (٣) :

لو كان علمك بالإله مقسما ∴ فى الناس ما بعث الإلهُ رسولا
لو كان فيهم ما أنزل الـ ∴ قرآن والتوراة والإنجيلا

وما أراك فى حاجة إلى أن أقول لك إن المتنبى يتلون فى شعره ويتقلب ،كما تتلون الحياة ، وكما تتقلب صروف الأيام ، فبدر هذا الذى أقبل عليه المتنبى ، وقد امتلأ قلبه بهجة وسرورا بالإقبال عليه لدرجة جعلته يبالغ فى مدحه ، ويسرف إسرافا شديدا كعهدنا به حين يبالغ - هو نفسه الذى هجاه المتنبى فى داليته التى استعطف فيها ابن كيغلغ وسأله أن يعفو عنه (٤) .

واقرأ معى هذه الأبيات التى مدح بها بدرا ، وقد أراد الطبيب أن يفصده فغلظ عليه ، والتى لا تخلو من صنعة ثقيلة ، وتكلف بغيض ، وسماجة يخفيها الفن ويسبغ عليها زينة كاذبة ، يقول (٥) :

لم تُبْقِ إلا قليلَ عافيةٍ ∴ قد وفَدتْ تجْتَديكَها العِللُ

---

(١) الديوان : ٢ / ٢٥٣ .
(٢) الديوان : ٢ / ٣٣٩ .
(٣) الديوان : ٣ / ٢٤٤ .
(٤) انظر الديوان : ١ / ٣٤٤ .
(٥) الديوان : ٣ / ٢١٨ - ٢٢٠ .

عُـذْرُ الملومين فيـك أنهمـا ∴ آسٍ جبـانٌ ومِبْضَـعٌ بَطَـلُ
مـددت فـى راحـة الطبيب يـداً ∴ فمـا درى كيـف يُقْطـعُ الأمـلُ
إن يكـن البضـع ضـرٌ باطنَهـا ∴ فـربمـا ضـر ظَهْرَهـا القُبَـلُ
يشـق فـى عـرْقِهـا الفصَـادُ ولا ∴ يَشُـقُّ فـى عـرق جودهـا العَـذَلُ
خـامَـرَهُ إذْ مـددتهـا جَـزَعٌ ∴ كأنـه مـن حَـذَاقـة عَجِـلُ
جـازَ حـدودَ اجتهـاده فأتـى ∴ غـير اجتهـادٍ لأمـه الهَبَـلُ
أبلـغ مـا يُطلب النجـاحُ بـه الـ ∴ ـطبـعُ وعنـد التعمـق الـزَّلل
إرْثِ لهـا إنهـا بمـا ملكـتْ ∴ وبالـذى قـد أسَلْـتَ تنهَمِـلُ
مثـلك يـا بـدرُ لا يكـونُ ولا ∴ تصلـح إلا لمثـلك الـدول

فقد صور المتنبى خطأ الطبيب فى كلام متكلف لم يخل من سماجة تخفيها جزالة الألفاظ ورصانتها ، وليس يعدل ما فى هذا الكلام من تكلف وصنعة إلا هذه الصنعة وذلك التكلف فى الغزل المصنوع الذى قدم به المتنبى القصيدة ، والذى أظهر فيه من جهد العقل والفن أكثر مما أظهر فيها من حرارة العاطفة وقوة الشعور .

ثانيا : الوصف :

والوصف فى شعر المتنبى يشمل معظم أغراض الشعر الأخرى عنده من مدح وهجاء وفخر ورثاء وما إلى ذلك ... كل ما فى الأمر أن للشاعر إغرابا فى وصفه لا يقل درجة عنه فى الأغراض الشعرية الأخرى .

ومن ذلك ما قاله يصف الأسد الذى بارزه ممدوحه بدر بن عمار ، فأعجله وضربه بسوطه .

يقول (١) :

---

(١) الديوان : ٣ / ٢٣٨ ، ٢٣٩ .

وردٌ إذا ورد البُحـيرة شـاربـا ∴ ورد الفـرات زئيـرُه والنيـلا
وتظنُّـه ممـا يـزمجـرُ نفسُـهُ ∴ عنهـا لشـدة غيظـه مشغـولا

ومن ذلك قوله يصف شجاعة سيف الدولة وثباته فى المواقف (١) :

وقفت وما فى الموت شك لواقـف ∴ كأنـك فـى جفـن الـردى وهـو نائـم
تمـر بـك الأبطـال كلمـى هزيمـة ∴ ووجهـك وضـاح وثـغـرك باسـم

ويصف بحيرة طبرية وصفا يصور غرامه بالقوة وعشقه للعظمة فيقول (٢) :

والموج مثـل الفحـول مزبـدة ∴ تهـدر فيهـا ومـا بهـا قطـم
والطـير فـوق الحبـاب تحسبهـا ∴ فُرسـان بلـق تخونهـا اللجـم
كـأنهـا والريـاح تضربهـا ∴ جيشا وغـى : هـازم ومنهـزم

والحقيقة أن المتنبى لم يحدث بوصفه هذا شيئا ذا بال ، وإنما الحال أنه مضى فى هذا الوصف على عادته المألوفة فى كل فنونه الشعرية . وكل ما أحدثه أنه عكس لنا فتوته ، وحسن رأيه فى نفسه ، وعظم إيمانه بالقوة ، لأنه قد علم من حقيقتها ما يدفعه إليها دفعا ، وهذا فيما أرى ليس بالشئ الخطير ولا بالأمر الذى يحفل به إلا فى دراسة نفسية شاعرنا فحسب .

ويصف ناقته فيغرب لفظا ومعنى ، يقول (٣) :

شيـم الليـالى أن تشكـك ناقـتى ∴ صـدرى بهـا أفضـى أم البيـداء
فتبيـت تسئـد مسئـدا فى نيهـا ∴ إسـآدهـا فـى المهـمـه الإنضـاء

والحقيقة أن المتنبى قال قصائد وفيرة فى الوصف بصفة عامة ، وفى وصف

---

(١) الديوان : ٣ / ٣٨٦ ، ٣٨٧ .
(٢) الديوان : ٤ / ٦٦ ، ٦٧ .
(٣) الديوان : ١ / ١٦ ، ١٧ .

حروب سيف الدولة بصفة خاصة ، وأنا لا أستطيع أن أقف عند هذا الشعر ، فاقرأه إن أردت ، فأنت لا محالة واجد فيه من الجمال والروعة والمبالغات ما يرضيك .

وحسبى أن أقف من هذا كله عند قصيدته اللامية (١) التى وصف فيها جهاد الأمير للروم ، وهى عندى آية من آيات المتنبى فى سيف الدولة ، لأنها ضمت خصالا لأراها اجتمعت فى غيرها من القصائد التى وصفت حروب الأمير ، ففى هذه القصيدة روح عذب غريب ليس من اليسير وصفه ولا تصويره ، ولكننا نحسه إحساسا ، وكل قارئ للقصيدة يحس فى نفسه خفة وطربا قل أن يجدهما حين يقرأ أى قصيدة أخرى من قصائد المتنبى .

فهو يبدأ القصيدة بأبيات ثلاثة حزينة يقول فيها (٢) :

ليالىَّ بعد الظاعنين شُكُولُ .·. طوالٌ وليلُ العاشقين طويلُ

يُبِنَّ لى البدرَ الذى لا أريده .·. ويُخفين بدرا ما إليه سبيلُ

وما عشت من بعد الأحبة سلوة .·. ولكننى للنائبات حَمولُ

وليس من شك فى أن كل قارئ لهذه القصيدة لا يجد مفرا من أن يسأل نفسه : لماذا بدأ المتنبى هذه القصيدة بهذا الغناء الحزين ،وما هى تلك الليالى المتشابهة فى الطول، ثم ما هو هذا البدر الخفى العزيز ؟

ونحن نعرف أن المتنبى شاعر يتغنى ، فيجيد الغناء ويبرع فيه ، لأنه يتغنى بما حققه وبما لم يحققه ، وبما يعلمه أو لم يحط به علما ، وهو فضلا عن ذلك كله شاعر يريد أن يتأنق فى فنه ، وأن يبهر سامعيه ، ويهيئهم لاستماع ما سيحكى عليهم من أنباء الحرب ، وما سيعرض عليهم من أوصافهم .

وقد يكون هذا حقيقة ، فما أكثر ما يفعل شعراء العربية ذلك ، وما أكثر ما

---

(١) انظر الديوان : ٣ / ٩٥ - ١١١ .
(٢) الديوان : ٣ / ٩٥ .

يكون الشاعر منهم ممتلئا شعورا بموضوعه، وهو فى الوقت نفسه يشعر بأن الناس من حوله متهيئون لهذا الموضوع ممتلئون به، ولكنه مع ذلك كله لا يتعجل إليه ولا يبلغه حتى يتغنى همومه التى تاقت إليها نفسه منذ أحس الحياة وقدر على النشاط .

ولو أننا سألنا المتنبى نفسه عن هذا لربما أضاف شيئا آخر غير ذلك الذى أرجعناه إلى التأنق الفنى الذى يعمد إليه الشعراء ، فهو شاعر فى نفسه حزن دفين وهو فى كل أحواله يصدر عن نفسه التى لم تدرك من آمالها شيئا ، أو لم تكد تدرك منها شيئا ، ثم إنه يصدر فى أحيان أخرى عن حال الأمة الإسلامية التى تجاهد فتحسن الجهاد ، وتبلى فتحسن البلاء.

وامض فى قراءة الأبيات التى تأتى بعد هذا ، فسترى أن الشاعر قد أحس أن أمله قد فاته ، وأن غايته قد بعدت منه ، وأن الأسباب قد تقطعت به دون غايته ، ولذلك فهو ماض فى تغنى يأسه الممض ، وحزنه اللاذع ، وهو لا يكف عن شكاته المستمرة الملحة ، مما يكشف عن حزنه العميق .

يقول (١) :

أمـا فى النجوم السائرات وغيرهـا ∴ لعَيْنـى على ضـوء الصبـاح دلـيل

ألـم ير هـذا الليـلُ عينيـك رؤيتـى ∴ فتظهـرَ فيـه رقـةٌ ونحـولُ

لقيتُ بـدرب القُـلَّة الفجـرَ لَقْيـةً ∴ شَفَـتْ كمـدى والليـل فيـه قتيـل

ويومـا كـأن الحسـن فيـه علامـةٌ ∴ بعثـت بهـا والشمـس منـك رسـول

وبعد أن يستعرض حديثه عن الليل والنجوم ، وعن الصبح والحبيب بصورة تعكس حزنه ويأسه ، نراه يقطع ذلك كله ويخلص إلى المدح والوصف ، فيقول عن سيف الدولة (٢) :

---

(١) الديوان : ٣ / ٩٧ ، ٩٨ .
(٢) الديوان : ٣ / ٩٩ .

رمى الدَّرْبَ بالجُرْد الجياد إلى العدا ∴ وما علموا أن السهام خيولُ
شوائِل تَشْوالَ العقارب بالقنا ∴ لها مَرَحٌ من تحته وصهيل

وانظر كيف صور المتنبى ما أذاقه سيف الدولة لأعدائه من بأس ، وما صبه عليهم من بلاء (١) :

وعادت فظنوها بمَوْزارَ قُفَّلا ∴ وليس لها إلا الدخول قُفُول
فخاضت نجيعَ الجمع خوضا كأنه ∴ بكل نجيع لم تخضه كفيل
تسايرُها النيرانُ فى كل مسلكٍ ∴ به القوم صرعى والديار طُلُول

ثم انظر ذلك التصوير الذى صور فيه اقتحام جيش سيف الدولة لنهر الفرات على ظهور الخيل وهو غانم مظفر (٢) :

ورُعْنَ بنا قلب الفرات كأنما ∴ تخر عليه بالرجال سيول
يطارد فيه موجَهُ كلُّ سابح ∴ سواء عليه غَمْرةٌ ومسيل
تراهُ كأن الماء مرَّ بجسمه ∴ وأقبل رأسٌ وحده وتليل

ومن هنا فنحن نرى فى وصف المتنبى لحروب سيف الدولة فتوة ، ونرى هذه الفتوة تشيع فى وصف المتنبى حية قوية مضطرمة ، شديدة الاضطراب . ونحن نستطيع أن نقول إن المتنبى شاعر الأمير ، وترجمان جنده ، والأمير مترقب للمدح ، والجند مترقبون للفخر و الحماسة ، والشاعر من جهته قادر على أن يرضى الأمير والجند كما أرضى نفسه .

لننظر إليه يصف نهوض الأمير وهو فى طليعة خيله لملاحقة الروم ، وقطع الطريق عليهم ، حتى تم له النصر ، وانهزم الروم وفر قائدهم (٣) :

فلما رأوهُ وحده قبل جيشه ∴ دَرَوْا أن كل العالمين فُضُولُ

---

(١) الديوان : ٣ / ١٠١ ، ١٠٢ .
(٢) الديوان : ٣ / ١٠٢ ، ١٠٣ .
(٣) الديوان : ٣ / ١٠٤ - ١٠٦ .

وأن رمـاح الخـطّ عنـه قصيرة .·. وأن حـديـد الهنـد عنـه كليـل

فأوردهـم صـدر الحصان وسيفـه .·. فـتى بأسُـهُ مثـلُ العطـاء جزيـل

جـوادٌ عـلى العـلاّت بالمـال كلـه .·. و لكنـه بالـدارعيـن بخيـل

فـودّع قتـلاهـم وشيّـع فلّهـم .·. بضـرب حُـزون البيـض فيـه سهـول

عـلى قلـب قسطنطيـن منـه تَعَجُّبٌ .·. وإن كـان فـى ساقيـه منـه كبـول

ثالثا : الفخـر :

ويعتبر المتنبى من أكثر الشعراء الذين يمزجون الفخر بكل الأغراض الشعرية الأخرى من مدح ورثاء وهجاء ووصف ، لأن الفخر يعد على رأس الموضوعات التى تعبر عن شخصية المتنبى ، فهو شاعر مغرم بأمجاد كثيرة ، وكان يجرى وراء أمجاد هى أشبه بالأحلام .

والإغراب فى شعر الفخر عند المتنبى أكثر من أن يحصى ، فهو يخاطب سيف الدولة ويقول عن شعره وسيرورته بين الناس (١) :

ومـا الدهـر إلا مـن رواة قلائـدى .·. إذا قلت شعرا أصبح الدهر منشدا

أجـزنـى إذا أنشدت شعرا فإنمـا .·. بشعـرى أتـاك المـادحـون مـرددا

ودع كـل صـوت غـير صوتى فإننـى .·. أنـا الصـائح المحكى والآخر الصـدى

ويقول عن نفسه (٢) :

لا بقومـى شـرفـت بـل شرفـوا بـى .·. وبنفسـى فخـرت لا بجـدودى

ويقول فى قصيدة يعاتب فيها سيف الدولة (٣) :

---

(١) الديوان : ١ / ٢٩٠ ، ٢٩١ .
(٢) الديوان : ١ / ٣٢٢ .
(٣) الديوان : ٣ / ٣٦٩ .

فالخيل والليل والبيداء تعرفني ∴ والضرب والطعن والقرطاس والقلم

ويخاطب جدته فيقول [١] :

ولو لم تكوني بنت أكرم والد ∴ لكان أباك الضخم كونك لي أما

ويقول مرتجلا [٢] :

أيَّ محل ارتقي ؟ ∴ أيَّ عظيم أتقي

وكل ما خلق الله وما لم يخلق

محتقر في همتي ∴ كشعرة في مفرقي

ويصور ما يعترضه من صعاب فيقول [٣] :

أطاعن خيلا من فوارسها الدهرُ ∴ وحيدا وما قولي كذا ومعي الصبر!

وأشجع مني كل يوم سلامتي ∴ وما ثبتت إلا وفي نفسها أمر

تمرست بالآفات حتى تركتها ∴ تقول : أمات الموتُ أم ذعر الذعر !

وأقدمت إقدام الأتي كأن لي ∴ سوى مهجتي أو كان لي عندها وتر

دع النفس تأخذ وسعها قبل بينها ∴ فمفترق جاران دارهما العمر

ولا تحسبن المجد زقا وقينة ∴ فما المجد إلا السيف والفتكة البكر

وتضريب أعناق الملوك وأن ترى ∴ لك الهبوات السود والعسكر المجر

وتركك في الدنيا دويا كأنما ∴ تداول سمع المرء أنمله العشر

وفي قصيدته الهمزية التي مدح بها أبا علي هارون بن عبد العزيز الأوارجي الكاتب ، نجده ينتقل من المقدمة الغزلية إلى الفخر بنفسه صورة جمعت بين الإغراب والالتواء في المعنى ، يقول [٤] :

---

(١) الديوان : ٤ / ١٠٧ .
(٢) الديوان : ٢ / ٣٤١ .
(٣) الديوان : ٢ / ١٤٨ ، ١٤٩ .
(٤) الديوان ١ / ١٥ - ١٧ .

أنا صخرة الوادى إذا ما زُوحمت ∴ وإذا نطقْتُ فإننى الجوزاءُ
وإذا خَفيتُ على الغبى فعاذرٌ ∴ ألا ترانى مقلة عمياء
شِيمُ الليالى أن تُشكك ناقتى ∴ صدرى بها أفضى أم البيداء
فتبيت تُسئد مُسْئدا فى نيِّها ∴ إسْآدَها فى المَهْمَه الإنْضاء
أنْساعُها ممغوطة وخفافها ∴ منكوحة وطريقها عذراءُ
يتلَوَّنُ الخِرِّيتُ من خوف التَّوى ∴ فيها كما تتلون الحرباء

على أن المتنبى قد غلا فى الثقة بنفسه ، ومضى فى استطالته على الشعراء ، وزاد فى استعلائه على الخصوم ، وأسرف فى ازدرائهم ، لا يصطنع فى ذلك رفقا ولا أناة ولا تواضعا .

يقول معجبا مسرفا فى ازدراء خصومه وفى تحديهم (١) :

إن هذا الشعر فى الشعر مَلَكْ ∴ سار فَهْوَ الشمس والدنيا فَلَكْ
عَدَلَ الرحمن فيه بيننا ∴ فقضى باللفظ لى والحمد لك
فإذا مرَّ بأذنى حاسد ∴ صار ممن كان حيا فَهَلَكْ

وما أظن أحدا يقدر أن المتنبى كان يعبث بهذا الفخر ، وإنما لهجة الشاعر هنا صادقة تدل على إعجابه بنفسه ، وعلى تحرق نفسه شوقا إلى الولاية وإن لم يصرح بذلك وإنما اكتفى بالتعريض .

وقد رأينا أن فخر المتنبى بنفسه قد جاوز فى الغالب الأعم حد الاعتدال ،وقد يجود أحيانا ، ويتوسط حينا آخر ، وهو مع ذلك جزل اللفظ ، رصين الأسلوب ، أقرب إلى السخط منه إلى الرضا ، بل إننا نرى أن النصيب الأوفى من قصائده فى المدح شائع بينه وبين ممدوحيه ، يصرح مرة ويعرض أخرى ، وهو مع ذلك يمدح

---

(١) الديوان : ٢ / ٣٧٤ ، ٣٧٥ .

فيحسن المدح . ويؤدى هذا كله أداء حسنا . وعلى هذا فمن الخطأ الظن بأن المتنبى قد خص ممدوحا بعينه بقصيدة معينة . وإنما الصواب القول بأنه جعلها قسمة بين ممدوحه حين يرغب فى تحقيق آماله عنده ، أو حين يستنجزه ما قدم له من وعد ، وبين نفسه حين كان يتغنى آلامه وأحزانه

والواقع أننا لسنا فى حاجة إلى أن ندرس هذه القصائد كلها . فبعضها يغنى عن سائرها ، لأن موضوعاتها ومعانيها متشابهة ، وإن اختلفت فيها ألوان التصوير والتعبير . ولننظر قبل كل شئ إلى هذه الدالية (١) التى مدح بها المتنبى كافورا آخر سنة ست وأربعين وثلاثمائة . فهى بطبيعة الحال مشتملة على هذين الموضوعين اللذين قدمنا ذكرهما ، فإلى جانب ما فيها من مدح نرى الشاعر يفتخر بنفسه ، ويتغنى آلامه وأحزانه لما أصابه من خيبة الأمل وما أدركه من الإخفاق .

ولننظر إلى هذه الأبيات التى تصور فخر الشاعر بنفسه ، كما تصور أبلغ تصوير وأجمله تلك العلة التى حملت الشاعر فى حياته مالا يطاق من الجهد والعناء ، هذه العلة هى قلبه الذى لا يقنع بشئ ، بل يظل طامحا ، طامعا ، راغبا (٢) :

وفى الناس من يرضى بميسورِ عيشه ... ومركوبُه رجلاهُ والثوب جلدُهُ
ولكنّ قلبا بين جنبىّ مالَهُ ... مدىً ينتهى بى فى مرادٍ أحُدُّهُ
يرى جسمه يُكْسَى شُفُوفا تَرُبُّهُ ... فيختارُ أن يُكْسَى دُرُوعا تَهُدُّهُ
يُكَلِّفُنى التهجيرُ فى كل مَهْمَهٍ ... عَلِيقى مَرَاعِيه وزادِىَ رُبْدُهُ
وأمضى سلاحٍ قلّد المرء نفسَهُ ... رجَاءُ أبى المسك الكريم وقصده

ويمضى المتنبى مع خصومه على هذا النحو فى أحداث وخطوب تلمحها من شعره . ولا نستطيع أن نكتب لك كل ما قال فى ذلك ، ولكننا نكتفى بأن نروى لك نماذج من هذا الشعر ، ومن ذلك لاميته التى يقول فيها (٣) :

---

(١) انظر الديوان ٢ / ١٩ - ٣
(٢) الديوان ٢ / ٢٣
(٣) الديوان ٣ / ١٨ - ١٩

أنا السابق الهادى إلى ما أقولُهُ ... إذ القولُ قبل القائلين مقُولُ
وما لكلام الناس فيما يريبُنى ... أصولٌ ولا لقائليه أصولُ
أعادى على ما يُوجِبُ الحبَّ للفتى ... وأهدأ والأفكار فىَّ تجولُ
سوى وَجَعِ الحُسَّاد داوِ فإنه ... إذا حل فى قلب فليس يحولُ
ولا تطْمَعَنْ مِنَ حاسدٍ فى مودةٍ ... وإن كنتَ تُبديها له وتُنيلُ

ويقول من قصيدة لامية أخرى [1] :

أفى كل يوم تحت ضِبْنى شُوَيْعرٌ ... ضعيفٌ يُقاوِينى قصيرٌ يطاولُ
لسانى بِنُطْقى صامتٌ عنه عادلٌ ... وقلبى بصمتى ضاحكٌ منه هازلُ
وأتعبُ مَن ناداك من لا تُجيبه ... وأغيظُ من عاداك من لا تشاكلُ
وما التِّيه طِبِّى فيهم غير أننى ... بغيض إلى الجاهل المتعاقلُ
وأكثر تيهى أننى بك واثق ... وأكثر مالى أننى لك آملُ
لعل لسيف الدولة القَرْمِ هَبَّةً ... يعيش بها حقٌ ويَهلك باطلُ
رميتُ عِداه بالقوافى وفضله ... وهنَّ الغوازى السالمات القواتلُ

ونحن نرى من هذه الأبيات السابقة أن الشاعر حريص كل الحرص على الفخر بنفسه ، ومن المحقق أنه قد أظهر فى هذه الأبيات جهدا وتأنقا نحسهما ونشفق عليه منهما . والإنصاف يقتضينا أن نقول إن المتنبى قد أتقن هذا الفن فى كل طور من أطوار حياته ، وقد ارتقى الشاعر فى هذا الفن إلى أرفع ما أتيح له أن يبلغ من الإجادة الفنية الخالصة ، وامتزجت فيه نفسه امتزاجا كاد يصرفه عن ممدوحيه ، ولا أستبعد أن يكون هذا كله هو السبب الذى ساق المتنبى إلى إظهار التكلف والصنعة فى هذا الشعر فى الألفاظ والمعانى جميعا .

---

(١) الديوان : ٣ / ١١٧ ، ١١٨ .

رابعا : الهجـاء :

والحقيقة أن المتنبى كما أغرب فى المدح ، والفخر ، والوصف ، نجده يغرب فى الهجاء فى عصر وصل فيه الهجاء إلى غايته من الإقذاع والإسفاف .

وليس من شك فى أن المتنبى قد انتهى فى كل طور من أطوار حياته إلى اليأس من فلان ، وإلى خيبة الأمل فى فلان ، وإلى الهرب والفرار من فلان ، وفى ذلك الوقت جعل المتنبى يتهيأ لقول الشعر فى هجاء كل أولئك ، وكان الناس يكبرون هذا الهجاء ويكثرون الإعجاب به والكلام فيه ، وقد اختلف النقاد فى هجاء المتنبى اختلافا كثيرا : فمنهم من أسرف فى مقته للمتنبى ، وكره من أجل هذاالهجاء شعره كله ، ومنهم من قدم العذر له ، وربما كان من الناس من يرى شيئا من الصدق فيما عاب المتنبى به مهجويه ، والمعروف أن المتنبى إذا أغرب فى هجائه فإن شعره يكون شديد الوقع فى النفس ، وبالغ التأثير فى المهجو .

ومن ذلك قوله يهجو ابن كيغلغ (١) :

وجفونـه مـــا تستقـر كأنهـــا ∴ مطروفـة أوفُـتَّ فيهـــا حِصْـرِمُ
وإذا أشـــار محـدثـــا فكأنـــه ∴ قـــرد يقهقــه أو عجــوز تلطـم

ويقول يهجو ضبة بن يزيد العتبى (٢) :

مـــا أنصـف القــوم ضبــه ∴ و أمـــه الـطـرطـبـــه
رمـــوا بـــرأس أبيـــه ∴ وبـاكـــوا الأم غـلبـــه

ومن مبالغاته فى الهجاء قوله فى كافور الإخشيدى (٣) :

وتُعجبنـى رجـلاكَ فـى النَّعـل إننـى ∴ رأيتُـك ذا نعـل إذا كُنـتَ حافيـــا
وإنـــك لا تـدرى ألونُـــك أســودٌ ∴ من الجهل أم قد صار أبيض صافيـا

---

(١) الديوان : ٤ / ١٢٨
(٢) الديوان : ١ / ٢٠٤ .
(٣) الديوان : ٤ / ٢٩٥ .

والحقيقة أن للمتنبى فى هجاء كافور قصائد ومقطوعات كثيرة ، ومع أنه قد بلغ فى كثير منها الإجادة ، لكنه لم يستطع أن يبعد فيها عن السخف . وانظر إلى هذه الأبيات الميمية التى هجا فيها الإخشيدى أيضا والتى أظهر فيها من التكلف ماأظهر، حيث بدأها هازلا ضاحكا ، ثم أخذ يجد شيئا فشيئا ، ويأتى بلهجة قوية يملؤها الحزن واللهف والإشفاق .

يقول (١) :

مـن أيَّـةِ الطُّرْقِ يأتـى نحـوك الكَرَمُ ∴ أيـن المحاجـم يـا كافـورُ والجَلَـمُ
جـازَ الأُلَـى ملكـت كفَّاك قـدرهـم ∴ فعرَّفـوا بـكَ أن الكلـب فـوقهُـمُ
لا شـئ أقبـحُ مـن فحـلٍ لـه ذكـرٌ ∴ تقـودهُ أمَـةٌ ليسـت لهـا رحِـمُ
سـادات كـل أنـاس مـن نفوسهـم ∴ وسـادةُ المسلميـن الأعْبُـدُ القـزم
أغايـة الديـن أن تُحْفُـوا شواربكم ∴ يـا أمةً ضحكـت مـن جهلها الأمم
ألا فتـىً يـوردُ الهنـدىَّ هـامَتَـهُ ∴ كيمـا تـزولَ شكـوكُ النـاس والتهَـم
فـإنـه حجـة يـؤذى القلوب بهـا ∴ مَـنْ دينـه الدهـر والتعطيـل والقـدم
مـا أقـدر اللـه أن يُخْـزى خليقَتَـهُ ∴ ولا يُصَـدِّقَ قومـاً فـى الـذى زعمـوا

واقرأ أبياتا أخرى له فيها هجاء لكافور الإخشيدى وأصحابه ، حيث هجاهم بالغدر والكذب ، وإخلاف الوعد ، وقد مقتهم فى هذه الأبيات مقتا ، كما مقت الجود معهم ، ثم يقول بعد ذلك (٢) :

أكلمـا اغتـالَ عبـدُ السـوء سيِّـدَهُ ∴ أو خانـه فلـه فـى مصـرَ تمهيـدُ
صـار الخَصىُّ إمـام الآبقيـن بهـا ∴ فالحـر مستعبـد والعبـد معبـود
نـامت نواطيـرُ مصرٍ عـن ثعالبها ∴ فقـد بَشِمْـنَ ومـا تَفْنَـى العناقيـد

---

(١) الديوان : ٤ / ١٥٠ ، ١٥١ .
(٢) الديوان : ٢ / ٤٢ ، ٤٣ .

ويقول (١) :

ما كنت أحسبنى أحيا إلى زمن .·. يسئ بى فيه كلبٌ وهو محمودُ
ولا توهمت أن الناس قد فُقدوا .·. وأن مثل أبى البيضاء موجود
وأن ذا الأسودَ المثقوبَ مِشْفَرُهُ .·. تطيعه ذى العضاريط الرعاديد
جوعان يأكل من زادى ويُمسكنى .·. لكى يقال عظيمُ القدر مقصودُ

خامسا : الرثاء :

ولم يخل الرثاء من إغراب المتنبى ، فحين اتصل بسيف الدولة ماتت أم سيف الدولة فى السنة الأولى من اتصاله به . ووفاء بما يجب أن ينهض به الصديق للصديق من حقوق المودة والحب والإخاء وقف المتنبى ليقول فى ذلك شعرا ، فرثاها باللامية التى مطلعها (٢) :

نعد المشرفية والعوالى .·. وتقتلنا المنون بلا قتال

ومن يقرأ القصيدة يدرك أن الشاعر لم يصدر فى رثائه عن حزن ولا عن ألم ، لأن لهجته فى القصيدة ليست صادقة ، وإنما هى بمثابة أداء واجب لم يكن للشاعر بد من أدائه، بل إننا يمكننا أن نقول إن المتنبى كان يضيق بأداء هذا الواجب أحيانا ، فيأخذ يستعين على ذلك بهذا المدح الذى يتملق الأمير ويلهيه عما يكون فى الرثاء من قصور أو تقصير .

والشئ الذى تدل عليه القصيدة أن طبيعة الشاعر قد وجدت فيها ، كما يصورها ديوانه كله : صنعة وتكلف كأكثر ما رأينا وما سنرى من موضوعاته الشعرية ، وتكلف ظاهر لا فى معناه وحده ، بل فى معناه ولفظه أيضا ، وفلسفة ليس وراءها طائل ولا غناء ، والشاعر يعتمد فيها على هذا اليأس الشائع الذى ألفه

---

(١) الديوان : ٢ / ٤٣ ، ٤٤ .
(٢) الديوان : ٣ / ٨ .

الناس حين يفكرون فى قسوة الموت وشموله .

ولننظر إليه حين يصل إلى الفقيدة التى يرثيها ، لنرى كيف تضعف شاعريته فلم يصنع شيئا ، ولم يأت بجديد إلا أن يقول (١) :

أطاب النفس أنك مت موتا .·. تمنته البواقى والخوالى

ولست أطيل التعليق على ما فى هذه القصيدة من الرثاء ، فكله كلام متكلف يظهر فيه الجهد ، وتبدو فيه السماجة بين حين وحين ، وتحس وأنت تقرأه أن الشاعر قد تأثر بالذين سبقوه من الشعراء ، وتأثر منهم بأبى تمام بصفة خاصة فيما أتى به من معان فلسفية .

لننظر إليه يقول فى القصيدة نفسها (٢) :

ولو كان النساء كمن فقدنا .·. لفضلت النساء على الرجال

وما التأنيث لاسم الشمس عيب .·. ولا التذكير فخر للرجال

وما أرانى فى حاجة إلى أن أقول إن المتنبى اتخذ من رثائه لوالدة سيف الدولة وسيلة إلى مدح الأمير ، وحين تنظر فى القصيدة لا أظن إلا أنك ستوافقنى على أن الشاعر اعتمد على فنه أكثر مما اعتمد على أى شئ آخر ، وأخذ يتأنق فى هذه القصيدة تأنقا خاصا ، وذلك لأنه وقت نظمه لهذه القصيدة كان حديث عهد بالأمير ، وكان حريصا كل الحرص على أن يرضيه ، ويتمكن من نفسه ، ومن ثم يقهر حساده ومناوئيه .

ويخاطب جدة سيف الدولة لأمه فى قصيدته التى رثاها فيها فيقول متكلفا متأنقا (٣) :

---

(١) الديوان : ٣ / ١٣ .
(٢) الديوان : ٣ / ١٨ .
(٣) الديوان : ٤ / ١٠٧ .

ولـو لـم تكونـى بنـت أكـرم والــد ∴ لكـان أبـاك الضخـم كونـك لى أمـا

ويعزى سيف الدولة فى خادمه التركى فيقول (١) :

وإنـى وإن كـان الدفـين حبيبـه ∴ حبيـب إلى قلـبى حبيـب حبيبـى

ويرثيه كذلك فى ابنه فيأتى بكلام متكلف يظهر فيه من الجهد ما يظهر ، يقول (٢) :

أيفطمـه التَّـوْراب قبـل فِطامـه ∴ ويأكـله قبـل البـلوغ إلى الأكـل

ويقول (٣) :

إذا مـا تـأملتَ الزمـانَ وصَـرْفَـهُ ∴ تيقَّنـت أن المـوت ضربٌ مـن القتـل

ومـا الدهـر أهـلٌ أن تؤمَّـلَ عنـده ∴ حيـاةٌ وأن يُشْتَـاقَ فيـه إلـى النسـل

ويقول فى رثاء أخت سيف الدولة خولة (٤) :

كـأن فعـلة لـم تملـأ مـواكبهـا ∴ ديـار بكـر ولـم تخلـع ولـم تهـب

يعلمـن حـين تحيى حسـن مبسمهـا ∴ وليـس يعلـم إلا اللـه بالشنـب

---

(١) الديوان : ١ / ٤٩ .
(٢) الديوان : ٣ / ٥٠ .
(٣) الديوان : ٣ / ٥١ ، ٥٢ .
(٤) الديوان : ١ / ٨٨ ، ٨٩ .

الفصل الثامن
حكم عام على إغراب المتنبي

تمهيـد :

إن الإنصاف الذى اقتضانا أن نسجل لشاعر العربية فضلا فى كثير من شعره لهو الذى يحملنا على الجهر بأنه قد أساء إلى الرسالة الشعرية . فقد انحاز – إلا فيما ندر – عن الألوان الفنية القديمة التى كانت متبعة وثابتة فى صنع القصيدة العربية ، وقد ذهب بالتالى يبحث عن وسائل جديدة يظهر فيه مهارته فكان تصنعه وكان إغرابه، فأكثر شعره من المبالغات غير المقبولة ، وقد استولى الشذوذ على شعره ، حتى أنه ليظهر فى قصائده على هيئة صفوف متلاحقة ، ففى كل جانب منها إغراب إما فى الألفاظ ، وإما فى التركيب ، وإما فى الموسيقى ، وهو إغراب مايزال يحاول أن يظهر به تفوقا ، وأن يحدث به طرافة فى شعره ،ولكن هذه الوسائل قلما أحدثت فى الفن طرافة ، نعم إنها وسائل جديدة ، ولكنها ليس فيها ما يضفى على شعر المتنبى جمالا ، ذلك الشعر الذى يمثل ثقافته الواسعة التى امتزج فيها التشيع والتصوف والفلسفة .

فالمتنبى قد راح يتصنع الإيماءات المذهبية ، والعبارات الصوفية وما يتصل بها من ظروفها وأحوالها الخاصة ، كما حاول أن يستخدم فى شعره الصيغ الفلسفية والشارات المنطقية ، هذا إلى تصنعه الشذوذ فى النحو واللغة والموسيقى .

وإذا كنا قد عرضنا لإغراب المتنبى بما سبق فإن الحق والإنصاف يفرضان أن نعترف له بالمقدرة والبراعة ، وكنا نرجو أن يلازمه التوفيق كى يكون تفرده بالسبق خالصا والحكم له بالأولوية لا تعقيب فيه . وقد لا نتخطى الحقيقة إذا قلنا إن المتنبى مع كل ما احترفه من ضروب تصنع مختلفة ، ومع محاولة أعدائه ودأب حساده على تضخيم ذلك وإبرازه كعيوب فى شعره ، قد استطاع بمهارته الفائقة ، وبقدرته العجيبة على صوغ العبارة ، ونمو هذه القدرة على طول الزمن ، أن يستولى على حقيقة فنه وصناعته ، وأن يخفى ما تنطوى عليه هذه الصناعة من إغراب وتكلف شديدين ، وأن يحلق من ثم فى أفق الشعر العربى دون أن يتنبه جمهرة نقاد عصره إلى هذه الجوانب من التصنع .

ولسنا ننكر أن لشاعرنا هنات فى شعره بسبب هذا الإغراب ،وقد تعرض بعض الناقدين قديما وحديثا لبعض هذه الهنات ونبهوا عليها . والحقيقة أن شأن المتنبى فى ذلك شأن جميع الشعراء المكثرين ، غير أن هذه العيوب تتضاءل كثيرا أمام محاسنه وبلاغته وحكمه التى سجلها له الزمان ، ونحن نقول إن حسناته يذهبن سيئاته ، فحسبه أنه استطاع أن يؤلف صورا شعرية بديعة من خلال هذه الكثرة من الألفاظ الغريبة .

ونحن لا نتوقع مطلقا من المتنبى مهما كانت طاقته الفنية أن يسلم كل إنتاجه من النقد وينجو من المؤاخذة ، فمعالم الجمال ومقومات الحسن أكثر من أن يحصيها شاعر ، وإذا جاز لشاعر أن يلم بها كلها فمن الصعب عليه أن يفى بها فى كل ما أنتج من شعر ! .

كما أننا لا نجحد ما يصادفنا فى شعر المتنبى من توفيق عجيب ، وأى ناقد لابد وأن يهتز طربا وإعجابا بحربيات المتنبى ، وفى أشعاره كذلك أبيات كثيرة نحن نطرب لها ولما فى ألفاظها - مفردة ومركبة - من جمال بلاغى فتان تلألأت فيه السلاسة مع الجزالة ، وائتلفت فيه الرقة مع القوة .

ويمكننا أن نقول إن المتنبى صاحب كل هذا الإغراب وتلك التعقيدات هو المتنبى صاحب الروائع الكثيرة التى تنطق بالحكمة وفصل الخطاب ، وفى ديوانه أبيات محكمة متناثرة لو بنيت على أمثالها قصائد كاملة لبلغت الغاية ، هذا هو المتنبى بحسناته وسيئاته ، وقد أجمع النقاد على أنه فى المقام الأول بين جميع الشعراء وفوقهم (١) .

---

(١) تاريخ الأدب العربى ، لعمر فروخ : ٢ / ٤٦٥ .

عوامل تفوق المتنبى فى الشعر :

وفى رأيى أن الذى صرف النقاد عن هذا الإغراب ، وعن كل تلك التعقيدات التى جاء بها المتنبى فى شعره ، وجعلهم يتركونها إلى غيرهامن محاسنه ، هو ما أشاعه فى شعره من حيوية وطلاوة مردها فيما نرى إلى أمور كثيرة ترتبط بعوامل تفوقه فى الشعر ومنها :

أولا : نشأته العربية الأعرابية :

فالمتنبى كان بدوى الطبع ، كثير الإقامة فى البادية ، كثير الاضطراب فى الصحراء ، وقد ذهب إلى البادية وأقام بين الأعراب (١) ، وخبر حياتهم خبرة واسعة ، وانغمس فيها من قمة رأسه إلى أخمص قدميه ، فعرف الصحراء وأهلها ، وطباعهم ووسائل عيشهم ،وكل ما يتصل بهم .

يقول أبو الحسن " محمد بن يحيى العلوى " : " كان أبو الطيب وهو صبى ينزل فى جوارى بالكوفة ، وكان محبا للعلم والأدب ، فصحب الأعراب فى البادية ، وجاءنا بعد سنين بدويا قُحّا " (٢) .

والذى يعنينا من هذا كله هو أن المتنبى قد استفاد من إقامته فى البادية . يقول الدكتور طه حسين : " قال الرواة : وقد خرج المتنبى من الكوفة مع أبيه إلى البادية فأقام فيها حينا ، ثم عاد منها . وقد نما جسمه وعقله ،وفصح لسانه ، وأصبح فتى يملأ العين والأذن .

ومن العسير أن نقطع بالسبب أو الأسباب التى حملت الصبى على أن يرتحل إلى البادية . فهل ارتحل لمجرد التبدى والاستفادة لجسمه ولسانه وفنه الشعرى من

---

(١) انظر أمراء الشعر العربى فى العصر العباسى ، لأنيس المقدسى ص ٣٢٨ .

(٢) الصبح المنبى للبديعى ص ٢٠ . وانظر كذلك : دائرة المعارف الإسلامية (مقالة بلا شير) المجلد الأول من ص ٣٦٣ إلى ص ٣٧٠ .

الإقامة بين هؤلاء العرب البادين الذين كان العلماء يختلفون إليهم ويقيمون بين أظهرهم ، يأخذون عنهم اللغة ويروون عنهم الشعر والأيام والأساطير ؟ أو هل ارتحل الفتى إلى البادية لشئ آخر غيرهذا يتصل بالحياة السياسية والاجتماعية التى كانت محيطة به ؟ وبعبارة أوضح : هل ارتحل الفتى إلى البادية كما كان يرتحل إليها المتعلمون التماسا للصحة ورياضة اللسان ؟ أو ارتحل إليها التماسا لهذه البيئة القرمطية التى كانت متصلة أشد الاتصال بحياة الشعب الكوفى فى ذلك الوقت ، تبعث الرعب فى قلوب فريق منه ،وتبعث الحب فى قلوب فريق آخر .

ليس من اليسير أن نقطع بشئ من هذا ،ولكن الذى نستطيع أن نقطع به ونحن مطمئنون ، هو أن رحلة المتنبى إلى البادية قد نفعته من الناحيتين جميعا ، فقد ربا جسمه ، ونما عقله وفصح لسانه ، وتعلم أصول القرامطة ، وعرف مذاهبهم النظرية والعملية معا ، وشعر المتنبى فى صباه بعد عودته من البادية إلى الكوفة يبين لنا هذا أوضح تبين وأجلاه " (١) .

وقد أخذ المتنبى عن الأعراب اللغة العربية الصافية ، والأخلاق العربية الأصيلة ولذلك نشأ أعرابى الطبع ، يعتز بنفسه وبقومه من العرب ،وقد انعكس هذا على شعره وحياته ، فمن يقرأ أشعاره يلفت نظره أن الشاعر ينتزعه من حياة القرن الرابع الهجرى المتحضرة وما فيها من تكلف إلى البادية والبساطة ، وأحضان الطبيعة ، وإن أردت الحقيقة فقل إن البداوة فى شعر أبى الطيب المتنبى ليست إلا رمزا للحياة العربية الخالصة التى يحبها ، ولا شك أن كل تلك العناصر البدوية تكسب الشعر ضربا من الجمال والحيوية .

وللمتنبى أشعار مصبوغة بالطابع البدوى ومنها (٢) :

إلى أى حين أنت فى زىّ مُحْرِم ؟ ... وحتى متى فى شِقْوة وإلى كم ؟
وإلا تمت تحت السيوف مكرما ... تمت وتقاسى الذل غير مكرم

---

(١) مع المتنبى ص ٤٢ ، ٤٣ . ط ١١ .
(٢) الديوان : ٤ / ٣٣ ، ٣٤ .

فثب واثقا بالله وثبة ماجد ∴ يرى الموت فى الهيجاجنى النحل فى الفم

ويقول يصف مسيرة فى البوادى ويمدح بعض شيوخ البادية من بنى كلاب(١):

عذيرى من عذارى من أمور ∴ سكنّ جوارحى بدل الخدور
ومبتسمات هيجاوات عصرٍ ∴ عن الأسياف ليس عن الثغور
ركبتُ مشمرا قدمى إليها ∴ وكل عذافرٍ قلق الضفور
أوانا فى بيوت البدو رحْلى ∴ وآونة على قتد البعير
أعرِّض للرماح الصم نحرى ∴ وأنصِبُ حُرَّ وجهى للهجير
وأسرى فى ظلام الليل وحدى ∴ كأنى منه فى قمر منير

ويقول (٢) :

ومدقعين بسُبْروت صَحِبْتُهُمُ ∴ عارين من حلل كاسين من درن
خُرَّاب بادية غرثى بطونهم ∴ مَكْن الضباب لهم زادٌ بلا ثمن
يستخبرون فلا أعطيهم خبرى ∴ وما يطيش لهم سهم من الظنن

ويردد الألحان البدوية التى تتسم بالشجاعة والإقدام فيقول (٣) :

فلما أنخنا ركزنا الرما ح فوق مكارمنا والعلا
وثبنا نقبل أسيافنا ∴ ونمسحها من دماء العدا
لتعلم مصر ومن بالعراق ∴ ومن بالعواصم أنى الفتى
وأنى وفيت وأنى أبيت ∴ وأنى عتوت على من عتا

---

(١) الديوان : ٢ / ١٤١ ، ١٤٢ .
(٢) الديوان : ٤ / ٢١١ ، ٢١٢ .
(٣) الديوان : ١ / ٤١ ، ٤٢ .

فهو فى الأبيات الأولى يتطلع إلى تغيير حاله والخروج عما هو فيه من الدعة والأمن والطمأنينة إلى حال أخرى من سماتها القلق والخوف والفزع والمخاطرة ، فنراه يلتمس السعادة والعزة فى حياة البأس والفتك والحروب والشدة .

ومن ينظر البيت الأخير من الأبيات الأولى وهو :

فثب واثقا بالله وثبة ماجد ... يرى الموت فى الهيجاجنى النحل فى الفم

يرى المتنبى لا يريد بهذا الوثوب إلا السخط على السلطان والخروج عليه ، وإظهار الضجر والضيق والغيظ لما يأمر به النظام المألوف ، ومحاولة شق عصا الطاعة والخروج على هذا النظام ، وعندى أن المتنبى حين يبوح بهذا التمرد إنما يعكس لنا تشوقه إلى عظائم الأمور وجلائل الأعمال وقت أن كان شديد الثقة بنفسه ، عظيم الإيمان بعزمه ، ساخطا على ماضيه ، متبرما بحاضره ، طامعا فى مستقبل مشرق فيه الرضا وتحقيق الآمال .

وليس عندى من شك فى أن أبيات المتنبى السالفة الذكر وغيرها من الأبيات بل القصائد المنتشرة فى ديوانه إنما تصور ما عاد به من البادية ، وما اكتسبه منها من جزالة بعد أن عاش فى بيئتها الخشنة ، وعاد برصانة لفظية ترفع اللفظ عن الابتذال ، وتكسبه عذوبة نحس فيها ريح الصحراء .

ومهما يكن من شئ فإنى أجد فى نفسى شعورا قويا جدا لأن أقول إن المتنبى قد نشأ نشأة غالية ، وهو مع ذلك كان شابا قوى الحس ، دقيق الشعور ، عنيف الطبع ، حاد المزاج ، وكان يزداد عنفا وحدة وبخاصة حين يحمل خصومه عليه ، ويلحون فى الغض من شأنه ، الأمر الذى جعله يقول من الشعر ما يخيف السلطان ، وأخذ يصرح فيه بما كان يخفى من أمره ورأيه .

وقد نظم أشعارا كثيرة وقعت فى نفوس الأعراب البادين موقعا مقبولا ،

ويكفى أن تقرأ داليته التى يستهلها بقوله (١) :

كـم قتيـلٍ كمـا قُتِلـتُ شهيـدِ .·. ببيـاضِ الطُّـلى وَوَرْدِ الخُـدود

فترى مدى تعرضه لأشد الأخطار حين يريد أن يصف نفسه الطامحة وآماله البعيدة وجده فى تحقيق مايصبو إليه ، وهو بعد هذا وذاك يثور على النظام ، ويعلن الثورة ،ويعرض بخصومه تعريضا شنيعا .

والذى يؤكد نشأة المتنبى الأعرابية أننا لو تمعنا فى خياله لوجدنا صوره المختزنة فى ذاكرته تتصل اتصالا وثيقا بالبادية التى كان يعشقها ، ومناظرها التى كان يهواها ولهذا صور خياله الموج بفحول الإبل فى هديرها ، والطير فوق الزبد بالفرسان على صهوات خيولهم البيض ، وحركة الأمواج فى مدها وانحسارها بجيشين يسفر قتالهما عن منتصر ومنهزم .

يقول يصف بحيرة طبرية (٢) :

لـولاكَ لـم أترك البُحيرة والـ غَـوْرُ دَفِـيءٌ وماؤهـا شَبِـمُ
والمـوج مثـل الفحـول مزبـدة .·. تهـدر فيهـا ومـا بهـا قطـم
والطـير فـوق الحبـاب تحسبهـا .·. فُرسـان بلـق تخونهـا اللجـم
كـأنهـا والريـاح تضربهـا .·. جيشا وغـى : هـازم ومنهـزم
كـأنهـا فـى نهارِهـا قَمَـرٌ .·. حـفَّ بـه مـن جِنانِهـا ظُـلَمُ
نـاعمـةُ الجسـم لا عظـامَ لهـا .·. لهـا بنـات ومـا لهـا رَحِـم
يُبْقَـرُ عنهـن بطنهـا أبـدا .·. ومـا تشكَّـى ومـا يسيـل دمُ

فخيال المتنبى يجعله يتصور الموج فى اندفاعه وهديره واصطفاقه فحول إبل تثور بها رغباتها ، كما يتصور طير الماء وقد اعتلى الزبد الأبيض فرسانا يمتطون

---

(١) الديوان : ١ / ٣١٣ .
(٢) الديوان : ٤ / ٦٦ - ٦٨ .

صهوات أفراس بيض ثم يلتفت الخيال إلى الرياح التى تهب فوق سطح البحيرة وتؤثر فى حركة الأمواج التى تمتد وتنحسر فيتصور جيشين فى معركة يحتدم بينهما القتال، فيشتبكان ثم تنجلى المعركة عن فريق منتصر ثابت فى مكانه ، وآخر منهزم يمعن فى الانسحاب .

وينظر الخيال إلى البحيرة الوضيئة الملتمعة وقد تكاثفت الخضرة من حولها فيراها قمرا فضيا ملتمعا يضئ فى وسط الظلام .

والحقيقة أننا لو استبعدنا بقية الصور التى جاءت من مرثيات الشاعر ومعارفه العامة لوجدنا خيال الشاعر تتضح فيه الطبيعة البدوية ، الأمر الذى يؤكد أن المتنبى كان بدوى الطبع ، وقد خبر حياة البدو خبرة واسعة ، وأن هذا كله قد انعكس على شعره كما انعكس على حياته ، فمعظم شعره تجد فيه إيثارا ظاهرا للغة البادية ، واختيارا ظاهرا للألفاظ الضخمة التى تملأ الفم والأذن جميعا .

ولعله لهذا تجد المتنبى يعنى فى غزله بالأعرابيات ، وكان يرى لهن فضلا على قريناتهن من أهل الحضر . يقول فى ذلك (١) :

مَـن الجـآذرُ فـى زِىّ الأعـاريبِ ∴ حُمْرُ الحُـلَى والمَطايا والجَلابيبِ (٢)
إنْ كُنْتَ تسألُ شكّا فى معارفها ∴ فمَنْ بلاكَ بتسهيدٍ وتعذيبِ
أزورُهُمْ وسوادُ الليل يشفعُ لى ∴ وأنثَنى وبياضُ الصبح يُغْرى بى
قد وافقوا الوحْشَ فى سكْنَى مراتِعها ∴ وخالَفُوها بتقْويضٍ وتَطْنيبِ (٣)
جيرانُها وهُمُ شَرُّ الجوارِ لها ∴ وصَحْبُها وهُمْ شَرُّ الأصاحيبِ
فؤادُ كلّ مُحِبّ فى بيوتِهِم ∴ ومالُ كل أخيذِ المالِ مَحْروبِ

---

(١) الديوان : ١ / ١٥٩ - ١٦٩ .
(٢) حمر الحلى : أى متحليات بالذهب الأحمر .
(٣) التقويض : حط الخيام .

ما أوْجُهُ الحَضَرِ المُسْتَحْسَنَاتُ به .·. كأوجه البدويَّاتِ الرَّعابيبِ [١]
حُسْنُ الحضارة مَجلوبٌ بتطريةٍ .·. وفي البداوة حُسْنٌ غيرُ مجلوب
أفدى ظِباءَ فلاة ما عَرَفْنَ بها .·. مَضْغَ الكلام ولا صَبْغَ الحواجيب

ثانيا : ذكاؤه المفرط :

نبغ المتنبى فى الشعر وهو صغير ، وقد حرص والده على تعليمه وتثقيفه ، وقد شجعه ذكاؤه على أن يتردد على حلقات العلم ، وأن يستمع إلى رواة الشعر والأخبار ، وكانت مدينة الكوفة آنذاك تزخر بالعلماء والأدباء ، وكان ذكيا وهبه الله حافظة قوية ساعدته على حفظ أشعار العرب وأخبارها مما كان له أكبر الأثر فى شعره.

يقول البديعى موضحا قوة حفظ المتنبى : " أخبرنى ورّاق قال : ما رأيت أحفظ من ابن عيدان [٢] قط ، قلت له : كيف ذلك ؟ فقال : كان اليوم عندى وقد أحضر رجل كتابا ثلاثين ورقة ليبيعه ، فأخذ ابن عيدان ينظر فيه طويلا . فقال له الرجل : يا هذا ، أريد بيعه ، وقد قطعتنى عن ذلك ، فإن كنت تريد حفظه فهذا يكون - إن شاء الله - بعد شهر . قال : فقال له ابن عيدان : فإن كنت حفظتُه فى هذه المدة فمالى عليك ؟ قال : أهب لك الكتاب . قال : فأخذت الدفتر من يده ، فأقبل يتلوه، حتى انتهى إلى آخره " [٣] .

وقد أدى نبوغه المبكر وقوة شعره وما يكشف عنه هذا الشعر من طموح وأطماع إلى اتهامه بالنبوة عام ٣٣٣ هـ ، وقد سبق أن قلنا إنه ربما أن بعض المعجبين بشعره قد أطلقوا عليه لقب المتنبى رمزا لعبقريته الشعرية .

---

(١) الرعابيب : جمع رعبوب وهى المرأة الممتلئة البيضاء .
(٢) المقصود بابن عيدان هو المتنبى ،إذ كان والده الحسين يعرف بعيدان السقا .
(٣) الصبح المنبى ص ٢٠ ، ٢١ .

وقد ساعده ذكاؤه على أن يمتلك قدرة عجيبة على التعبير ، لدرجة جعلته يستطيع بمهارة أن يغطى على حقيقة فنه وصناعته ، وأن يخفيها على كثير من الأدباء والنقاد الذين عاصروه أو جاءوا من بعده ، وكأنه كان يشعر بذلك ، إذ نجده يقول عن شعره (١) :

أنــا الــذى نَظَـرَ الأعمى إلى أدبـى .`. وأسْمَعَـتْ كلمـاتـى مَـنْ بـِهِ صَـمَمُ

يريد أن شعره قد سار فى آفاق البلاد ، وبلغ من الشهرة درجة جعلته يتحقق عند الأعمى والأصم ، فكأن الأعمى قد رآه لتحققه عنده ، وكأن الأصم قد سمعه . وهذا كناية عن تحليق شعره فى كل الآفاق ، وعند كل المستويات .

ثالثـا : إن شعر المتنبى كان منبعا من منابع حكمته :

وقد ذاع شعره فى الآفاق لما فيه من الحكمة مع قدرة عجيبة على التعبير ، والحكمة فى شعر المتنبى كثيرة ، وهى منثورة فى جميع قصائده .

وقد استمدالمتنبى حكمه مما اكتسبه فى حياته من تجارب (٢) ، وما تقلب فيه من أحوال وأهوال ، وكذلك من ثقافته العميقة ، ولا شك أن الحكمة لا تصدر إلا عن أصحاب الرأى السديد الذين جربوا الحياة وخبروها ، وكانوا على دراية بالأمور ومجرياتها ، ولا يقولها إلا من عركته الأيام ووسمته بميسمها ، فالحكمة تعبير دقيق عن تجربة من التجارب الإنسانية العامة ، يتضمن تفسيرا لها وتصويرا لوقعها على النفس بحيث يدفعها إلى العظة والاعتبار .

وربما اشتهر الشاعر ببيت يشتمل على حكمة جيدة فيحفظه الناس ويتناقلونه ، وتشتهر القصيدة ، أو شعر ذلك الشاعر بسبب تلك الحكمة ، ولا شك أن حكم المتنبى لها أبلغ الأثر فى نفوس الأدباء والنقاد ،وهى لعمقها ، وللبراعة فى صياغتها (٣) ،

---

(١) الديوان : ٣ / ٣٦٧ .

(٢) انظر تاريخ الأدب العربى عمر فروخ : ٢ / ٤٧٨ .

(٣) انظر أمراء الشعر العربى فى العصر العباسى لأنيس المقدسى ص ٣٦١ .

قد انتشرت وأصبحت على ألسنة الناس يرددونها عندما يعرض لهم مايناسب الاستشهاد ، وقد استعان المتنبى فى صناعة هذه الحكم بما حصله من الثقافة العامة ، وبما قرأه فى عصره من حكم وأمثال يونانية .

وإذا عرفنا أن المتنبى قد بث حكمه فى شعره ، وأصبحت هذه الحكم نبراسا يهتدى بها عدد كثير من الناس ، إذا عرفنا ذلك أمكننا أن نقول إن هذا الجانب قد رفع كثيرا من ذكر المتنبى ، كما رفع أيضا من شعره ، وأشاع فيه كثيرا من الحيوية والجمال ، وكفاه أنه من أشهر شعراء الحكمة فى الأدب العربى .

يقول العكبرى : " وقد أجمع الحذاق بمعرفة الشعر والنقاد أن لأبى الطيب نوادر لم تأت فى شعر غيره ، وهى مما تخرق العقول " (١) .

ويقول الأستاذ أنيس المقدسى : " على أن المتنبى الحقيقى إنما هو تلك الصورة التى نرسمها من قراءة حكمه وفهم علاقتها بالزمان ، تلك الحقائق الأدبية والاجتماعية الناصعة المعقودة فى أرشق الألفاظ وأسلس التعابير ... " (٢) .

وفى رأيى أن المتنبى لو لم يكن حكيما لما استطاع من غير ذلة وهوان استعطاف والى حمص من قبل الإخشيديين بعد سجنه إياه ، وتضييقه الخناق عليه حين اتهم بادعاء النبوة عام ٣٣٣هـ ،ولما أمكنه أن يلازم سيف الدولة ، ويعيش فى كنفه ، ويصبح أكبر شعرائه ، وموضع الحفاوة والاحترام منه .

ومن حكمه (٣) :

وإذا كـانت النفـوسُ كبـاراً ∴ تعِبَـتْ فـى مرادِهـا الأجسـامُ

---

(١) الديوان : ١ / ١٦١ .
(٢) أمراء الشعر العربى فى العصر العباسى ص ٣٦١ .
(٣) الديوان : ٣ / ٣٤٥ .

وقوله (١) :

مـا كُـلُّ مـا يتمنى المرءُ يدرِكُـهُ ∴ تجرى الريـاحُ بما لا تشتهى السفُـنُ

وقوله (٢) :

ومـن يـك ذا فـم مُـرٍّ مريـض ∴ يجِـدْ مُـراً بـه المـاءَ الزُّلالا

وقوله (٣) :

مـن يَهُـنْ يسْهُـلْ الهـوان عليـه ∴ مـا لجُـرْحٍ بميِّـتٍ إيْـلامُ

وقوله فى الحكم الحربية (٤) :

وكـلُّ امـرئٍ يُولى الجميـل محبـبٌ ∴ وكـل مكـان ينبت العـز طيـب

وقوله (٥) :

الحـب مـا منـع الكـلام الألسنـا ∴ وألـذُّ شكـوى عاشـق مـا أعلنـا

وقوله (٦) :

كفـى بـك داءً أن ترى الموت شافيـا ∴ وحسـب المنـايـا أن يكـنَّ أمانيـا

وقوله (٧) :

ذلَّ مـن يغبـطُ الذليـلَ بعيـش ∴ رُبَّ عيـش أخـف منـه الحِمـامُ

كـل حِلْـمٍ أتـى بغيـر اقتـدار ∴ حجـة لاجـئ إليهـا اللئـام

---

(١) الديوان : ٤ / ٢٣٦ .

(٢) الديوان : ٣ / ٢٢٨ .

(٣) الديوان : ٤ / ٩٤ .

(٤) الديوان : ١ / ١٨٣ .

(٥) الديوان : ٤ / ١٩٥ .

(٦) الديوان : ٤ / ٢٨١ .

(٧) الديوان : ٤ / ٩٣ ، ٩٤ .

مـن يهـن يسهـل الهـوان عليـه ∴ مـا لجـرح بميت إيـلام

وقوله (١) :

تصفو الحياة لجاهل أو غافل ∴ عمّا مضى فيها وما يتوقع

ولمن يغالط في الحقائق نفسه ∴ ويسومها طلب المحال فتطمع

وقوله (٢) :

على قدر أهل العزم تأتى العزائم ∴ وتأتى على قدر الكرام المكارم

وتعظم فى عين الصغير صغارُها ∴ وتصغر فى عين العظيم العظائم

وقوله (٣) :

واحتمال الأذى ورؤية جانيـ ـه غذاء تضوى به الأجسام

هكذا كان المتنبى يلمح برأيه فى حكمه ، وقد يصرح به ما أقام فى مكان ما ، وإن شئت فقل إنه ربما ظهرت آراؤه فى حكمه من حين إلى حين، ولكنه فيما بينه وبين نفسه كان يستثمر هذه الآراء ويقويها وينضجها . وكانت الحياة نفسها تعينه على ذلك وتدفعه إليه دفعا . فهذا الاضطراب الداخلى ، فى بعض الأقاليم التى زارها ، وهذه الأثرة التى تملأ نفوس الناس – ولا سيما السادة والأشراف – كل هذا وغيره كان يزيد من تجاربه فى الحياة ، ويقوى خبرته بها .

ومن حكمه المتوالية قوله (٤) :

ذو العقل يشقى فى النعيم بعقله ∴ وأخو الجهالة فى الشقاوة ينعم

لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى ∴ حتى يراق على جوانبه الدم

---

(١) الديوان : ٢ / ٢٦٩ .
(٢) الديوان : ٣ / ٣٧٨ ، ٣٧٩ .
(٣) الديوان : ٤ / ٩٣ .
(٤) الديوان : ٤ / ١٢٤ – ١٣٠ .

والظلم من شيم النفوس فإن تجد ∴ ذا عفة فلعلة لا يظلم
ومن البلية عذل من لا يرعوى ∴ عن غيه ، وخطاب من لا يفهم
والذل يظهر فى الذليل مودة ∴ وأود منه لمن يود الأرقم

وقوله (١) :

وما قتل الأحرار كالعفو عنهم ∴ ومن لك بالحر الذى يحفظ اليدا
إذا أنت أكرمت الكريم ملكته ∴ وإن أنت أكرمت اللئيم تمردا
ووضْعُ النَّدى فى موْضع السيف بالعلا ∴ مُضِرّ كوَضْع السيف فى موضع الندى
وقيَّدتُ نفسى فى ذراكَ محبةً ∴ ومن وجد الإحسان قيداً تقيدا

رابعا : أن المتنبى كان يحب سيف الدولة أمير حلب ويجله ويكبر أعماله :

وقد أعجب ببطولته (٢) ، ورأى أنه رمز دولة العرب المفقودة ، وأحس أنه سيملأ الفراغ الذى كان يحسه فى داخله منذ مطلع حياته ، فأخذ يتغنى بهذه البطولة ويمجدها لدرجة تجعلنا نقول إن معظم ما قاله من مدائح هو ما قاله يمجد فيه سيف الدولة ، ويتغنى بشجاعته وكرمه وأصالته (٣) .

بل إن المتنبى قد بلغ إبان ملازمته لسيف الدولة قمة عطائه الشعرى وإبداعه الفنى،وقد اشتهر بذلك وتفوق فيه على أقرانه من الشعراء الذين مدحوا القادة والأبطال تفوقا واضحا . ومدائحه فى سيف الدولة تعد فى الذروة لا من شعره وحده ، بل من الشعر العربى عامة . ولا غرابة فى ذلك فقد كان الحمدانى بطلا شجاعا ، يقف درعا للأمة العربية ، يصد عنها أعداءها من الروم ،كما كان كريما أصيلا ، وقد أعجب به المتنبى ، ورأى فيه صورة نفسه ، فكان مديحه له نابعا من الأعماق ، متصفا بالصدق والإخلاص .

---

(١) الديوان : ١ / ٢٨٨ ، ٢٩٢ .

(٢) انظر تاريخ الأدب العربى (العصر العباسى الثانى) للدكتور طه حسين ص ١٦٣ وما بعدها .

(٣) انظر مع المتنبى للدكتور طه حسين .

يقول الدكتور طه حسين : " ولم يكن من اليسير أن تمحى صورة سيف الدولة من نفس المتنبى كما محيت منها صورة الأمراء والسادة الذين اتصل بهم قبله . فقد لقى المتنبى عند سيف الدولة خير ما لقى فى حياته كلها ، لا من جهة الثروة والغنى وخفض العيش ولين الحياة ، فقد كان ذلك شيئا يسيرا ، يستطيع كافور أن يدره على المتنبى ، وأن يدر على المتنبى أكثر منه ، لأن ملك كافور كان أوسع وأثرى من ملك الحمدانى، بل لأن سيف الدولة وحياة المتنبى معه كانتا مخالفتين من جميع الوجوه لحياة كافور ولحياة المتنبى مع كافور ، وكانت حياة سيف الدولة حياة بطولة كلها ، تملؤها الحرب فى أكثر أوقاتها ،ويتحدث بها الناس فى جميع الأقطار الإسلامية وفى كثير من الأقطار البيزنطية أيضا ، وكان المتنبى يشارك سيف الدولة فى هذه الحياة وفيما كان يملؤها من بطولة ، كان يشارك فى ذلك مشاركة عملية ، فكان يغزو الروم معه إذا غزاهم ، وكان يستمتع بالنصر إذا أتيح النصر للأمير ، ويشقى بالهزيمة إذا كتبت عليه الهزيمة ، وكان كذلك يشارك الأمير فى جهاده للثائرين به والخارجين عليه من أهل البادية ، فكان يبلو ألوان الحرب المنظمة وغير المنظمة ، وكان يحس لذاتها وآلامها المادية والمعنوية . وكان بعد هذا كله يتغنى هذه الحرب ، ويعلن مجدها الضخم إلى المسلمين وغير المسلمين : كان اللسان الرسمى لهذا الجهاد العظيم ، وكان فى الوقت نفسه اللسان الصادق لما يثور فى قلبه هو من عاطفة أو هوى أو شعور " (١) .

يضاف إلى ذلك أن المتنبى نفسه كان فارسا ، وكانت له نفس أبية ، لها طموحها الذى لا يبارى ، وقد نشأ نشأة أعرابية ، فكان أعرابى الطبع ، يعتز بنفسه وبقومه العرب ، وكان يشعر بعروبته شعورا عميقا ، ومن ثم أتى الفخر فى مقدمة أغراضه الشعرية ، وقد بلغ فى هذا الفن الذروة ، بل إنه غالى بنفسه ، وأسرف فى المغالاة أحيانا ، حتى إننا لنجده أثناء المديح يجعل مدائحه شركة بينه وبين ممدوحيه ، وقد يرفع نفسه إلى مستوى الممدوح إن لم يتقدم عليه .

.. كل هذه الأمور أذكت شعر المتنبى فى حروب سيف الدولة ، فكان كما قال

---

(١) المصدر السابق ص ٢٦٤ ، ٢٦٥ .

ابن الأثير : " إذا خاض فى وصف معركة كان لسانه أمضى من نصالها ، وأشجع من أبطالها ، وقامت أقواله للسامع مقام أفعالها ، حتى يظن أن الفريقين قد تقابلا ، والسلاحين قد تواصلا " (١).

وبذلك كانت الحماسة العربية عند المتنبى من أقوى الفنون الشعرية (٢) ، فهى لون شعرى يوافق نفسه ، وهو يتمثله فى المواقف الحرجة ، كما أنه يحنق على ما صارت إليه الأمور فى البلاد العربية فى وقت من أوقات حياته ، حين أصبح زمام الحكم بيد الأعاجم ، ولم يعد للعرب نفوذ ولا سلطان . يقول (٣) :

وإنمــا النــاس بالملـــوكِ ومَــا .·. تُفلـحُ عُـربٌ مُلوكُهـا عَجَـمُ

ولذلك أعجب بهذه النغمة فى شعره كل عربى أصيل ، والتصق شعر المتنبى من ثم بالنفوس العربية الأبية ، وأخذت الأجيال العربية ترده على مر العصور ، لأنها تجد فيه صورة روحها وقوميتها ، وكل ما تعتز به وتفخر .

استمع إليه يصف نفسه الأبية ، واعتداده بنفسه ، وطموحه الذى لا يبارى . يقول (٤) :

وفى الناس مَنْ يَرْضَى بمَيْسور عيْشـه .·. ومَركُوبُـهُ رِجْـلاهُ والثـوبُ جلْـدُهُ
ولكـنَّ قلبًـا بيـن جَنْبـىَّ مالـه .·. مـدىً ينتهـى بى فـى مُـرادٍ أَحُدُّهُ

ومن أروع ما قاله يمجد فيه سيف الدولة ويصف حروبه قوله (٥) :

لـهُ عَسْكَرا خيْـلٍ وطـيرٍ إذا رمـى .·. بهـا عسكـرا لـم يَبْـقَ إلا جماجمُهْ
أجِلَّتُـها مِـنْ كُـلِّ طـاغٍ ثيابُـهُ .·. ومَوْطِئها مِـن كُـلِّ بـاغٍ ملاغمُـهْ

---

(١) انظر المثل السائر : ٢ / ٣٦٨ طبعة الحلبى ١٩٣٩ م .
(٢) انظر الحرب فى شعر المتنبى للدكتور محمود حسن أبو ناجى (بجزئيه) .
(٣) الديوان : ٤ / ٥٩ .
(٤) الديوان : ٢ / ٢٣ .
(٥) الديوان : ٣ / ٣٣٦ - ٣٣٨ .

فقد مَلَّ ضوءُ الصُّبْحِ مما تُغيرهُ . . وَمَلَّ سَوادُ الليلِ مما تُزاحمُه
وَمَلَّ القَنا مما تَدُقُّ صُدورَهُ . . وَمَلَّ حديدُ الهندِ مما تُلاطمُهْ
سَحابٌ مِن العِقْبان يزْحَفُ تحتها . . سَحابٌ إذا استسْقتْ سقتها صَوارِمُهْ

وقد كتب الدكتور طه حسين فى كتابه تاريخ الأدب العربى (العصر العباسى الثانى) فصلا عن شعر المتنبى فى سيف الدولة (١) ، وذكر الدكتور طه حسين عن شعر المتنبى فى سيف الدولة بأنه لم يكن من أجمل شعر المتنبى وأروعه وأحقه بالبقاء، بل من أجمل الشعر العربى كله وأروعه وأحقه بالبقاء ، وقال إن شعر المتنبى فى سيف الدولة ممتاز بما لم يمتز به سائر شعره ، فهو يمتاز بالكثرة والتنوع (٢) .

ثم يقول الدكتور : " وخصلة رابعة يمتاز بها شعر المتنبى فى هذا الطور أيضا وهى أنه قد وثب بشعره حين اتصل بسيف الدولة وثبته الأخيرة التى رفعته إلى الأوج وضمنت له مكانة بين الفحول من شعراء العرب ، لا لأنه استحدث فنا جديدا ، فقليل من شعراء العرب من استحدث فنا جديدا ، وقد كان ذلك فى صدر الإسلام وفى أول أيام العباسيين ، ولا لأنه قد جدد من أوزان الشعر وقوافيه ما قدم وطال عليه العهد ، ولا لأنه قد أضاف إلى هذه الأوزان وزنا لم يكن معروفا من قبل ، فليس للمتنبى فى شئ من هذا حظ ما ،بل لأنه ملك ناصية الفن حقا ، وجعل يتصرف بألفاظه ومعانيه كما كان يتصرف بها الفحول، وأثبت شخصيته قوية واضحة ممتازة من غيرها، وأصبح مرآة لنفسه لا لأبى تمام ولا للبحترى، وأصبحنا نستطيع أن نقرأ القصيدة من شعره فنقول : إنها قصيدته هو لم يتأثر بهذا الشاعر أو ذاك .." (٣).

وأعتقد أن الأمير قد اكتسب من شعر المتنبى القوة والشهرة والخلود ، فلو لم يكن للمتنبى رفقة بسيف الدولة هل كان بإمكاننا أن نقرأ هذا الشعر الحماسى الذى خلد من جهة سيف الدولة الحمدانى ، ورفع من جهة أخرى من قدر المتنبى .

---

(١) انظره ص ١٦٣ وما بعدها .
(٢) انظر أيضا " مع المتنبى " للدكتورطه حسين ص ١٧١ دار المعارف ط١١ .
(٣) تاريخ الأدب العربى د. طه حسين (العصر العباسى الثانى) ص ١٧١، ١٧٢ .

على أن شعر المتنبى فى سيف الدولة جاء موافقا لنفسيته الثائرة ، فخرج شعره صادقا متدفقا ، حتى أن سيف الدولة كان يحس أنه يسمع شعرا سحريا من المتنبى ، لذا اصطنعه شاعره الخاص رغم حسد الحساد وكيد الكائدين ، وقد مدح المتنبى سيف الدولة بقصائد كانت ملء السمع والبصر .

يقول فى قصيدة له عن معركة (الحدث) (١) :

هل الحدث الحمراء تعرف لونها ∴ وتعلمُ أيُّ الساقيين الغمائم
سقتها الغمام الغرُّ قبل نزوله ∴ فلما دنا منها سقتها الجماجم
بناها فأعلى والقنا تقرع القنا ∴ وموج المنايا حولها متلاطم
وكان بها مثل الجنون فأصبحت ∴ ومن جثث القتلى عليها تمائم

ويقول فى نفس القصيدة (٢) :

وقفت وما فى الموت شك لواقف ∴ كأنك فى جفن الردى وهو نائم
تمر بك الأبطال كلمى هزيمة ∴ ووجهك وضاح وثغرك باسم
تجاوزت مقدار الشجاعة والنهى ∴ إلى قول قوم أنت بالغيب عالم
ضممت جناحيهم على القلب ضمة ∴ تموت الخوافى تحتها والقوادم
بضرب أتى الهامات والنصر غائب ∴ وصار إلى اللبات والنصر قادم

وقال يمدح البطل الحمدانى ويذكر نهوضه إلى الثغر للقاء الروم (٣) :

ذى المعالى فليعلون من تعالى ∴ هكذا هكذا وإلا فلالا
شرف ينطح النجوم بروقيـ ∴ ـه وعز يقلقل الأجبالا
حال أعدائنا عظيم وسيف الد ∴ ولة ابن السيوف أعظم حالا

---

(١) الديوان : ٣ / ٣٨٠ ، ٣٨١ .
(٢) الديوان : ٣ / ٣٨٦ - ٣٨٨ .
(٣) الديوان : ٣ / ١٣٤ - ١٤١ .

كلما أعجلو النذير مسيرا ∴ أعجلتهم جياده الإعجالا
فأتتهم خوارق الأرض ما تحـ ـمل إلا الحديد والأبطالا

..

نزلوا فى مصارع عرفوها ∴ يندبون الأعمام والأخوالا
تحمل الريح بينهم شعر الها م وتذرى عليهم الأوصالا
تنذر الجسم أن يقيم لديها ∴ وتريه لكل عضو مثالا
أبصروا الطعن فى القلوب دراكا ∴ قبل أن يبصروا الرماح خيالا
وإذا حاولت طعانك خيل ∴ أبصرت أذرع القنا أميالا

ولندع كل تلك القصائد التى قالها المتنبى فى أوائل الحرب فإنها لا تزيد على أن تكون تحريضا للجنود وتثبيتا لهممهم ، وثناء على سيف الدولة بما هو أهله ، ثم إنذارا لأعداء المسلمين بما سيصيبهم من جراء حرب المسلمين لهم ، وكانت سيرة المسلمين محققة كل التحقيق لما قال المتنبى ، فقد حالفهم النصر وهزموا أعداءهم أشنع الهزائم فى كل موطن لقوهم فيه .

وقد حدث أن سئم بعض أتباع سيف الدوله الحرب ، وأشفقوا من طول الغزو ، فطالبوا الأمير السماح لهم بالرجوع إلى أوطانهم ، وكان أن استجاب الأمير لما طلبوا ، ورجع هؤلاء يصحبون معهم الغنائم والأسرى ، وفى ذلك الوقت تبعهم الأعداء ، وألحقوا بهم هزيمة منكرة ! .

وللمتنبى قصيدة (١) وصف فيها هذه الحرب وما كان من انتصار المسلمين فى كثير من مواقعها ، ثم لم يفته أن يصف تلك الهزيمة المنكرة التى لم تأخذ من نفس سيف الدولة رغم تعرضه فيها لأشد الأخطار . وهى قصيدة تصور الحوادث أجمل

---

(١) انظر الديوان : ٢ / ٢٢١ - ٢٣٤ .

تصوير وأروعه ، وهى فضلا عن ذلك كله تصور نفسية الأمير ، ومدى تحرقه شوقا إلى الانتقام .

وقد نزه المتنبى الأمير عن اللوم والعار ، وألحق العار بالذين خذلوه وأسلموه وتفرقوا عنه ، ولم يقف عند هذا الحد ولكنه أخذ يوبخ المنهزمين أشد التوبيخ ، ويعنفهم أقصى التعنيف ، وهو فى الوقت نفسه لم يدفعهم إلى اليأس من الظفر والانتقام ، لأنه لا يريد أن يفل من حد المسلمين ، ولا أن يكسر قلوبهم ؛ لأنه قد شهد هذه الموقعة ، ورأى بعينيه أن الهزيمة لم تأت عن ضعف فى المسلمين ، وإنما الحرب سجال .

وانظر إليه كيف يتغنى فى أول هذه القصيدة مثل هذا الغناء الحزين (١) :

غيرى بأكثر هذا الناس ينخدع ∴ إن قاتلوا جَبُنُوا أو حدَّثوا شجعوا

أهلُ الحفيظة إلا أنْ تجربهم ∴ وفى التجارب بعد الغىّ ما يزعُ

وما الحياة ونفسى بعد ما علمَتْ ∴ أن الحياةَ كما لا تشتهى طَبَعُ

ليس الجمالُ لوجهٍ صحَّ مارِنُهُ ∴ أنفُ العزيز بقطع العز يُجْتَدَعُ

ويمضى المتنبى بعد هذا اليأس فيأخذ يستفز المسلمين ، ويستنهضهم للانتقام ، ويصف غارة سيف الدولة حين انقض على الروم كالصاعقة فلم يثبتوا له حتى وصل إلى خرشنة عزيزا منتصرا (٢) :

قادَ المقانبَ أقصى شُرْبِها نَهَلٌ ∴ على الشَّكيم وأدنَى سيرها سرَعُ

لا يَعْتَقى بلدٌ مسراه عن بلدٍ ∴ كالموتِ ليس له رِىٌ ولا شبع

حتى أقام على أرباضِ خَرْشَنَةٍ ∴ تشقى به الروم والصلبان والبيع

للسَّبْىِ ما نكَحوا والقتل ما ولدوا ∴ والنهب ما جمعوا والنار ما زرعوا

مخلىً له المرْجُ منصوبا بصارخةٍ ∴ له المنابر مشهودا بها الجُمَعُ

(١) الديوان : ٢ / ٢٢١ ، ٢٢٢ .

(٢) الديوان : ٢ / ٢٢٤ ، ٢٢٥ .

ويتحدث إلى الروم فيقول (١) :

قـل للدُمُستُق إن المسلمين لكم ∴ خانوا الأمير فجازاهم بما صنعوا
وجدتموهم نياما فى دمائكم ∴ كأن قتلاكُمُ إياهُمُ فَجَعُوا
ضَعْفَى تعفُّ الأعادى عن مثالهم ∴ من الأعادى وإن هموا بهم نزعوا
لا تحسبوا من أسرتم كان ذا رَمَقٍ ∴ فليس يأكل إلا الميتة الضبُعُ
هلّا على عَقَبِ الوادى وقد صعدت ∴ أسْدٌ تمر فرادى ليس تجتمع
تشُقُّكُمْ بقناها كلُّ سَلْهَبَةٍ ∴ والضرب يأخذ منكم فوق ما يدع
وإنما عـرَّض الله الجنود بكم ∴ لكى يكونوا بلا فَسْلٍ إذا رجعوا
فكل غزو إليكم بعد ذا فَلَهُ ∴ وكل غاز لسيف الدولة التبعُ

ويتحدث إلى سيف الدولة فيقول (٢) :

وهل يَشينُك وقتٌ أنت فارسُهُ ∴ وكان غيرك فيه العاجز الضَّرَعُ
من كان فوق محلِّ الشمسِ موضِعُه ∴ فليس يرفعه شيءٌ ولا يضَعُ

ويقول (٣) :

الدهرُ معتذرٌ والسيفُ منتظرٌ ∴ وأرضُهُمْ لك مُصْطافٌ ومُرْتَبَعُ

وقال يمدحه وقد غزا الروم فى جمادى الآخرة عام ٣٤٢ هـ (٤) :

رمى الدرب بالجرد الجياد إلى العدا ∴ وما علموا أن السهام خيول
شَوَائِلُ تَشْوالَ العقارب بالقنا ∴ لها مرحٌ من تحته وصهيل
وما هى إلا خطرة عرضت له ∴ بحرّان لبّتها قنـاً ونصول

---

(١) الديوان : ٢ / ٢٢٩ - ٢٣١ .
(٢) الديوان : ٢ / ٢٣١ ، ٢٣٢ .
(٣) الديوان : ٢ / ٢٣٣ .
(٤) الديوان : ٣ / ٩٩ - ١٠٢ .

همـام إذا مـا هـمّ أمضـى همومـه ∴ بأرعـن وطء المـوت فيـه ثقيـل
وخيـل براهـا الركض فـى كـل بلـدة ∴ إذا عرّسـت فيهـا فليـس تقيـل
فلمـا تجـلى مـن دلـوك وصنجـة ∴ علـت كـل طـود رايـة ورعيـل
فمـا شعـروا حـتى رأوهـا مغـيرة ∴ قِباحـاً وأمـا خَلْقُـهـا فجميـل
سحائـب يمطـرن الحـديـد عليهـم ∴ فكـل مكـان بالسيـوف غسيـل
وأمسـى السبـايـا ينتحبـن بعرقـة ∴ كـأن جيـوب الشـاكـلات ذيـول
تسـايرهـا النيـران فـى كـل مسلـك ∴ بـه القـوم صرعـى والديـار طلول

وقال فيه حين ظفر ببنى كلاب سنة ٣٤٣هـ (١) :

بغيـرك راعيـا عبِـثَ الذئـابُ ∴ وغـيرك صارمـا ثَـلـمَ الضّـرابُ
وتمـلك أنفـس الثقليـن طـرّاً ∴ فكيـف تحـوز أنفسهـا كـلاب
ومـا تركـوك معصيـة ولكـن ∴ يُعـافُ الـوِردُ والمـوت الشـراب
طلبتهـم عـلى الأمـواه حـتى ∴ تـخـوّف أن تفتشـه السحـاب
فبت ليـاليـا لا نـوم فيهـا ∴ تَخُـبُّ بـك المُسَـوَّمَـةُ العِـراب
يهـز الجيـش حولك جـانبيـه ∴ كمـا نفضـت جناحيهـا العقـاب
وتسـأل عنهـم الفلـوات حـتى ∴ أجابـك بعضهـا وهـم الجـواب
تـرفـق أيـهـا المـولى عليهـم ∴ فـإن الرفـق بالجـانى عتـاب
وإنهـم عبيـدك حيث كـانـوا ∴ إذا تدعـو لحـادثـة أجابـوا

وقال يمدحه عند منصرفه من بلاد الروم سنة ٣٤٥ هـ وبعد أن أوقع بهم هزيمة منكرة (٢) :

---

(١) الديوان : ١/ ٧٥ - ٧٦ ، ٧٩.
(٢) الديوان : ٤ / ١٧٤ - ١٧٧ .

الرأى قبل شجاعة الشجعان ∴ هو أول وهى المحل الثانى
فإذا هما اجتمعا لنفس مرة ∴ بلغت من العلياء كل مكان
ولربما طعن الفتى أقرانه ∴ بالرأى قبل تطاعن الأقران
قاد الجياد إلى الطعان ولم يقد ∴ إلا إلى العادات و الأوطان
كل ابن سابقة يغير بحسنه ∴ فى قلب صاحبه على الأحزان
إن خُلّيت ربطت بآداب الوغى ∴ فدعاؤها يغنى عن الأرسان
فى جحفل ستر العيون غبارهُ ∴ فكأنما يبصرن بالآذان
يرمى بها البلد البعيد مظفّرٌ ∴ كل البعيد له قريب دان
فكأن أرجلها بتربة منبج ∴ يطرحن أيديها بحصن الران

إلى غير هذه النماذج الحربية التى كتبها المتنبى بدماء الشهداء وصليل السيوف وغبار الخيول وطعن الرماح ووقع القنا ،وكان شعر المتنبى فى سيف الدولة يمثل أغلى القصائد الحربية وأعنف الأناشيد الحماسية .

ولم يقف شعر المتنبى عند هذا الحد ولكنه راح يذكر حكام المسلمين بأن سيف الدولة الحمدانى أمير حلب إنما هو البطل الذى وقف فى وجه جيوش الروم لا لشئ إلا لرفع راية الإسلام . يقول (١) :

أنت طول الحياة للروم غاز ∴ فمتى الوعد أن يكون القفولُ
وسوى الروم خلف ظهرك رومٌ ∴ فعلى أىّ جانبيك تميل
قَعَد الناسُ كلهم عن مساعيـ ∴ ـك وقامت بها القنا والنصول
ما الذى عنده تُدار المنايا ∴ كالذى عنده تُدار الشمول
لست أرضى بأن تكون جوادا ∴ وزمانى بأن أراك بخيلُ

---

(١) الديوان : ٣ / ١٥٧ .

وعن قصائد المتنبى فى حروب سيف الدولة يقول الدكتور زكى المحاسنى :
" وإن هذه القصائد فوق ما حوته من قيمة أدبية وسحر بيان وتحليق فى فن المعانى والأسلوب وسمو فى الصنعة فإنها تجمع فى أبياتها (قيمة تاريخية) و (جغرافية) غالية القدر وتعد (وثائق) فى غاية الخطورة لكتابة التاريخ السياسى والتحقيق الأدبى عن عصر سيف الدولة " (١) .

والحقيقة أن كل هذه الأشعار إنما تدل على سلامة فكرة الوطنية عند المتنبى(٢) ، فهو فى شعره كثيرا ما يذكر العرب ،ويظهر اعتزازه بهم ، وقد وصل هذا إلى درجة التعصب لهم ، يقول (٣) :

إن كنت عن خير الإنام سائلا ∴ فخيرهم أكثرهم فضائلا
من أنت منهم يا همام وائلا ∴ الطاعنين فى الوغى أوائلا
والعاذلن فى الندى العواذلا ∴ قد فضلوا لفضلك الفضائلا

ويقول (٤) :

فتى علّمته نفسه وجدوده ∴ قراع الأعادى وابتذال الرغائب
فقد غيّب السُّهّاد عن كل موطن ∴ وردَّ إلى أوطانه كلَّ غائب

ويظهر دفاعه عن العرب فى قصائده التى قالها فى انتصار سيف الدولة على القبائل العربية ، يقول (٥) :

---

(١) شعر الحرب فى أدب العرب فى العصرين الأموى والعباسى إلى عهد سيف الدولة ص ٢٧٤ دار المعارف بمصر الطبعة الثانية ١٩٧٠ م .
(٢) انظر المتنبي مالئ الدنيا وشاغل الناس للأستاذ شفيق جبرى ص ٦٧ وما بعدها وانظر كذلك صحيفة دار العلوم (السنة السادسة ، العدد الثانى ،يناير سنة ١٩٤٠ م) مقال بقلم الأستاذ علي النجدى ناصف ص ٥٩ ، ٦٠ .
(٣) الديوان : ٣ / ١١١ .
(٤) الديوان : ١ / ١٥٢ .
(٥) الديوان : ١ / ٧٩ .

وكيف يتم بأسك فى أناس ∴ تصيبهم فيؤلمك المصابُ
ترفق أيها المولى عليهم ∴ فإن الرفق بالجانى عتاب
وإنهم عبيدك حيث كانوا ∴ إذا تدعو لحادثة أجابوا

ومن هذا ما قاله يندد فيه بالعجم الذين يظلمون المسلمين ، يقول [١] :

أحقّ عافٍ بدمعك الهمم ∴ أحدثُ شئ عهدا بها القِدَمُ
وإنما الناس بالملوك وما ∴ تفلح عرب ملوكها عجم
لا أدب عندهم ولا حسب ∴ ولا عهود لهم ولا زمم
يستخشن الخز حين يلبسه ∴ وكان يُبْرى بظفره القلم

وينبغى أن أذكر أن قصائد الشاعرين (المتنبى وأبى فراس) فى سيف الدولة الحمدانى تمتاز بدقة التصوير، وبراعة الوصف، ومتانة الديباجة .وقد برع كل منهما فى تصوير وقائع الحروب التى دارت بين العرب والروم فى العصر العباسى الثانى ، وخلد كل منهما تاريخ الحمدانيين وحياة أميرهم سيف الدولة : الأول بسيفياته - وكما سبق القول - فهى دون شك أعظم وأروع ما فى ديوانه من قصائد ، لما فيها من صدق فى العاطفة وعمق فى التجربة ، والثانى لما تغنى به من فخر وشجاعة ، ولرومياته التى كتبها فى الأسر يستعطف بها ابن عمه لافتدائه من غير يأس أو قنوط .

ويمتاز شعر الشاعرين بالجودة والكثرة والتنوع ، ومما أسهم فى إجادة كل منهما لشعر الحرب أنهما كانا فارسين ومقاتلين ، فكثيرا ما وصف كل منهما حروب سيف الدولة ، وكثيرا ما أشادا بانتصاراته ،ويمكننا أن نقول إن ما قاله كل من الشاعرين فى الأمير الحمدانى يمثل تراثا أدبيا مجيدا ، تراثا فرض نفسه على كل ماتلاه من عصور فقصائدهم فيه تمتاز بدقة التصوير ، وبراعة الوصف ، ومتانة الديباجة .

وللمتنبى قصيدة عينية رائعة قالها فى معركة جبل اللقان التى دارت بين

---

(١) الديوان : ٤ / ٥٨ ، ٥٩ .

سيف الدولة والروم ، وقد شهد المتنبى الموقعة ، والقصيدة تشيد بحماسة سيف الدولة وبخبرته فى الحروب ،وهى قصيدة طويلة من أعظم ما قال المتنبى فى حماسة سيف الدولة وحروبه وتجاربه فى هذه الحروب

ومن أهم ما يلفت النظر أن المتنبى يشير فى مطلع هذه القصيدة إلى أن هناك شروطا للفروسية لا تتم إلا بها ، ولا يكون الفارس فارسا إلا إذا توفرت لديه هذه الشروط مكتملة ، يقول (١) :

وما الحياة ونفسى بعد ما علمتْ ∴ أن الحياةَ كما لا تَشتهى طَبَعُ
ليس الجمالُ لوجهٍ صحَّ مارِنُهُ ∴ أنفُ العزيز بقَطع العز يُجْتَدع
أأطرح المجد عن كتفى وأطلُبُهُ ∴ وأترك الغيث فى غمْدى و أنتجعُ
والمشْرفيةُ لازالت مُشرَّفةً ∴ دواءُ كل كريم أو هى الوَجَعُ

فالمتنبى فى هذا المطلع يثور ويغضب من هؤلاء الجبناء الذين يجبنون عن الذهاب إلى الحروب ،ويكتفون بالشعارات ..وكأنى به - وكأثر من تأثره بمعايشة الحروب وخوض تجاربها - يستعذب الموت فى الحروب ، ولهذا نراه يشن هذا الهجوم القوى على الجبناء ، ويدعوهم إلى عيشة المجد التى تكون مليئة بالبأس والكفاح

وقصيدة المتنبى قصيدة جيدة ، وقد وصف فيها شجاعة سيف الدولة وإقدامه ، وعدم خوفه حين وقف فى أرض المعركة ، وأخذ يتابع تحرك جيش الأمير وهو يسير إلى أرض أعاديه ، كما صور التقاء الجيشين ، وصور كذلك هزيمة الروم أمام جيش الأمير الحمدانى ، كما تحدث فى ختامها عن تقهقر جيش الأمير وهو فى طريقه للعودة إلى حلب .

والواقع أن قصائد المتنبى فى سيف الدولة طويلة جدا ، ومع هذا فلم يبلغ فى هذه القصائد درجة الشعر الملحمى ، وكان بوسع شاعرنا أن يتجه هذه الوجهة لما توفر

---

(١) الديوان : ٢ / ٢٢١ ، ٢٢٢ .

عنده من خصائص فنية للشعر الملحمى ، ولما لديه من خيال وثاب ، ومن عاطفة صادقة عميقة ، وتفكير منطقى يعينه على توليد المعانى ، وقدرة على التعليل فيما جاء فى شعره من مبالغات .

ولعل المتنبى قد اكتفى بأن زاد على شعر الحماسة الموروث ، وأطال فيه ونوع ، وألبسه ثوب القصص ، فهو يصف الوقائع ، ويسرد الأحداث ، ولذلك استحوذ شعره على قرائه ، وكأنه قد أحس بذلك عندما قال :

ومـا الشعـر إلا مـن رواة قصائـدى ∴ إذا قلـت شعـرا أصبـح الدهـر منشدا

ومهما يكن فالمتنبى أمير لشعراء الحرب فى عصره ، وقد توفر لشعره فى سيف الدولة من الخصائص الفنية ما لم يتوفر لغيره من الشعراء ، ولا عجب فقد شارك فى الحروب التى دارت فى عهده ، وسجل أحداثها فى شعره ، وقد مرت به ساعات عصيبة تعرض فيها للقتل ، وكان للموت أقرب منه إلى الحياة .

وشعر المتنبى فى سيف الدولة ليس وقفا على الأمير وحده ، فهو يتعداه إلى ذات المتنبى ، وهذا هو شأنه فى معظم أشعاره .. كل ما فى الأمر أنه يمتاز عن غيره بما شاع فى شعره من حكمة كقوله فى قصيدته الميمية التى قالها فى انتصار سيف الدولة على الروم (١) :

على قـدر أهل العـزم تأتـى العزائـم ∴ وتأتـى علـى قـدر الكـرام المكـارم

وتعظـم فـى عـين الصغير صغارهـا ∴ وتصغـر فـى عـين العظيـم العظائـم

يقول الدكتور طه حسين فى كتابه " مع المتنبى " : " إن المتنبى إذن لم ينشئ بشعره فى وصف الجهاد بين المسلمين والروم فنا جديدا ، وإنما ارتقى بهذا الفن حتى انتهى به إلى أقصى ما كان قد قدر له من كمال . وأنت تشعر بهذا شعورا قويا واضحا حين تقرأ شعر المتنبى وشعر أبى فراس فى وصف هذا الجهاد . فكلا الشاعرين قد شهد المواقع واشترك فيها وذاق لذاتها وآلامها . ثم وصف ما تركت فى

---

(١) الديوان : ٣/٣٧٨ ، ٣٧٩ .

نفسه وفى نفس غيره من الأثر . ولكنك واجد فى وصف المتنبى قوة وفتوة ونشاطا وعنفا ، لا تجدها فى شعر أبى فراس الذى ظهرت فيه دقة الحس ورقة العاطفة ، فهو لا يخلو من فتور لا يلائم هذه الحياة العنيفة التى كان يحياها هؤلاء العرب من المسلمين فى ذلك الوقت ، ولعله يلائم الترف الذى كان يشمل القصرين فى أوقات السلم : قصر سيف الدولة فى حلب ، وقصر أبى فراس نفسه فى منبج [١]:

ويقول أيضا : " والواقع أن فى شعر هذا المتنبى كثيرا من مميزات الشعر القصصى : فيه قوة المعنى ، وفيه جزالة اللفظ ، وفيه روعة الوصف للحرب وأهوالها وبلاء الأبطال فيها ، وفيه الإشادة بنفس الجماعة وما ترتقى إليه حين تبلى فتحسن البلاء ، وحين تمتحن فتحسن احتمال المحنة . ولكن فيه عنصرا يميزه من الشعر القصصى ويرده إلى الغناء ردا قويا ويلزمه مكانه من الشعر العربى المألوف ، وهو أن الشاعر لا ينسى نفسه لحظة ولا بعض لحظة ، وإنما هو يذكرها دائما حتى عندما يغرق فى وصف سيف الدولة ، أو حين يغرق فى وصف الحرب والمحاربين . فشخصية المتنبى ظاهرة قوية فى شعره الرومى ، لا يستطيع القارئ وإن بعد العهد بينه وبين الشاعر أن ينساها أو يعرض عنها ، وإنما هى تفرض نفسها عليه فرضا . وقد لا يكتفى المتنبى بحضور شخصيته فى ذهنه وفى ذهن سامعيه وقارئيه ، فإذا هو يذكرها تصريحا ويحدث عنها فى غير لبس ولا التواء . وأخص ما يمتاز به الشعر الغنائى من الشعر القصصى هو هذا العنصر بالضبط ، هذا العنصر الذى يمثل الشاعر أمامك فى كل لحظة .." [٢] .

وينبغى أن أذكر كذلك أن شعراء سيف الدولة الحمدانى كانوا من كثرة العدد ووفرته بحيث لم يكن من الممكن أن ينسبوا جميعا إلى إقليم واحد ، بل كان أغلبهم من الوافدين الذين استهوتهم شجاعة سيف الدولة ، أو استهواهم ما فى بلاطه من رفد، وما لديه من عطاء ، وكان أبو الطيب من هؤلاء الوافدين .

---

(١) ص ١٧٦ ، ١٧٧ طبعة دار المعارف ط ١١ .
(٢) المصدر نفسه ص ١٧٧ .

ومن عجب أن هذا العدد الضخم من الشعراء لم يكد يصل إلى حلب حتى أنشأوا قصائد تنحو نحوا دقيقا فى أوصاف الطبيعة ، وكان كثير منهم يخلص لقصائده فى الطبيعة كل الإخلاص فلا يشرك بها شيئا . أما المتنبى فقد أخذ يجول فى حلب ، ومع ذلك فلم ينفعل ببيئتها وما فيها من جمال وفتنة وبساتين وأزاهير ، ولكنه اهتم بفن جديد من الشعر خص به سيف الدولة ، ذلك الفن الجديد هو شعر الحرب ، الأمر الذى يؤكد أن شخصية سيف الدولة قد استولت على المتنبى ، وكان لهذه الشخصية أثر كبير فى تلوين شعر المتنبى وإبداعه فى موضوعات شعر الحرب .

وقد لفتت هذه الظاهرة نظر كثير من الباحثين . يقول الدكتور مصطفى الشكعة : " وإذا ما انتقلنا إلى أبى الطيب المتنبى وجدناه قد تأثر بحلب كل التأثر وأنشأ لنا فنا جديدا من الشعر خص به سيف الدولة ، ذلك الفن الجديد هو شعر الحرب فلو لم يعش المتنبى على مقربة من غزوات الأمير الفارس لما قدم لنا هذه القصائد العصم الخالدة فى وصف مواقع سيف الدولة والتحام جيوشه مع الروم .

فإذا سأل سائل : لماذا لم يتأثر المتنبى بطبيعة الشام الساحرة ، لماذا لم يصدح مع الطير ولم يرقص مع الغصون ؟ لم لم يصف الأزهار الفاتنة والطبيعة البكر والمياه السلسالة الدافقة ، والثمار الناضجة اليانعة ؟ هل المتنبى لم يتأثر حقيقة بهذه الطبيعة الفاتنة ؟ ....

الواقع أن المتنبى تأثر بجمال حلب ، وافتتن بغوطة دمشق التى لا تقل روعة وفتنة عن شعب بوان ، ولكنه كان قد استولى على إعجاب أميره بمدائحه الخالدة ، وأشعره الأمير أنه فى منزلة لا يرقى إليها شاعر آخر من شعراء البلاط فى هذه المدائح والحربيات ، فخاف المتنبى إن هو نازل الشعراء فى ميادين البيئة من وصف للأزهار والحدائق والأمواه وما إليها ألا يلحق بهم لافتقاره إلى الرقة المتوفرة لديهم ، فيبرزوا عليه ويهزموه شر هزيمة ، فرضى بمكانه الذى رسمه لنفسه ولم يغامر فى ميادين أخرى[1] .

---

(١) فنون الشعر فى مجتمع الحمدانيين ص ٤٨٩ ، ٤٩٠ .

وعلى هذا فإنه إذا كان للبيئة أثر فى تلوين شعر الشعراء ، فإن شاعر العربية المتنبى كان كل شئ فى حياته هو شخصية الأمير ، وكان كل همه أن يفوز بقلبه ، وأن يكون فارسه الأوحد المقرب إليه ، حتى ينال من العطف والعطاء أكثر مما ينال غيره ، ومن هنا نشأت بينه وبين الشعراء مشاحنات كثيرة استفاضت بها كتب تاريخ الأدب .

خامسا : وضوح شخصية المتنبى فى شعره :

من السمات البارزة فى شعر أبى الطيب المتنبى أنه لا يمكن فصله عن شخصه، فمن عرف شخص أبى الطيب سهل عليه إدراك فنه ، فأبو الطيب يكشف لنا فى شعره عن شخصيته كشفا واضحا ، ولا يتوقف هذا الكشف على مرحلة واحدة من حياته ، ولكنه يشمل جميع مراحل حياته وفى مختلف أغراض شعره ، فشخصيته قبل اتصاله بسيف الدوله يكتنفها الشعور بمركب النقص ، وذلك بسبب الغموض الذى كان فى نسبه ، أو بسبب ما اتهمه به بعض حساده من ضعة والده ، إذ كان يعمل سقاء فعاب عليه بعض حساده ذلك وهجاه به [١] .

ولا شك أن هذا الإحساس بالنقص قد دفع بشاعر العربية إلى أن يمجد القوة وأن يعشق العظمة ويسعى لأن يحققها بكل وسيلة ، وقد دفعه ذلك إلى الغرور وإلى أن يعتد بنفسه اعتدادا بلغ حد النقمة على المجتمع والثورة على كل أفراده ، لدرجة جعلته يريد من الزمن ما لا يستطيع الزمن نفسه أن يحققه .

يقول [٢] :

أريد من زمنى ذا أن يبلغنى .·. ما ليس يبلغه فى نفسه الزمن

لا تلق دهرك إلا غير مكترث .·. ما دام يصحب فيه روحك البدن

فما يدوم سرور ما سررت به .·. ولا يرد عليك الفائت الحزن

---

(١) انظر وفيات الأعيان : ١/ ٥٠ طبعة بولاق .

(٢) الديوان : ٤ /٢٣٤ .

ومن ملامح شخصية المتنبى فى شعره وبخاصة بعد اتصاله بأمير حلب سيف الدولة الحمدانى ، ذلك الاختلاف فى الأنواع والألوان والفنون . وفى رأيى أن هذا الاختلاف لم يكن ناشئا عن رغبة من الشاعر فى التنويع ، وإنما كان مرد ذلك كله إلى الاختلاف الذى كان فى حياة الشاعر حين اتصل بالأمير ، فلقد وقع الشاعر فى صراع عنيف بين جشعه وترفعه وغروره ، هذا من ناحية ومن ناحية أخرى فإن سيف الدولة نفسه كان مختلف الأنحاء والوجوه .

ويعد الفخر على رأس الموضوعات الشعرية التى عبرت عن شخصية المتنبى ، فالشاعر منذ صباه مغرم بالعظمة والمجد، وكان يجرى وراء أمجاد هى أشبه بالأحلام .

استمع إليه يقول مرتجلا (١) :

أىَّ محــــل ارتقـــــى .·. أىَّ عظيــــم أرتقـــــى

وكــل مــا خلـق اللــــه .·. ومـــا لـــم يخلـــق

محتقـــر فـــى همتـــى .·. كشعـــرة فـــى مفرقـــى

أو استمع إليه يقول مخاطبا جدته لأمه فى قصيدة طويلة يرثيها فيها (٢):

ولـو لـم تكونـى بنـت أكـرم والـد .·. لكان أبـاك الضخم كونـك لى أمـا

والمتنبى حين يفتخر يعتمد فى فخره على الصفات الجاهلية ، فنجده يمجد القوة ويعلن النقمة والتمرد على كل شئ ، وينادى بأنه سيحطم كل ما يعترضه وهو فى سبيل الوصول إلى أمجاده ومطامحه ، ولعل هذا هو السبب الذى جعله يعيش فى صراع عنيف وشديد مع الشدائد والخطوب .

استمع إليه يصور صراعه العجيب مع هذه المصاعب ، يقول (٣) :

---

(١) الديوان : ٣٤١/٢ .
(٢) الديوان : ١٠٧/٤ .
(٣) الديوان : ١٤٨/٢ ، ١٤٩ .

أطاعن خيلا من فوارسها الدهر ∴ وحيدا ، وما قولى كذا ومعى الصبرُ
وأشجع منى كل يوم سلامتى ∴ وما ثبتتْ إلا وفى نفسها أمْرُ
تمرّستُ بالآفات حتى تركتها ∴ تقول : أمات الموتُ أم ذُعِرَ الذُّعْرُ !
وأقدمت إقدام الأتىّ كأن لى[1] ∴ سوى مهجتى أو كان لى عندها وِترُ
دع النفس تأخذ وُسْعَها قبل بَيْنها ∴ فمفترق جاران دارهما العمر
ولا تحسبن المجد زقّاً وقَيْنة ∴ فما المجد إلا السيفُ والفتكةُ البكْرُ[2]
وتضريب أعناق الملوك وأن ترى ∴ لك الهَبَواتُ السودُ والعسكرُ المجْرُ
وتركك فى الدنيا دويّاً كأنما ∴ تداول سمْعَ المرء أنْمُلُهُ العشرُ

وهو يتطلع إلى أعلى المطامح التى إن سئل عنها لأجاب بأنه يتطلع إلى أشياء يجل التصريح عنها .

يقول من قصيدته التى يرثى فيها جدته [3]:

يقولون لى : ما أنت ؟ فى كل بلدة ∴ وما تبتغى؟ ما أبْتغى جلّ أن يسمى

وهو فى شعر له نجده يتوعد الملوكِ العرب والعجم ، ويهددهم إن عصوا أمره ، يقول [4]:

لأتركنّ وجوه الخيل ساهمةً ∴ والحرب أقومُ من ساقٍ على قدم
والطعن يحرقها ، والزجر يُقْلقُها ∴ حتى كأن بها ضربا من اللَّمم
ميعادُ كل رقيق الشفرتين غدا ∴ ومن عصى من ملوك العُرْب والعجم
فإن أجابوا فما قصدى بها لهُمُ ∴ وإن تولوا فما أرضى لها بِهِم

(١) الأتىُّ : السيل الذى لا يرده شئ .
(٢) الزق : ظرف الخمر ، والقينة : المغنية ، وأراد بالفتكة البكر : الفتكة التى لم يُفتك مثلها .
(٣) الديوان : ١٠٧/٤ .
(٤) الديوان : ٤١/٤ ، ٤٤ .

وإذا تركنا الفخر وانتقلنا إلى المديح وجدنا ملامح شخصية المتنبى ـ وبخاصة بعد اتصاله بسيف الدولة ـ واضحة كل الوضوح ، فالشاعر حين حلّ فى بلاط سيف الدولة وجد فيه كل صفات العزة والشهامة فأعجب به ، وأخذ يتخذ من أمجاده مثلا أعلى له ، وراح يقول فى مدحه القصائد الطوال ، لدرجة تجعلنا نقول إن للمتنبى فى سيف الدولة ديوانا خاصا من الشعر لا يعد من أجمل ما قال المتنبى فحسب ، بل إنه ليعد من أجمل الشعر العربى كله وأروعه وأحقه بالبقاء .

ونحن نلاحظ فى أشعار المتنبى التى مدح فيها سيف الدولة أنه يتجه فيها إلى الفخر بنفسه والتغنى بشاعريته .

يقول مبالغا فى الاعتزاز بشعره (١) :

أنا الذى نظر الأعمى إلى أدبى ∴ وأسمعت كلماتى من به صمم
أنام ملء جفونى عن شواردها ∴ ويسهر الخلق جراها ويختصم
وجاهل مدّه فى جهله ضحكى ∴ حتى أتته يدٌ فراسةٌ وفمُ
ومُرْهفٍ سرتُ بين الجحفلين به ∴ حتى ضربتُ وموج الموت يلتطِمُ
فالخيل والليل والبيداء تعرفنى ∴ والضرب والطعن والقرطاس والقلم

فهو يريد أن يقول إن شعره سار فى كل الأنحاء واشتهر حتى تحقق عند الأعمى والأصم فرآه الأول وهو لا يبصر ، وسمع كلماته الثانى وهو لا يسمع ، والشاعر ينام متمكنا وهو ساكن الفؤاد لايحفل بنوادر ما نظم ، ويسهر الخلق يختصمون فى تحفظ ذلك وتفهمه .

ثم يقول إنه يغضى عن الجاهل حتى يغضب عليه فيهلكه ، وهو يسير بسيفه الرقيق الحد بين الجيشين العظيمين فيقاتل به فى شجاعة والموت غالب تلتطم أمواجه حتى أصبح ـ لفرط شجاعته وجلادته ـ معروفا عند الخيل والليل والبيداء والضرب والطعن والقرطاس والقلم .

---

(١) الديوان : ٣/٣٦٧ ، ٣٦٩ .

ونحن نلاحظ أن الشاعر بدأ أبياته بكلمة " أنا " ويظل إحساسه بذاته مسيطرا لا على الأبيات التى ذكرناها فقط بل على كل أبيات القصيدة ، فليس فى القصيدة من بيت إلا وفيه ضمير المتكلم ، وأنت ترى الصور فى القصيدة تتحرك فى إطار المتنبى الشاعر والفارس .

وفى الرثاء نرى المتنبى يخلط الفخر بنفسه بالرثاء ،يقول فى مرثيته لجدته(١):

ولـو لـم تكونـى بنـت أكـرم والـد .·. لكان أباك الضخم كونك لى أما

يقولون لى : ما أنت ؟ فى كل بلدة .·. وما تبتغى؟ ما أبتغى جل أن يسمى

وإنـى لمـن قـوم كـأن نفوسنـا .·. بهـا أنَـفٌ أن تسكن اللحم والعظما

كـذا أنـا يـا دنيـا إذا شئت فاذهبـى .·. ويـا نفـسُ زيدى فـى كَرَائهـا قُدْمَـا

وهو يفصح عن نفسه فى مرثيته لوالدة سيف الدولة ، تلك النفس التى تتسم بالتجلد واحتمال ما لا يطاق من المصائب والشدائد ، يقول (٢):

رمانـى الدهـر بـالأرزاء حتـى .·. فـؤادى فـى غشـاء مـن نبـال

فصـرت إذا أصابتنـى سهـام .·. تكسّـرت النصـال علـى النصـال

وهـان فمـا أبالـى بـالرزايـا .·. لأنـى مـا انتفعـت بـأن أبالـى

وفى الوصف نرى المتنبى كذلك يفصح عن شخصيته التى تخاصم الضعف والتخاذل والتى لا تعرف إلا القوة ولا تعشق إلا العظمة .. إنه فى كل صورة يدور حول معانى القوة والأقوياء والعظمة والعظماء ، استمع إليه وهو يصف بحيرة طبرية (٣) :

---

(١) الديوان : ١٠٧/٤ ، ١٠٩ .
(٢) الديوان : ٩/٣ ، ١٠ .
(٣) الديوان : ٦٦/٤ ، ٦٧

والمـوج مثـل الفحـول مزبـدة ∴ تهـدر فيهـا ومـا بهـا قطـم
والطيـر فـوق الحَبـاب تحسبُهـا ∴ فُرسـان بلـقٍ تخونهـا اللُّجُـمُ
كأنهـا والريـاح تضـربهـا ∴ جيشـا وَغـى : هـازمٌ ومنهـزمُ

فتقدير المتنبى للقوة جعله يصف موج البحيرة بأنه يهدر ويزبد ، كما جعله يشبه الطير وهى ترفرف على صفحة الماء بفرسان مضطربة على ظهور الخيل ، وشبه الموج فى اختلاقه ببلق الخيل ، وشبه كذلك الطير وهى يتبع بعضها بعضا على وجه الماء بجيشين عظيمين أحدهما هازم والآخر مهزوم .

وفى النسيب نراه يستعمل الألفاظ فى أوصاف الشدة ، انظر إليه يقول(١) :

قـد صَبَغَـتْ خدَّهـا الدمـاءُ كمـا ∴ يَصْبـغُ خـدَّ الخريـدة الخَجَـلُ

ويقول فى مستهل قصيدة وجهها إلى سيف الدولة حين سار إلى الموصل لنصرة أخيه (٢):

أعلى الممالك ما يبنى على الأسَلِ ∴ والطعـن عنـد محبيهـن كالقُبَـلِ

وفى أبياته الغرامية نسمع صليل السيوف ، كما نرى الرماح وسيلان الدماء وانطلاق الخيل ، وغير هذا وذاك مما هو انعكاس لمعانى القوة ، يقول (٣):

كـم قتيـلٍ ، كما قُتِلْـتُ ، شهيـدِ ∴ بيـاض الطُّلَـى وورد الخـدود
وعيـون المهـا ، ولا كعيـون ∴ فتكـتْ بالمتيَّـم المعمـود
عَمْـرك اللـه هـل رأيت بـدوراً ∴ طلعـتْ فـى براقـع وعُقُـود
راميـاتٍ بأسهـم ريشُهـا الهُـدْ ∴ بُ تشُـق القلـوب قبـل الجلـود
كـل شـئ مـن الدمـاء حـرامٌ ∴ شربُـهُ مـا خـلا دَمَ العُنقـود

(١) الديوان : ٢١٤/٣ .
(٢) الديوان : ٣٤/٣ .
(٣) الديوان : ٣١٣/١ ، ٣١٤ ، ٣١٨ .

وفى أبيات الحكمة تتجلى ملامح شخصية المتنبى التى تقدر القوة وتغرم بها . استمع إليه يقول (١) :

من الحلم أن تستعمل الجهل دونه	إذا اتسعت فى الحلم طُرْقُ المظالم
وأن ترد الماء الذى سطره دمٌ	فتسقى إذا لم يسق من لم يزاحم
ومن عرف الأيام معرفتى بها	وبالناس روّى رمحه غير راحم
فليس بمرحوم إذا ظفروا به	ولا فى الردى الجارى عليهم بآثم

وهكذا لو تصفحنا كل الأغراض الشعرية التى طرقها المتنبى فإننا سنجد أن من الظواهر البارزة أن الشاعر يكشف فى شعره عن شخصيته ، وأنه يلون هذه الأغراض كلها بألوان ذاتية فريدة . ولعلنا لا نكون مغالين إذا قلنا إن ما حققه المتنبى من مجد وما أحرزه من رقى فى عالم الشعر ، وما تحقق له من تجديد فى شكل القصيدة أو مضمونها إنما ينهض على حقيقة هامة وهى أن شعره لا ينتمى إلى التقليد السائد، ولكنه يمثل رؤيته الذاتية ، وهو حوار مستمر بين مأساته وطموحه ، ذلك الطموح الذى لا يعرف غاية .

وليس فى ذلك غرابة ، فالظروف التى عاشها المتنبى كانت بعضا من مأساته ، ولم تكن فى الغالب الأعم ظروفا شخصية خالصة تتصل بنشأته وحياته ، ولكنها ظروف تتصل بالعصر الذى ظهر فيه ، فالعصر عصر تناقضات شديدة (٢) ، ومن شأن شاعر كالمتنبى أن يحس بالغربة فى مثل هذه الظروف وفى كل تلك الأحوال ، وأن يعود صديقا للقلق ، وتصبح قصائده الشعرية رؤية ذاتية يجسد فيها الشاعر موقفه ورؤيته .. يضاف إلى ذلك أن شعر المتنبى كان صورة لثقافته ، تلك الثقافة العالية الواسعة الممتدة ، كما أن صلته ببعض الأفكار الدينية والفلسفية صلة قوية ، وإشاراته فيها لا تخفى على العالم المدقق .

وبعد فهذه بعض ملامح من فنية شاعر العربية المتنبى ، وهى زاوية ما تزال بحاجة إلى أبحاث أخرى أكثر شمولا وعمقا .

---

(١) الديوان : ١١٢/٤ .

(٢) انظر مع المتنبى للدكتور طه حسين .

الفصل التاسع
المتنبي بين شعراء الصنعة

(١) بين المتنبى وشعراء الصنعة بعامة

ليس من شك فى أن المتنبى قد لقى فى البلاد التى أقام فيها أو ارتحل إليها بيئات فيها غذاء لعقله ، وإرهاف لحسه ، وتقوية لشعوره ، وإذن فمن الحق على المتنبى نفسه أن يعنى بفنه أشد العناية وأدقها ، وأن ينتفع بكل ما حوله لتصبح هذه العناية خصبة منتجة حقا . وقد فعل المتنبى من غير شك ، فتأثر عقله وشعوره وذوقه بكل ما حوله ، وبكل بيئة من البيئات الجديدة التى انتقل إليها ، وأخذت تظهر آثار ذلك كله فى شعره الذى قاله فى كل طور من أطوار حياته .

والحق أن شعر المتنبى قد نضج بمرور الأيام ، وأنت تستطيع أن تقرأ شعره كله فستجد فى قراءته شيئا كثيرا يلائم ما كان فى نفس الشاعر حين كان ينشئه وينشده. وما أرى إلا أن المتنبى شاعر قوى الحس ، دقيق الشعور ، عنيف الطبع ، حاد المزاج ، وأن شعره يعرب عن نفسه ، ويعلن إلى قارئه أو سامعه ما فيه من جمال وروعة ، وما فيه من قوة وحزم ، كما أنه يعلن إلى قارئه أو سامعه أن عقل صاحبه قد نضج وبلغ أشده ، وأصبح قادرا لا على التفكير المستقيم فحسب ، بل كذلك على استخراج المعانى الدقيقة وتصويرها فى أبرع اللفظ وأرقاه .

وكان المتنبى كما رأينا من قراءة ديوانه قد عرف حسد الحساد ، وكيد الكائدين، وقد مضى كل هؤلاء فى النعى عليه ، وألحوا فى التشهير به ، فدفعوه بذلك إلى الثورة دفعا ، وعرضوه لأشد الأخطار ، فأخذ فى معظم قصائده يعرض بخصومه ، ويصف نفسه الطامحة وأمله البعيد ، وجده فى تحقيق هذا الأمل ، كما يصف ثقته الشديدة بنفسه ، وتشوقه إلى عظائم الأمور وجلائل الأعمال .

ولست أشك فى أن المتنبى شاعر قد استوثق من صناعته ، وأنه قد استطاع أن يذل الألفاظ وإن عجز عن أن يستذل المعانى ، وقد ظهر فى شعره تكلف لا نجده حتى عند أشد الشعراء تكلفا .. وهو مع ذلك لم يضف إلى الشعر شيئا لم يسبقه إليه غيره من الشعراء الذين تقدموه ، لا من حيث الألفاظ والمعانى والأساليب ، ولا

من حيث الأوزان والقوافى والموسيقى ، إنما هو شاعر مقلد ، يسير على طريقة المتقدمين بصفة عامة ، وعلى طريقة أبى تمام منهم بصفة خاصة .

والمتنبى مثقف ثقافة واسعة ، ونحن نراه فى شعره يمثل هذه الثقافة (١) ، بل لعله أهم شاعر استعان بوسائل من التكلف للثقافة ، وأخذ يغرب بها على سامعيه كى يلفت أنظارهم وينال من ثم إعجابهم .

ومن غير المعقول أن نساوى بين المتنبى وبين غيره من شعراء الصنعة من خلال معرفة الخصائص الفنية لكل شاعر على حده ، والإحاطة بما بينهما من اتفاق أو اختلاف ، ومعرفة القيمة الفنية لكل من هذه الخصائص وتلك الفروق. بل إنه لا سبيل إلى الموازنة بين أى شاعر متكلف وبين غيره ، فبعض الشعراء يتفوق على غيره تفوقا غير محدود فى المعانى والأساليب وديباجة اللغة ، وبعضهم يكون فى شعره قوى الطبع غير متكلف فيسدل بذلك ستارا من النسيان على من ينظم شعره كوسيلة للتكسب والارتزاق ؛ لأن التكلف عند الأخير لم يكن طبعا متأصلا فيه ، ولكنه كان أمرا مصطنعا ؛ ولهذا استحوذ الشاعران أبو الطيب المتنبى وأبو فراس الحمدانى على إعجاب متذوقى الأدب فى عصرهما وما تلاهما من عصور ، وعد شعر كل منهما مصدرا مهما فى التاريخ السياسى والحربى ، الأول لما له من موهبة شعرية فاقت غيره من الشعراء ، والثانى لما اشتهر به من فروسية وشجاعة قتالية .

* * *

وكان الشعراء الجاهليون يتكلفون فى شعرهم فنونا من التكلف وكأنهم يصنعونه صناعة (٢) ، وشعر الصنعة عندهم يتجه فى حقيقته غالبا إلى فن التصوير ؛ لأن هذا الشعر - وكما وصلتنا نماذجه - كان يعتمد على هذا الفن اعتمادا كليا ، وهو فى أقدم نماذجه يغلب عليه الخيال والتصوير ، وكان الشعراء يعتمدون

---

(١) انظر تصنع المتنبى للثقافات المختلفة (الفن ومذاهبه فى الشعر العربى للدكتور شوقى ضيف) .
(٢) انظر صناعة الشعر الجاهلى (الفن ومذاهبه فى الشعر العربى للدكتور شوقى ضيف) .

على التصوير ويتخذونه مجالا لإبراز مقدرتم التى بها يتفاضلون ، وأخذ كل شاعر من جهته يحاول ما استطاع أن يوفر فى شعره كثيرا من القيم التصويرية ، واتجه كل واحد منهم إلى أن يعقد فى هذا الجانب الفنى بما أودع فيه من ضروب مهارة وصنعة .

فالشاعر امرؤ القيس لا يعتمد فى نظمه للشعر على شئ قدر اعتماده على فن التصوير وعلى تراكم التشبيهات وتتابعها . يقول فى معلقته يصف فرسه [١] :

وقـد أغتـدى والطـير فـى وكناتهـا ∴ بمنجـرد قيـد الأوابـد هيكـل
مكـر مفـر مقبـل مدبـر معـا ∴ كجلمود صخر حطه السيل من عـل
كميـت يـزل اللبـد عـن حـال متنـه ∴ كمـا زلـت الصفـواء بالمتنـزل
على الذبـل جيـاش ، كـأن اهتزامـه ∴ إذا جـاش فيـه حميـه غلى مرْجَـل
مسَـحٌ إذا مـا السابحـات على الونى ∴ أثـرن الغبـار بالكـديـد المركّـل
يـزل الغـلام الخـف عـن صهواتـه ∴ ويلـوى بـأثـواب العنيـف المثقـل
دريـر كخـذروف الوليـد أمـرَّه ∴ تتـابُـع كفَّيـه بخيـط مـوصـل
لـه أيطـلا ظـبى وسـاقـا نعامـة ∴ وإرخـاء سرحـان ، وتقريـب تتفـل
كـأن عـلى المتنيـن منـه إذا انتحـى ∴ مَـدَاكَ عـروس أو صَـراية حنظـل
كـأن دمـاء الهـاديـات بنحـره ∴ عصـارةُ حِنَّـاءٍ بشَيْـب مُرَجَّـلِ

على أننا لا نصل إلى نهاية العصر الجاهلى حتى نجد الشعراء ينحون بهذا الجانب الفنى منحى جديدا بما يودعون فيه من ضروب المهارة والصناعة ،وقد تمثل هذا خير تمثيل عند الشاعر زهير بن أبى سلمى ، فإذا تذكرنا عمله فى قصائده ، وأنه يبقيها عنده سنة كاملة يستبدل كلمة بأخرى أو تركيبا بآخر ظهر لنا أن التصوير فى شعره لم يحصل له بسهولة ، وإنما هو ناتج عن مذهبه الفنى المشهور .

---

(١) شرح المعلقات العشر وأخبار شعرائها ، جمع وتصحيح الشيخ أحمد الشنقيطى ص ٨٧ - ٨٩ . دار القلم بيروت .

فزهير صاحب الحوليات هو خير من يمثل مذهب الصنعة ويفسره فى الشعر الجاهلى ، فإلى جانب أنه شاعر موهوب نجده يأخذ شعره بالتنقيح والصقل ، والفحص والامتحان ، وطول التفتيش ، وكان يعيد فيه النظر بعد النظر ، ويجمع له كل ما يمكن من وسائل التجويد ؛ ولذلك قيل عنه : " لعل الشعر الجاهلى لم يعرف شاعرا عنى بتحقيقه عناية زهير (١) .

وقال عكرمة بن جرير : قلت لأبى : من أشعر الناس؟ قال : أجاهلية أم إسلام ؟ قلت : جاهلية ، قال : زهير " (٢) .

فزهير شاعر مصور من الطراز الممتاز ، وكان يحسن أدوات صناعته من جميع وجوهها ، وليس هناك شك فى ذلك فقد كان ينظم القصيدة فى شهر ، وينقحها ويهذبها فى سنة ، ثم يعرضها على خواصه ، ثم يذيعها بعد ذلك (٣) .

ولعل أهم جوانب التصنيع التى يستخدمها زهير هو جانب التصوير ، فقد كان شغوفا به ، وكأنه غاية فى نفسه ، أو أصل مهم من أصول صناعته ، وقد استطاع زهير – وهو صاحب مدرسة فى ذلك – أن يستخدمه استخداما واسعا فى شعره ، ولهذا فضله كثير ممن لهم معرفة بنقد الشعر على امرئ القيس والنابغة وأضرابهما(٤)، وعدّه النقاد باعتبار الإجادة من رجال الطبقة الأولى (٥) .

وهذا اللون من التصوير الذى اختاره زهير لا يعتمد على تراكم التشبيهات

---

(١) تاريخ الأدب العربى للدكتور شوقى ضيف (العصر الجاهلى) :٣٠٦ دار المعارف الطبعة السابعة .
(٢) الشعر والشعراء لابن قتيبة تحقيق أحمد شاكر : ١ / ١٣٨ طبعة دار المعارف .
(٣) شرح المعلقات العشر وأخبار شعرائها ، جمع وتصحيح الشيخ أحمد الشنقيطى ص ٢٨ .
(٤) أشعار الشعراء الستة الجاهليين للشنتمرى : ١ / ٢٧١ دار الآفاق الجديدة بيروت ، الطبعة الأولى ١٩٧٩ م .
(٥) تاريخ الأدب العربى ، أحمد حسن الزيات ص ٤٦ .

والصور ، ولكنه لون معقد يعقده زهير بطريقته .وقد يقول قائل : هل هذا نتيجة لاستخدامه لألوان من الثقافة ؟

وللإجابة عن ذلك نقول إن زهيرا لم يستخدم مثل هذا اللون ، ولم يكن ليستطيع أن يستخدمه ، وجملة القول أنه انحاز إلى التشبيه والصور ،وذهب يوشى بهما أبياته ،ويطرز بهما قصائده ، وقد أظهر فى ذلك براعة لم تتح لشاعر جاهلى قبله ، هذا إلى جانب أنه يطرف قارئه بالصور النادرة المليئة بالنضرة والبهجة ، كما هو الحال فى معلقته التى مدح فيها هرم بن سنان و الحارث بن عوف وحذر فيها من الحرب (١) .

هذه صورة مختصرة عن شعر الصنعة فى الشعر الجاهلى ، وهى تبرز عناية الشاعر الجاهلى - مع اختلاف كل شاعر فى طريقته عن الآخر - بالتصوير عناية شديدة وكأنه أصل مهم من أصول صناعته ،وهذا جانب يكشف لنا عن حقيقة الشاعر وحقيقة صناعته وما يتخذه فيها من طرق فنية فى الألفاظ و التعبير والتصوير .

والحقيقة إننا لنذهل إزاء هذه الروعة التصويرية التى جعلت الشاعر الجاهلى لا يقف بصوره عند حد ،ولكنه يتعدى ذلك إلى كل شئ يلتقطه خياله ، وكان زهير بصفة خاصة يطلب فى بعض صوره أن يقع على الغرائب والطرائف ، ومن ينظر أبياته فى وصف الحرب (٢) يجد أن الشاعر يجنح فيها إلى الإغراب ، وكأنه وهو ينظم هذا الشعر لم يكد يلم بالمعنى حتى يخرجه فى صورة خيالية نادرة .

وهنا نقطة لابد وأن نشير إليها وهى أن ولع الشاعر الجاهلى ـ وبصفة خاصة زهير بن أبى سلمى ـ بالإغراب فى التصوير لم يدفع به إلى الافتتان بالألفاظ الغريبة

---

(١) انظرها فى ديوان زهير ص ٧٣ وما بعدها دار بيروت للطباعة والنشر ١٣٩٩ هـ ١٩٧٩ م .
(٢) الديوان ص ٨١ - ٨٣ .

والتعابير الملتوية كما هو الحال عند كثير من شعراء الصنعة ـ ومنهم المتنبى ـ الذين تحس من قراءتك لبعض أشعارهم أنهم لم يكن لهم وجهة إلا أن يعبروا بالألفاظ الغريبة والأساليب المعقدة .

* * *

وفى العصر الإسلامى يتحول شعر الصنعة تحولا جديدا ، إذ أخذت مظاهر الصنعة والتكلف فى النمو ، وظل الشعراء المخضرمون ينظمون أشعارهم على الصورة الجاهلية ، وفى العصر الأموى لم يكن التطور الذى حدث فى مجال الشعر ليؤثر فى قليل أو كثير فى مذهب الصنعة ، ولكن هذا المذهب قد أخذ ينمو شيئا فشيئا ، وأقبل صناع الشعر يبالغون فى الاهتمام بحرفتهم ، ويوفرون لها كل ما يمكن من تجويد وتحبير(١) .

ويمكننا أن نقول إن الشعراء الصناع قد أضافوا بعض التعقيد إلى حرفتهم كما هو الحال عند كثير وأضرابه .

* * *

ولا نكاد نصل إلى العصر العباسى حتى وجدنا صناعة الشعر العربى تتطور تطورا شديدا ، وتأخذ تحقق لنفسها تقدما لم يحدث لا فى العصر الجاهلى ولا فى العصر الإسلامى . وما من شك أنه قد برزت على السطح عوامل جديدة وتأثيرات واسعة ، بعضها سياسى وبعضها اجتماعى وبعضها الآخر ثقافى ، وأخذت هذه العوامل تؤثر بدورها فى الشعراء ، فقد غلب الفرس على الدولة (٢) ، وأصبحوا هم أصحاب النفوذ فى البلاط العباسى ، وأخذ الشعراء يتأثرون بالتالى بحضارة الفرس المادية ، وأخذ المتكلمون كذلك يؤثرون فى الشعر والشعراء بما يأتون به من معان خاصة .

---

(١) الفن ومذاهبه فى الشعر العربى للدكتور شوقى ضيف ص ٣٥ .
(٢) انظر ظهر الإسلام لأحمد أمين الجزء الأول .

كما كان من بين الشعراء من تثقف ثقافة واسعة فانطلق يعبر بالشعر عما أصاب من ألوان الثقافة ، ولا نبالغ إذا قلنا إن من بين هؤلاء الشعراء من كان يحسن من اللغة والتفلسف والتصوف وغير ذلك من ألوان الثقافة ما يحسنه من الشعر .

ومن شعراء الصنعة البحترى ، وقد نشأ فى أوائل القرن الثالث للهجرة ، وعاش حتى أدرك أواخره ، وقد شهد عهدا من عهود التطور والانقلاب فى الدولة العربية ، فكان شعره - كم هو حال شعر المتنبى - مرآة صادقة لذلك العهد .

والبحترى شاعر مجدد ، وشعره فى الحقيقة يختلف كثيرا عن شعر من تقدمه من الشعراء ، بل ومن أتى بعده كذلك ، وقد علا كعبه وسما قدره فى الشعر ، وكان مصورا بارعا ، إلا أنه فى بديع نظمه ورقيق لفظه يحمل قيثار الموسيقى الشجية الأنغام ، وقد ظل هو وأبو تمام والمتنبى الشغل الشاغل لنقاد العرب القدماء والمحدثين ، وصار شعرهم بحق مادة واسعة لنقاد الشعر ، وصيارفة الكلام أجيالا متعاقبة ، وليس يخفى أن بروز هؤلاء الشعراء ، وتفوقهم ، وارتفاع نجم كل منهم ، جعل الكلام عن كل واحد منهم حديث كل متحدث عن الشعر والشعراء .(١)

وقد وصف ابن الأثير البحترى فقال :

" وأما البحترى فإنه أحسن فى سبك اللفظ على المعنى ،ولقد حاز طرفى الرقة والجزالة على الإطلاق ، فبينا يكون فى شظف نجد ، إذ يتشبث بريف العراق - وسئل المتنبى عنه وعن أبى تمام وعن نفسه فقال : أنا وأبو تمام حكيمان والشاعر البحترى . ولعمرى إنه أنصف فى حكمه ، وأعرب بقوله هذا عن متانة علمه ، فإن البحترى أتى فى شعره بالمعنى المقدود من الصخرة الصماء ، فى اللفظ المصوغ من سلافة الماء ، فأدرك بذلك بعد المرام ، مع قربه إلى الإفهام ، وما أقول إلا أنه أتى فى

---

(١) انظر : عبقرية البحترى ، تأليف عبد العزيز سيد الأهل . دار العلم للملايين ، بيروت ، الطبعة الأولى ١٩٥٣ م .

معانيه بالنوادر الغالية ، ورقى فى ديباجة لفظه إلى الدرجة العالية " (١) .

والحقيقة أننا حينما نتحدث عن كل من المتنبى والبحترى ، وأدوات كل منهما فى التصنيع ، فإن معيارنا فى ذلك إنما ينحصر فى شعر كل منهما وطبيعة حياته وثقافته .

والواقع أن البحترى من شعراء الصنعة ، وقد استخدم بعض أدوات التصنيع دون أن يغرب فيها ، وهو بذلك لم يقف مع المتنبى فى صف واحد ، وهذا يرجع إلى أنه لم يتثقف بالثقافات التى كانت فى عصره (٢) ،ولم يعتمد فى شعره على هذه الثقافات كماكان الحال عند أبى تمام والمتنبى مثلا .

فالبحترى لم يكن مسرفا كل الإسراف فى رعاية الإغراب والصنعة ، بل عمد إلى طرح الإغراب جملة ، ولذلك لم يحاول اصطناع لغة أخرى كتلك التى حاولها المتنبى ، لتسمو إلى مستوى نفسه الثائرة ، وتستطيع تصوير ما فيها من آثار القوة الوجدانية ، وتستطيع كذلك تصوير آلامه وأسباب تبرمه بالحياة ومن عليها .

---

(١) عن : الكلام فى شعر البحترى وأبى تمام ، تأليف محمد طاهر الجبلاوى ص ٦٩ ، ٧٠ . طبع ونشر دار الفكر العربى .

(٢) انظر الفن ومذاهبه فى الشعر العربى ، للدكتور شوقى ضيف ص ١٨٨ وما بعدها .

(٢) بين المتنبى وأبى تمام

وقبل أن أنهى هذا الفصل أحب أن أفرد طرفا من الحديث لألمع شاعرين يتسم شعرهما بالإغراب ، وهما أبو الطيب المتنبى وأبو تمام ، ودافعى إلى هذا هو تلك العناية الكبرى التى حظى بها الشاعران من جمهور الدارسين والنقاد من جهة ، وإنصاف الحقيقة التاريخية والأدبية بصدد كل من المتنبى وأبى تمام من جهة أخرى ، حتى نرد لكل ذى حق حقه .

وحينما نتحدث عن كل من المتنبى وأبى تمام فإن معيارنا - وكما سبق القول - هو شعر كل منهما ، وثقافته ، والمؤثرات النفسية والاجتماعية التى أحاطت بهما .

فأما أبو تمام فهو صاحب صناعة شعرية لا حدود لها ، ومن المؤكد أن لديه دستورا قويما لإحسان صناعة الشعر، وإنه ليدهشنا كثيرا بتعهده لشاعرية البحترى ، وتعليمه إياه كيف يجيد الشعر ويحسنه ، حتى خرج شاعرا ممتازا .

وقد اعترف البحترى بأستاذية أبى تمام له فقال :

" كنت فى حداثتى أروم الشعر ، وكنت أرجع إلى طبع ،ولم أكن أقف على تسهيل مأخذه ... حتى قصدت أبا تمام ، فانقطعت فيه إليه ، واتكلت فى تعريفه عليه " (١) .

وليس من شك فى أنه كان للثقافات المختلفة - وبخاصة الثقافة اليونانية - أثر بعيد فى شعر أبى تمام ، بما فتحت أمامه من أبواب الفكر الفلسفى ، وأبواب المنطق ومقاييسه وأدلته ، وما بعثت فيه من محاولات جادة لاستكشاف دفائن المعانى

---

(١) زهر الآداب للحصرى : ١ / ١٠١ عن تاريخ الأدب العربى ، للدكتور شوقى ضيف (العصر العباسى الثانى) دار المعارف بمصر ، الطبعة الثانية ١٩٧٥م .

واستخراج دقائقها

يقول الدكتور شوقى ضيف :

" وشعر أبى تمام زاخر بما يدل على أنه انقضّ على معارف عصره انقضاضا حتى تمثلها تمثلا دقيقا ، وخاصة التاريخ وعلم الكلام وما يتصل به من الفلسفة والمنطق " (١) .

ومعنى ذلك أن أبا تمام قد تعمق فى مذاهب المتكلمين ، كما تعمق فى الفلسفة والمنطق تعمقا جعله يشيع الغموض فى كثير من أبياته الشعرية ،ويكثر من استخدام الأدلة المنطقية ، وكأنه فيلسوف يخضع فلسفته للشعر ، أو شاعر يخضع شعره للفلسفة والفكر الدقيق .

وهذا هو حال شاعر العربية أبى الطيب المتنبى ، فهو يستند إلى ثقافة واسعة بالفلسفة والمنطق ، ومع ذلك فنحن نرى أن درجة التعقيد والإغراب تختلف عند المتنبى عنها عند أبى تمام ، وذلك تبعا لما يكتنف حياة كل منهما من ظروف سياسية واجتماعية ، ومن تطورات مذهبية وثقافية ، فكل هذه العوامل تؤثر فى نفسية الأدباء من جهة وتؤثر فى الأدب فتوجهه إلى وجهات قد تكون مختلفة فى مظاهرها من جهة أخرى ، لذا فمن غير المعقول أن نقيس المتنبى بأبى تمام قياسا يستهدف بيان الفاضل والمفضول ؛ لأننا إن فعلنا ذلك نكون قد أغفلنا كل تلك الظروف والمؤثرات .

وعلى ذلك فإن كل ما يجب أن نقتنع به فى أمثال هذه الموازنات أن نقف على مدى التطور الذى طرأ فى أدب كل منهما ، وأن نستظهر آثار العوامل المختلفة فى إنتاجهما وضوحا أو إغرابا ،ومعنى ذلك أننا نخوض موازنة تستهدف الكشف والتفسير لا الحكم والتقويم .

---

(١) تاريخ الأدب العربى (العصر العباسى الأول) ص ٢٧٦ . دار المعارف بمصر ، الطبعة السادسة ١٩٧٦ م .

يقول الدكتور محمد عبد الرحمن شعيب فى كتابه المتنبى بين ناقديه فى القديم والحديث :

" وإذا كان هذا رأى جماعة من النقاد فى المتنبى فإن منهم من كان على النقيض من ذلك تماما . ولا يرى المتنبى إلا رائد الطليعة الأولى لشعراء التدهور والانحطاط الذين تسلموا أمانة الفن نضرة من يدى أبى تمام فما استطاعوا أن يحافظوا عليها . ولكنها جفت فى أيديهم وأصابها الضمور والذبول ثم الموت والفناء . وليس معنى ذلك أن الشعراء هجروا وسائل التصنيع التى رأيناها فى القرن الثالث والتى تعتبر نوعا من الرومانتيك فى الشعر العربى ، وإنما معناه أن الشعراء لم يعودوا يحسنون استخدامها كما كان الشأن عند أبى تمام وابن المعتز ، هم يستخدمونها ولكنه استخدام معقد تعقيد هذه الحضارة التى عاشوا فيها . وهو تعقيد لا يضيف جمالا إلى ألوان كهذا الجمال الذى رأيناه عند أبى تمام ، وإنما هو تعقيد يأتى لذاته فلا يضيف طرافة للون ، بل قد يزيل منه بعض أصباغه ويحيله لونا باهتا لا دفء فيه ولا حرارة " (١) .

ومهما كان الأمر فإن أبا تمام يعد أهم شاعر يأخذ نفسه بثقافة واسعة ، وكان يضيف إلى هذه الثقافة الواسعة ثقافة فنية لا تقل عنها شأنا ، ولذلك انتهى عنده مذهب التصنيع إلى غايته ، فأنت إن قرأت شعره فإنه يروعك ما أودعه فيه من إغراب إن فى الألفاظ أو فى المعانى .

يقول الدكتور شوقى ضيف فى كتابه الفن ومذاهبه فى الشعر العربى(٢) :

"والحق أن من يقرأ فى شعر أبى تمام يحس إحساسا واضحا بأنه كان يشقى فى بنائه واستنباط معانيه كما يشقى صيادو اللؤلؤ فهو يتنفس فيه الدم ، وكان يشعر بذلك فى دقة ، فأكثر من وصف أشعاره بالإغراب والغرابة على شاكلة قوله :

خُذها مغرَّبةً فى الأرض آنسة .·. بكل فهم غريب حين تغتربُ

---

(١) ص ٣٧٠ .

(٢) ص ٢٢٦ ، ٢٢٧ .

وقوله :

يغـدون مغتربـات فـى الـبلاد فمـا .'. ينزلـن يؤنسـن فـى الآفـاق مغتربـا

فهو يطلب الإغراب فى فنه ، حتى يسبغ على شعره كل ما يمكن من آيات الفتنة والروعة ، وقد عاش لصناعته ينميها ويخلع عليها كل ما يمكن من وسائل الزخرف والتصنيع ، وما زال بها حتى جعلها تنسيقا وزينة خالصة ، فهى حلى أنيق ووشى مرصع كثير ، وصور ذلك فى بعض شعره فقال :

خُذهـا مثقفـة القوافـى ، ربهـا .'. لسوابـغ النعمـاء غيـر كنـود

حـذّاء تمـلأ كـل أذن حكمـة .'. وبلاغـة وتُـدرُّ كـل وريـد

كالـدر والمرجـان ألـف نظمـه .'. بالشـذر فـى عنـق الفتـاة الـرود

كشقيقـة البـرد المنمنـم وشيـه .'. فـى أرض مهـرة أو بـلاد تزيـد

فأشعاره كالقلائد يصوغها الصائغ الحاذق ، ففى كل شق منها در ومرجان وشذور من الذهب ، بل هى كبرود أرض مهرة وتزيد ، التى نمنمها الوشى ونمقها النقش".

على أننا نقرر أن شعر أبى تمام يستحوذ على صعوبات كثيرة ، فقد استطاع أن يستوعب الفلسفة والثقافة وأن يحولهما إلى فن وشعر ، ولذلك نرى شعره ، يمتلئ بكثير من الأسرار الغامضة ، ونرى معانيه وكأنها وضعت فى رموز ، فليست المسألة عند أبى تمام إذن مسألة غرابة فى الألفاظ ، أو التواء فى الأسلوب ، أو غرابة فى التعبير والتصوير كما هو الحال عند المتنبى ، وأكبر الظن أن ما ورد فى شعر أبى تمام من صعوبة والتواء إنما مرده إلى أن الشاعر كان يعتمد فى شعره على الفلسفة والفكر ، وكان يستخدم الثقافة والفلسفة فى شعره استخداما فنيا واسعا ، يحاول بهما أن يحدث لنفسه أسلوبا متموجا بالفكر زاهيا بالعقل شديد الحركة والحياة (١).

---

(١) الفن ومذاهبه فى الشعر العربى دكتور شوقى ضيف ص ٢٤٤ .

يقول الدكتور مصطفى الشكعة فى كتابه " الشعر والشعراء فى العصر العباسى(١) " عن صنعة أبى تمام :" لقد أحدث أبو تمام ما يمكن أن نسميه ثورة فى معانى الشعر وأخرى فى صياغته مستعينا فى ذلك بكل ألوان البيانوالبديع " .

أما المتنبى فإنه لم يستوعب الفلسفة كما استوعبها أبو تمام ، ولم يحولها إلى فن شعرى كما حدث عند أبى تمام ، ولذلك فلم يتحول شعره إلى رموز ، ولم يمتلئ بكثير من الأسرار الغامضة كما هو الحال عند أبى تمام .

ونستطيع أن نقول إن المتنبى يتلون ويتقلب كما تتلون الحياة ، وكما تتقلب صروف الأيام ، وفضلا عن ذلك كله فهو شاعر قبل كل شئ ، يغلبه فنه وطبيعته الشاعرة المشبهة لطبيعة الشعراء المعاصرين له على ما ظهر فى صباه وشبابه من القوة ومن شدة البأس وصعوبة المراس ، والطموح إلى جلائل الأعمال .

وأظنك توافقنى على أن الآمال القوية التى ملأت نفس المتنبى وقلبه قد ردت إليه الثقة بفنه إن لم تكن ردت إليه الثقة بنفسه . فإذا لم تعد إليه الثقة بنفسه زعيما أو سيدا عظيما ، فلا أقل من أن الثقة قد عادت إليه بنفسه شاعرا بارعا يسرف فى المبالغات ، ويصطنع مذاهب الصوفية ، ويستعير ألفاظهم ومعانيهم ، بل إنه قد يضطر حيال ذلك كله إلى أن يحمل ألفاظه أعباء ثقالا .

ولست أدرى هل كان المتنبى يظن أنه سيصلح بثورته كثيرا من شئون الحياة ونظم الاجتماع ، وهل كان يظن أنه سيتخذ الثورة بعد ذلك كله وسيلة إلى الحكم والسلطان إذا لم يستطع أن يتخذها وسيلة إلى الإصلاح؟ على كل حال إنه لن يتصور الحياة إلا من خلال إعجابه بنفسه وافتخاره بها .

لنستمع إليه يقول (٢) .

---

(١) دار العلم للملايين ، بيروت ، الطبعة الثانية ١٩٧٥م ، ص ٦٧٩ .
(٢) الديوان ١/١٥ ـ ١٧ .

أنا صخرة الوادى إذا ما زُوحمتْ ∴ وإذا نطقتُ فإننى الجوزاء
وإذا خَفِيتُ على الغبى فعاذِرُ ∴ ألا ترانى مقلةٌ عمياء
شيم الليالى أن تشكِّكَ ناقتى ∴ صدرى بها أفضى أم البيداء
فتبيت تُسْئِدُ مُسْئِداً فى نِيِّها ∴ إسآدَها فى المَهْمَهِ الإنضاء
أنساعُها ممغوطةٌ وخِفافُها ∴ منكوحةٌ وطريقها عذراء
يتلوَّنُ الخِرِّيتُ من خوف التَّوى ∴ فيها كما تتلون الحرباء

فالشاعر كما ترى يفتخر بنفسه ، فهو صخرة تزحم من يزاحمها ، وهو نجم ، بل إنه الجوزاء بين الشعراء ، فإذا خفى على الغبى والجاهل لمكانه فإنه يعذرهما . وليس من شك فى أن هذا الحديث عن النفس وإن كان مقتصدا فى الألفاظ إلا أنه غير مقتصد فى المعانى ، ومثل هذا الفخر ينقل لنا صراحة امتلاء المتنبى بنفسه وإعجابه بها .

ولسنا نستطيع أن نوقت الشعر الذى قاله المتنبى فى كل طور من أطوار حياته ولكننا نستطيع أن نقول إن من الأمور الطبيعية أن يكون المتنبى قد انتفع بتجاربه التى مر بها فى حياته ، وقد واجهت المتنبى مصاعب هى فى رأيى أبلغ الأشياء تأثيرا فى نفسه الحساسة ، وأشدها إنضاجا لهذه النفس ، وهى من غير شك أخصب الأشياء التى تمر بنفس الشاعر ، لأنها تنضجها وتشد من أزرها ، وتعلمها احتمال المكروه .

وهذه المصاعب التى واجهت المتنبى ليست مصاعب معنوية فحسب ، تأتيه من الوحدة والعزلة ، ومن الخوف والحذر ، ومن الهرب والفرار ، ومما أدركه من خيبة ، وما تعرض له من خطر ، ولكنها مصاعب مادية أيضا ، ومن المعلوم أن هذا اللون الأخير من المصاعب هو أشد ما يلقى المتنبى من المصاعب سخفا وأبلغها فى نفسه أثرا .

ومهما يكن من شئ فإن المتنبى قد امتحن فى نفسه ، كما امتحن فى فنه وفى أمله . وهو وإن تكلف ما تكلفه من الاحتياط عاجز عن أن يخفى ما تركه هذا كله

فى نفسه من جهة وفى فنه من جهة أخرى ، فأخذ يستوثق من صناعته ، واستطاع أن يذل الألفاظ ، وإن عجز عن أن يستذل المعانى . ولكن الشاعر آخر الأمر لم يضف إلى الشعر لونا لم يسبقه إليه غيره من الشعراء الذين تقدموه ، لا من حيث الألفاظ والمعانى والأساليب ، ولا من حيث الأوزان والقوافى والموسيقى . وإن شئت فقل إنه فى كل طور من أطوار حياته شاعر مقلد ، ينهج نهج المتقدمين ، ونهج أبى تمام منهم بصفة خاصة ، فإذا ظهرت شخصيته من حين إلى حين فإن هذا يرتبط أشد الارتباط بالظروف والأحوال التى كان يعيش فيها .

على أن الشاعر لم يقف عند هذا الحد ، ولكنه أراد من جهة أن يبهر الفقهاء كما بهر النحاة واللغويين ، ومن جهة أخرى أراد أن يرضى فريقا آخر ليسوا من أصحاب النحو واللغة ، ولا من أهل الدين والفقه ، ولا من رجال الفلسفة والكلام ، وإنما هم من أهل البادية المحتفظين بالسنة البدوية القديمة ، فيبلغ ما يريد لا فى شئ من العذوبة والظرف ، بل يبلغه فى شئ من المشقة والجهد .. كل ذلك لأن فى نفسه ـ كما سبق أن قلنا ـ حاجة إلى التكلف والإغراب .

* * *

فإذا كانت هذه حال المتنبى من مصاعب فى الحياة ، وميل إلى كل غريب ، وولع بكل مبتكر جديد ، فالذى لاشك فيه أنه كان نابغة من نوابغ عصره ، وكانت هذه الأحوال كلها سببا فى قوته وعنفه واندفاعه ، حتى وصلت قصائده فى الإغراب مبلغا لا يكاد يجاريه فيه شاعر آخر .

ولعل أقواله فى الفخر وتعاليه على ممدوحيه كانت نوبة من جنون التعالى والكبرياء ، أو لعله لما كان ميالا إلى كل غريب ، وهو دون شك من أهل العبقرية النابغين ، فإن ذلك كله دفعه إلى أن يقول فى الفخر كما لو كان لا يقل عظمة ومكانة عن هؤلاء الذين اتخذوا من الفخر لباسا يتيهون بجلاله ، ويتزينون بجماله .

لنستمع إليه يصف نفسه بالشجاعة ، والكر والفر ، وضرب أعناق الرجال [١] :

أقــل فعـالى بـله أكـثره مجـد ∴ وذا الجـد فيـه نلـت أم لم أنـل جـد
سـأطلب حـقـى بالقنـا ومشايـخ ∴ كأنهـم مـن طـول ما التثمـوا مـرد
ثقـال إذا لاقـوا خفـاف إذا دعـوا ∴ كثيـر إذا شـدوا قليـل إذا عـدوا
وطعن كـأن الطعـن لا طعـن عنده ∴ وضـرب كـأن النـار مـن حره بـرد
إذا شئت حفـت بى على كل سابح ∴ رجـال كـأن المـوت فى فمهـا شهـد
ولا تحسبـن المجـد زقـا وقينـة ∴ فما المجد إلا السيف والفتكة البكر
وتضريـب أعنـاق الملـوك وأن تـرى ∴ لك الهبوات السود والعسكر المجر [٢]
وتركـك فـى الدنيـا دويـا كأنمـا ∴ تـداول سمـع المـرء أنملـه العشـر

هذا هو المتنبى صاحب الروح الثائرة ، الجبارة ، العنيفة ، العنيدة ، وهو شاعر اتخذ لمادته من نفسه وشجاعته وبلاغته معينا ومنبعا ، وهو وإن استوعب الفلسفة والثقافة ، لكنه لم يستطع أن يحولهما إلى فن وشعر كما كان الحال عند شاعر العربية أبى تمام .

---

(١) الديوان : ١ / ٣٧٣ . ٣٧٤ .
(٢) الهبوات : الغبار الشديد . والمجر هو الجيش العظيم الجرار .

الخاتمـة

وبعد - فقد انتهت رحلتنا مع الإغراب فى شعر أبى الطيب المتنبى كظاهرة فنية وصنعة شعرية جعلت الشاعر محورا لدراسات مختلفة الاتجاهات ، مختلفة النتائج ، كما جعلت شعره مادة صالحة للاجتهاد والخصومة بين كثير من الأدباء والنقاد القدامى والمحدثين .

والحقيقة أن هناك سؤالا تقليديا لابد وأن يتبادر إلى ذهن قارئ هذه الدراسة ، ولا محيد من الإجابة عليه وهو : ما هى المعالم البارزة فى هذا البحث ؟ وما هى أهم النتائج التى هدى إليها ؟

وليس من شك فى أن هذه المعالم وتلك النتائج كانت السبب المباشر فى اختيارنا لشعر المتنبى بصفة عامة ، ولظاهرة الإغراب فى شعره بصفة خاصة - موضوعا لهذه الدراسة ، وإن كنا لم نزعم قط أننا أحطنا بجميعها علما ، وأننا سددنا منها كل ثغرة، فليس يضير أى باحث ألا يبلغ جهده درجة الكمال ، وإنما الذى يضيره أن يكون قد قصر عن الوصول إلى غاية كان يمكنه بلوغها .

وأعترف بأن الدارس لشعر المتنبى سوف يخرج من دراسته بصورة تختلف اختلافا كبيرا عن الصورة التى كانت مرتسمة فى ذهنه وذهن كثير من الباحثين ، وما أظن هذا الدارس إلا موافقا لى على أن كثيرا من شعر المتنبى يسمو إلى قمة فى جودة الشاعرية والتصوير .

وهذه هى أهم النتائج التى هدى إليها البحث :

١- إن ظاهرة الإغراب فى شعر المتنبى تعد تتمة طبيعية للمناخ الذى عاش فيه الشاعر ، فالحياة التى شهدها العصر ، وما تهيأ لها من أسباب وظروف سمحت بظهور الإغراب فى شعر المتنبى ، بل إن شئت فقل إنها كانت عاملا قويا فى اتساع آفاقه وتعدد مناحيه . ولا شك أن طبيعة الجو الذى عاش فيه الشاعر قد سمح له بإعمال العقل وشغل التفكير ، الأمر الذى جعله يخرج عن طريق الشعر إلى الفلسفة ويستعمل فى شعره كلمات المتصوفة المعقدة ومعانيهم المغلقة .

٢- كان المتنبى يتعسف أحيانا فى شعره ، فيأتى باللفظ المعقد ، والترتيب المتعسف وبالبيت الذى اختل نظمه وفسد ترتيبه ، ويأخذ يسلم شعره إلى صعوبات فى التركيب بحيث يصعب على القارئ الوصول إلى المعنى المقصود ، وقد يستنفذ كثيرا من الجهد والفكر فى سبيل ذلك .

٣- ظاهرة الإغراب فى شعر المتنبى تمتاز بأنها وليدة مؤثرات حقيقية منها ما يتصل بطبيعة المتنبى وحياته وعصره ، ومنها ما يتصل بالظروف والملابسات التى أوجدت النص الشعرى ، وقد فرضت كل هذه الظروف على الشاعر أن يخوض فى مواقف صعبة ، وأن يسلك طرقا غير مألوفة ، وأن يتفاعل وموضوعه حتى تلتهب نفسه بلهيب الانفعال ، ومن ثم نجده يطغى على الأسلوب ، ويتكلف فى كلامه المركب الصعب ، ويأخذ يبحث عن صيغ جديدة للتعبير يعممها فى كل موضوعات شعره ، حتى خفى شعره على رواته من الأدباء والعلماء .

٤- يضاف إلى ما سبق أن المتنبى قد تثقف ثقافة عقلية واسعة ، ووقف على كل ما عرف لعصره من معارف وآراء ، وحاول أكثر من غيره أن يجارى العصر وبيئاته فى الأفكار والأساليب ، وهو ـ كشاعر مثقف ثقافة نحوية واسعة ـ نجده يغرم إغراما بالتراكيب الغريبة ، ويأخذ يفرط فى ذلك حتى عمّم جميع موضوعات شعره ، وليس هناك من دافع يدفعه إلى هذا غير رغبته فى إظهار براعته اللفظية ومهارته فى النظم ، وإلحاحه على صور تتسم بالغموض كوسيلة لإثارة الانتباه ولفت النظر .

٥- شعر المدح كان من أهم الأغراض الشعرية عند المتنبى وأشهرها إغرابا ومبالغة ، ويمكن أن نلمس ظاهرة الإغراب فى كل أغراضه الشعرية ، كل ما فى الأمر أن هذا يختلف فى درجته من غرض لآخر .

ولعل الذى جعل فن المدح أكثر الفنون الشعرية وأشدها إغرابا ومبالغة فى شعر المتنبى ، هو أن كل ما أنشده الشاعر فى هذا الفن كان تصويرا كاملا لحقيقة حاله وواقع أمره . فالمتنبى ينفرد من بين الشعراء بأنه يدعى لنفسه مشاركته لممدوحيه فى

كل ما يخلعه عليهم من ثناء ومدح ، وهذا مذهب اختاره لنفسه وتفرد به ، ولكنه على عادته فى تمكنه وعظمته ، وتحكمه فى مقاليد الشعر أخرج لنا البديع الرائع ، والخيال الخصب ، والصور الممتعة ، وهذا إن دل على شئ فإنما يدل على أن شاعرنا كان مدركا لفنه الشعرى ، وكان مقدرا له كل التقدير .

٦- المتنبى شاعر اطلع على الثقافات اليونانية المترجمة إلى العربية ، وألم على الأقل ببعض اتجاهاتها ، ومع ذلك فليست له فيما نعتقد قصائد معينة نحا فيها ناحية الفلسفة ، وكل ما ورد فى شعره من بعض الاتجاهات الفلسفية إنما كان فى صورة أبيات تتشح بالفلسفة وتصطبغ بصبغتها ، الأمر الذى يجعلنا نقول إن المتنبى لم يستطع أن يحول الفلسفة والثقافة إلى فن وشعر كما حدث عند شاعر العربية أبى تمام .

٧- وإذا كنا لا ننكر أن للمتنبى هنات فى شعره بسبب ما احترفه من ضروب تصنع مختلفة ، فإن الحق يقتضينا أن نقول إنه شاعر اتخذ لمادته من نفسه معينا ومنبعا ، وقد استطاع بعبقريته ونبوغه ، وبمهارته الفائقة ، وبقدرته العجيبة على تأليف صور شعرية بديعة من خلال هذه الكثرة من الألفاظ الغريبة ، وبنمو هذه القدرة عنده بمرور الزمن - أن يستولى على حقيقة فنه وصناعته ، وأن يخفى ما تنطوى عليه هذه الصناعة من إغراب وتكلف شديدين ، وأن يحلق من ثم فى أفق الشعر العربى .

٨- والنتيجة المنطقية لكل ما سبق أن نرى ما كان عليه شعر المتنبى من أصالة وشاعرية صادقة ، فقد مثل حياته المنفردة المتميزة ، وصور واقعه الذى يعيشه ، وما

أظن القارئ إلا موافقا لى على أننا لا نتوقع من شاعر العربية المتنبى مهما كانت شاعريته ومهما كانت طاقته الفنية أن يسلم كل إنتاجه من النقد وينجو من المآخذ ، وأيا ما كان الأمر فعيوب الشاعر تتضاءل أمام محاسنه ، ونحن لا نستطيع أن نتفلت من تأثيره ومن روعة شعره .

وإنى لآمل أن أكون قد وفقت إلى بعض الصواب ، والله المستعان وهو الهادى إلى سواء السبيل .

د / طلعت صبح السيد

أهم المراجع والمصادر

أهم المراجع والمصادر

أولا : الكتب :

١- الإبانة عن سرقات المتنبى ، للعميدى . شرح إبراهيم الدسوقى البساطى .
دار المعارف بمصر ، الطبعة الثانية .

٢- أبحاث ومقالات ، لأحمد الشايب ، الطبعة الرابعة .

٣- أبو الطيب المتنبى - حياته وخلقه وشعره وأسلوبه ، محمد كمال حلمى .
مطبعة الشباب ، مصر ١٩٢١م .

٤- أساس البلاغ ، للزمخشرى :
دار مطابع الشعب بالقاهرة ١٩٦٠م .
وبيروت ١٩٦٥م .

٥- الأسلوب ، تأليف الأستاذ أحمد الشايب ، طبع ونشر مكتبة النهضة المصرية ،
الطبعة السابعة ١٣٩٦هـ ١٩٧٦م .

٦- أشعار الشعراء الستة الجاهليين ، للشنتمرى :
* الجزء الأول . دار الآفاق بيروت ، الطبعة الأولى ١٩٧٩م .

٧- أصول النقد الأدبى ، تأليف الأستاذ أحمد الشايب ، طبع ونشر مكتبة النهضة المصرية ، الطبعة الثامنة ١٩٧٣م .

٨- أمراء الشعر العربى فى العصر العباسى ، لأنيس المقدسى. دار العلم للملايين ، بيروت ، الطبعة العاشرة ١٩٧٥م .

٩- البيان والتبيين ، للجاحظ ، تحقيق عبد السلام هارون :
* الجزء الأول ، القاهرة ، الطبعة الرابعة ١٩٧٥م .

١٠- تاج العروس من جواهر القاموس ، للزبيدى :
* المجلد الأول ، المطبعة الخيرية بمصر ، الطبعة الأولى ١٣٠٦هـ .

١١- تاريخ الأدب العربى ، لأحمد حسن الزيات ، الطبعة الرابعة والعشرون .

١٢- تاريخ الأدب العربى ، للدكتور شوقى ضيف :
* (العصر الجاهلى) دار المعارف ، الطبعة السابعة .

١٣- تاريخ الأدب العربى ، للدكتور طه حسين :
* (العصر العباسى الأول) دار المعارف بمصر ، الطبعة السادسة ١٩٧٦م .
* (العصر العباسى الثانى) دار العلم للملايين، بيروت ، الطبعة الأولى ١٩٧٤م ، والطبعة الثانية ، دارالمعارف بمصر ١٩٧٥م .
١٤- تاريخ الأدب العربى ، عمر فروخ :
* الجزء الثانى ، دار العلم للملايين ، بيروت ١٣٨٨هـ ١٩٦٨م .
١٥- تاريخ الشعوب الإسلامية ، بروكلمان .ترجمة د. نبيه فارس ومنير البعلبكى
* (الجزء الثانى) دار العلم للملايين ، بيروت ط ا ١٩٤٩م .
١٦- تفسير أبيات المعانى من شعر أبى الطيب المتنبى، اختصار أبى المرشد سليمان ابن على المعرى ، تحقيق الدكتور مجاهد محمد محمود الصواف والدكتور محسن غياض عجيل ، دار المأمون للتراث ١٣٩٩هـ ١٩٧٩م .
١٧- تهذيب اللغة ، للأزهرى ، تحقيق عبد السلام هارون :
* الجزء الثامن ، الدار القومية للطباعة والنشر ١٣٨٤هـ ١٩٦٤ م .
١٨- جمهرة اللغة ، لابن دريد :
* الجزء الأول ، طبعة حيدر آباد ، الدكن ، الهند .
١٩- الحرب فى شعر المتنبى ، للدكتور محمود حسن أبو ناجى :
* الجزء الأول والجزء الثانى . دار الشروق ، جدة ، الطبعة الأولى ١٣٩٨ هـ ١٩٧٨م
٢٠- حصاد الهشيم ، للمازنى . دار الشروق ، بيروت ، الطبعة الثالثة ١٣٩٦ هـ ١٩٧٦ م .
٢١- حماسة أبى تمام ، للمرزوقى :
* الجزء الأول ، نشر أحمد أمين وعبد السلام هارون .لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، الطبعة الثانية ١٣٨٧ هـ ١٩٦٧ م .
٢٢- الحيوان للجاحظ :
* الجزء الثالث ، تحقيق مصطفى الجمالى ، مطبعة الحلبى ١٩٣٨م .
٢٣- خزانة الأدب ، للبغدادى :
* الجزء الثانى ، طبع القاهرة .
٢٤- دائرة المعارف الإسلامية (المجلد الثالث) .

٢٥- دلائل الإعجاز ، لعبد القاهر الجرجاني، تحقيق محمود شاكر ، مكتبة الخانجي، القاهرة ١٩٨٤ م .
٢٦- ديوان امرئ القيس ، تحقيق أبى الفضل ، دار المعارف ، الطبعة الثانية .
٢٧- ديوان زهير . دار بيروت للطباعة والنشر ١٣٩٩ هـ ١٩٧٩ م .
٢٨- ديوان المتنبى (شرح البرقوقى) ، و (شرح العكبرى) دار المعرفة للطباعة والنشر ، بيروت ١٣٩٧ هـ ١٩٧٨ م .
٢٩- الرسالة الحاتمية ، لأبى على محمد بن الحسن الحاتمى ، مطبعة الجوائب بقسطنطينية عام ١٣٠٢ هـ .
٣٠- زيادات ديوان شعر المتنبى، عبد العزيز الميمنى ، المطبعة السلفية ١٣٤٦ هـ .
٣١- سيف الدولة وعصر الحمدانيين ، الدكتور سامى الكيالى . دار المعارف بمصر ١٩٥٩ م .
٣٢- سيفيات المتنبى ، لسعاد عبد العزيز المانع . دار عكاظ للطباعة والنشر بجدة الطبعة الأولى ١٤٠١ هـ ١٩٨١م .
٣٣- شرح ديوان أبى الطيب المتنبى ، للواحدى ، طبعة برلين ١٨٦١ م .
٣٤- شرح ديوان الحماسة ، للمرزوقى ، تحقيق أحمد أمين وعبد السلام هارون :
* الجزء الأول ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، الطبعة الأولى ١٣٧١ هـ .
٣٥- شرح مشكل شعر المتنبى ، للأندلسى ، تحقيق الدكتور محمد رضوان الداية ، منشورات دار المأمون للتراث ، مطبعة محمد هاشم الكتبى ، دمشق ١٣٩٥ هـ ١٩٧٥م .
٣٦- شرح المعلقات العشر وأخبار شعرائها ،جمع وتصحيح الشيخ أحمد الشنقيطى ، دار القلم بيروت .
٣٧- شعر الحرب فى أدب العرب فى العصرين الأموى والعباسى إلى عهد سيف الدولة ، للدكتور زكى المحاسنى، دار المعارف بمصر ، الطبعة الثانية ١٩٧٠م .
٣٨- الشعر العربى المعاصر قضاياه و ظواهره الفنية و المعنوية ، للدكتورعز الدين إسماعيل ، القاهرة ، دار الكاتب العربى للطباعة والنشر ١٩٧١ م .
٣٩- الشعر والشعراء ، لابن قتيبة ، تحقيق أحمد شاكر :
* الجزء الأول ، طبعة دار المعارف .

٤٠- الشعر والشعراء فى العصر العباسى الثانى ، للدكتور مصطفى الشكعة ، دار العلم للملايين ببروت ، الطبعة الثانية ١٩٧٥ م .
٤١- الصبح المنبى عن حيثية المتنبى للبديعى ، تحقيق مصطفى السقا و محمد شتا وعبده زياده ، دار المعارف الطبعة الثانية .
٤٢- الصحاح، للجوهرى (تاج اللغة وصحاح العربية) ،تحقيق أحمد عبد الغفور عطار:
* الجزء الأول ، مطابع دار الكتاب العربى بمصر .
٤٣- الصناعتين ، لأبى هلال العسكرى ، تحقيق البجاوى وأبى الفضل ، دار الفكر العربى ، الطبعة الثانية .
٤٤- طبقات فحول الشعراء ، لابن سلام ، شرح محمود شاكر :
* الجزء الأول ، مطبعة المدنى بالقاهرة .
٤٥- ظهر الإسلام ، لأحمد أمين :
* الجزء الأول ، دار الكتاب العربى ، بيروت ، الطبعة الخامسة ١٣٨٨ هـ ١٩٦٩م .
٤٦- الظواهر اللغوية والنحوية فى شعر أبى الطيب المتنبى (رسالة ماجستير) محمد عزت عبد الموجود ، مكتبة جامعة القاهرة ١٩٦٢ - ١٩٦٣ م .
٤٧- عبقرية البحترى ، عبد العزيز سيد الأهل . دار العلم للملايين ، بيروت ، الطبعة الأولى ١٩٥٣ م .
٤٨- العرف الطيب فى شرح ديوان المتنبى ، للشيخ ناصيف اليازجى :
* الأجزاء ١ ، ٢ ، ٣ طبعة سنة ١٨٨٧ م .
٤٩- العمدة ، لابن رشيق :
* الجزء الأول ، دار الجيل ، الطبعة الرابعة ١٩٧٢ م .
* الجزء الثانى ، دار الجيل ١٩٨١ م .
٥٠- العين ، للخليل بن أحمد ، تحقيق الدكتور إبراهيم السامرائى ومهدى المخزومى:
* الجزء الرابع ، بغداد ١٩٨٢ م .
٥١- الفتح الوهبى على مشكلات المتنبى ، لابن جنى ، تحقيق محسن غياض ، مطبعة الجمهورية ببغداد ١٩٧٣ م .

٥٢- الفن ومذاهبه فى الشعر العربى ، للدكتور شوقى ضيف ، دار المعارف بمصر ، الطبعة العاشرة .

٥٣- فنون الشعر فى مجتمع الحمدانيين ، للدكتور مصطفى الشكعة . مطبعة المعرفة القاهرة ١٣٧٨ هـ ١٩٥٨م .

٥٤- فى النقد الأدبى ، الدكتور شوقى ضيف . دار المعارف بمصر ، الطبعة الثالثة .

٥٥- القاموس المحيط ، للفيروزابادى :

* الجزء الأول ، مؤسسة الحلبى وشركاه للنشر والتوزيع ، القاهرة .

٥٦- قطر المحيط ، لبطرس البستانى ، نشر مكتبة لبنان .

٥٧- الكامل فى التاريخ لابن الأثير :

* الجزء السادس . إدارة الطباعة المنيرية ١٣٥٣ هـ .

* والجزء الثامن ، دار الكتاب العربى ، بيروت ، الطبعة الثانية ١٣٨٧ هـ ١٩٦٧م .

٥٨- كشف الظنون ، لحاجى خليفة :

* الجزء الأول ، طهران ١٣٧٨ هـ .

٥٩- الكلام فى شعر البحترى وأبى تمام ، محمد طاهر الجبلاوى . طبع ونشر دار الفكر العربى .

٦٠- لسان العرب لابن منظور :

* الجزء الأول ، الدار المصرية للتأليف والترجمة والنشر .

* الجزء الخامس ، بيروت ، دار صادر ١٩٥٦ م .

٦١- المتنبى بين ناقديه فى القديم والحديث ، للدكتور محمد عبد الرحمن شعيب ، دار المعارف بمصر طبعة سنة ١٩٦٤م وسنة ١٩٦٨م .

٦٢- المتنبى وشوقى وإمارة الشعر ، عباس حسن . دار المعارف بمصر الطبعة الثانية ١٩٧٢ م .

٦٣- المثل السائر ، لابن الأثير :

* الجزء الثانى ، طبعة الحلبى ١٩٣٩م .

٦٤- محاضرات عن الحركة الأدبية فى حلب ، الدكتور سامى الكيالى . مطبعة نهضة مصر ١٩٥٦ م ١٩٥٧ م .

٦٥- المحكم والمحيط الأعظم فى اللغة ، لابن سيده ، تحقيق إبراهيم الإبيارى :
* الجزء الثانى ، مطبعة الحلبى ، الطبعة الأولى ١٣٩١ هـ ١٩٧١م .
٦٦- مختار الصحاح ، للرازى . مطبعة مصطفى البابى الحلبى بمصر ١٣٦٩ هـ ١٩٥٠ م .
٦٧- المديح (سلسلة فنون الأدب العربى) الدكتور سامى الدهان، دار المعارف بمصر.
٦٨- مروج الذهب ، للمسعودى ، تحقيق محمد محيى الدين (الجزء الرابع). مطبعة السعادة ، الطبعة الثالثة ١٣٧٧ هـ ١٩٥٨ م .
٦٩- المزهر فى علوم اللغة وأنواعها ، لجلال الدين السيوطى ، تحقيق محمد أحمد جاد المولى وآخرين ، طبعة دار إحياء الكتاب العربى بالقاهرة .
٧٠- مطالعات فى الكتب والحياة ، للعقاد ، طبعة المكتبة التجارية سنة ١٩٢٤ م .
٧١- معاهد التنصيص على شواهد التلخيص ، للعباسى :
* الجزء الأول ، عالم الكتب ، بيروت ١٣٦٧ هـ ١٩٤٧م .
٧٢- المعجم الوسيط ، (مجمع اللغة العربية) :
* الأجزاء ١ ،٢ إخراج إبراهيم مصطفى وأحمد حسن الزيات وحامد عبد القادر ومحمد على النجار ، أشرف على الطبع عبد السلام هارون .
٧٣- مع المتنبى ، للدكتور طه حسين . دار المعارف بمصر ، طبعة ١٩٣٧م ، والطبعة الحادية عشرة ١٩٧٦م .
٧٤- مقاييس اللغة ، لابن فارس ، تحقيق عبد السلام هارون :
* الجزء الرابع ، القاهرة ، الطبعة الثانية ١٩٦٩م .
٧٥- مقدمة للشعر العربى ، لأدونيس ، دار العودة بيروت الطبعة الأولى ١٩٧١م.
٧٦- المنجد ، للويس معلوف ، المطبعة الكاثوليكية ، بيروت ، الطبعة التاسعة عشرة .
٧٧- مهيار الديلمى وشعره ، على على الفلالى . مطبعة الاعتماد ، مصر١٩٤٧م .
٧٨- موقف الشعر من الفن والحياة فى العصر العباسى ، للدكتور محمد زكى العشماوى ، دار النهضة العربية ، بيروت ١٩٨١ م .
٧٩- نخب تاريخية وأدبية جامعة لأخبار الأمير سيف الدولة الحمدانى ، ماريوس كنار ، طبع ليشيو ليطو وجول كربونيل ، الجزائر ١٩٣٤م .

٨٠- النقد الأدبى ، تأليف الأستاذ أحمد أمين . طبع ونشر مكتبة النهضة المصرية ، الطبعة الرابعة ١٩٧٢م .

٨١- النقد الأدبى الحديث ، للدكتور محمد غنيمى هلال ، دار النهضة العربية ، الطبعة الرابعة ١٩٦٩م .

٨٢- نقد الشعر ، لقدامة بن جعفر ، تحقيق كمال مصطفى ، القاهرة ، الطبعة الثالثة ١٩٧٨م .

٨٣- الوساطة بين المتنبى وخصومه ، للجرجانى ، تحقيق أبى الفضل والبجاوى . مطبعة الحلبى وشركاه ، ١٣٨٦ هـ ١٩٦٦م .

٨٤- وفيات الأعيان ، لابن خلكان :

* الجزء الأول ، تحقيق محمد محيى الدين ،القاهرة ١٩٤٨ م .

٨٥- يتيمة الدهر ، للثعالبى :

* الجزء الأول ، تحقيق محمد محيى الدين ، دار الفكر ، بيروت الطبعة الثانية ١٣٩٣ هـ ١٩٧٣ م .

ثانيا : الصحف والمجلات :

٨٦- صحيفة دار العلوم (السنة السادسة) العدد الثانى يناير ١٩٤٠ م .
٨٧- مجلة القاهرة عدد ١٧٦ فى أغسطس ١٩٧١ م .
٨٨- الهلال (عدد خاص بالمتنبى) أول أغسطس ١٩٣٥ م .

فهرس الموضوعات

الموضـــــوع	الصفحـــة

الموضـــــــوع	الصفحـــة

الفصل الرابع

الموضــــــــوع	الصفحــة

الفصل الخامس

الفصل السادس

الفصل السابع

الموضـــــــوع	الصفحــة



رقم الإيداع فى دار الكتب المصرية
٨٨٦٢ / ١٩٩٠م